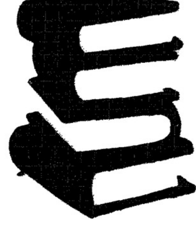
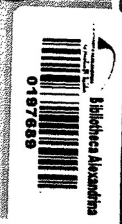
علي المصري



في رحاب الفكر والأدب







دراسة

في رحاب الفكر والأدب

علي المصري

في رحاب الفكر والأدب

الجزء الأول

أدباء من بلدي :

١ – المرأة الوطن في شعر نزار قباني .

٢ – أضواء على بعض القضايا الثقافية في فكر الدكتور علي عقلة عرسان .

٣ – الغربة والإنكسار في شعر عبد السلام محاميد .

٤ – أضواء على ديوان ألحان من اليرموك لعبد الكريم الحمصي .

٥ – الاغتراب والرحيل عن الذات في شعر يوسف الصياصنة.

٦ – هوامش على ديوان جمة الريحان لأحمد عبد الرحمن فداح .

دراسات

منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٥

تصميم الغلاف الفنانة : سندريلا بهلوان

الإهـــــداء ...

إلى المؤمنين معي بقدرة الأمة العربية على البقاء .

إلى المبدعين رغم احتجاب الرؤية وكثافة الضباب .

إلى الصابرين على قهر العدو واضطهاد الصديق .

إلـى الذيـن يقـامرون برؤوسـهم فـي سـبيل كلمــة حـق يقولونها.

إلى الذين يصلبون نفوسهم على شفاه حروفهم رغم كثرة الشامتين

إلى الشرفاء الشهداء من أبناء أمتي :

أقدم جهدي المتواضع هذا

علي

إضاءة ...

عزيزي القارئ :

هذه مجموعة محاضرات ألقيتها في صالتي المركز الثقافي . وفرع اتحاد الكتاب بدرعا . تناولت فيها بالدارسة نتاج خمسة شعراء ومفكر ، من بلادي. أحببتهم وأحبوني .

أصر ذوو الشأن منهم على تضمين هذه الدراسات دفتي كتاب حفظا لها من الضياع . مثمنين عالياً الجهد المبذول في كتابتها وصياغتها .. فأعجبني هذا الإصرار .

وها أناذا . أضعها بين يديك ، يا قارئي العزيز . بخيرها وشرها ، ومقدماتها ، دون أن أغير فيها حرفاً واحداً .

فإن راقتك . ونالت إعجابك فهذه غايتي ، وإلاّ فحسبي وهذا جهد المقل .

درعا علي المصري

□□

توضيح

بسم الله الرحمن الرحيم

أيّتُها السيِّداتُ والسَّادَةُ... مسَاءُ الخَير

يُسعدُني ... أظنُّها كلمةً لا تحملُ مافيَ من شُحناتٍ عاطفةٍ ، لأفتَتِحَ بها حديثي إليكم ... لذا أقولُ : يُشْغِلُني أنْ ألتقيَ بهذه الوجوه الحبيبةِ – بعدَ غيابٍ طالَ ، طالْ . حتى قارَبَ العشرينَ شهراً – والتي ما فارقتني قَطُّ في ليل اغْترابي .

ولستُ أدري إنْ كانَ صحيحاً أني عدتُ إليكم ، لأسمعَكمْ جُنوني منْ جديدْ ، أمْ أنّي أتَوهَّمُ ذَلكْ ؟!

أوَ صَحيحٌ أنكُم تُصغُونَ إليَّ ، ولا تضيقُونَ بي ذَرْعا؟

في الحقيقةِ ، أكادُ أكونُ في ريْبٍ مِـنْ هَـذا وذاكْ .. لأنّي إذْ أقِـفُ الآنَ أمامَكُمْ وأنا بكامِلِ لَياقَتي ، فَذلِكَ لأنّي أقِفُ عَلى عِظامِ كِبْرِيائي.

قَدْ يَتَساءَلُ البَعْضُ : ماهيَ حِكايتي ؟

القَضِيَّةُ بَسيطةٌ جداً ، هيَ عِبارَةٌ عَنْ خِـلافٍ شَـخْصي وخصوصي جداً ، بَيْني وَبيْنَ قَلْبي .

أجَلْ ... قَلْبي ... أيُّها السادَةْ .

قَلْبي الَّذي ما ارْتَضَيْتُ لَهُ يَوماً بأقلَّ مِنْ رُكوبِ صَهَواتِ الرِّيحِ ، وَوَميضِ البروقِ ، وأجْنِحَةِ الكَلِماتِ المُضيئةِ المُشْرِقَةِ الَّتي تَخفِقُ باسْمِ الله .. وتَعَايَشْتُ معَ هَذا القَلْبِ مُرغَماً على قبولِ نَزَواتِهِ ، الَّتي كثيراً ما أوْقَعَتْني في إشْكَالاتٍ عَويصَةٍ ، لا أخْرُجُ مِنْها إلاَّ مُثْخناً بالجِراحْ .

وهَا أنا ذَا أشْكُو إليكم نَزَواتِ قَلْبي الطَّائش ياسَادتي .. لأنكم أهْلي وأصدِقائي .. قلبي عاشقٌ مفتُونٌ باللَّون ، فالألوانُ تُزَلْزِلُهُ ، وتُفْقِدُهُ اتِّزَانَهُ . فمثلاً ما إنْ يَرَى عَيْنَيْنِ مُلَوَّنَتَيْنِ مُصادَفَةً في عَرْضِ الطَّرِيقْ ، حتَّى يَجُنَّ جُنُونُه ، فيخلَعَ أرْدِيتَهُ ، ويَطفُرَ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيَّ ، مُحطِّماً كُلَّ الحواجِزِ الَّتي تَعْتَرِضُ طَرِيقَهُ ، ويقفِزُ ليسْتَحِمَّ في بُؤبُؤيْهِمَا، مأخُوذاً بلونِهما، مَفْتوناً بينَ زُرْقَةِ البَحْرِ ، وخُضرةِ الغَابَاتِ، وَأَلَقِ الرِّمالِ الزَّاهِيةِ بعواني الصَّحْوِ في تِيْكَ العَيْنَيْنِ المُشْمِسَتَيْنِ .

قَلْبي .. أيُّها الأصدِقَاءُ .. تَسْتَبِيهِ الضَّفَائرُ الطَّويلَةُ ، وتَسْتَعْبِدُهُ حركَاتُها المُتَناوِسَةُ على إيقَعَاتِ الرِّدْفَيْنِ الرَّشيقَيْنِ ، ويَعْشَقُ الأرْجَحَةَ بَيْنَ غَابَاتِ الحِنَّاءِ وَالبَيْلسَانِ في أغمارِهِما ، فَيَتوهُ عَنِّيْ ، ولكنْ وَللأسفِ ، كثيراً ما وجَدْتُهُ مَشْنوقاً بأسْلاكِ الذَّهَبِ ، بَين طَيَّاتِ الحريرِ وزَغَبِ المُخْمَلِ دَاخِلَ الجَدائلِ الطويلةِ.

عِفريتٌ قَلْبي .. يا أصْدِقائي .. إنَّهُ يَخْرُجُ عَنْ طَوْرِهِ . ويَفْقِدُ صَوَابَهُ ، مُتَجاوِزاً كُلَّ حُدودِ اللَّياقَةِ، بمجَرَّدِ رُؤيتِهِ لِقُرطَيْنِ خَمِينَيْنِ طَويلَيْنِ ، يتنغَمانِ في تَنَاوسٍ رَائعٍ ، فَوْقَ مَقالعِ الرُّخَامِ علَى الكَتِفَيْنِ.

الموغِلَتَيْنِ في البُعدِ عَنْ مَهوَى القُرطَيْن. فيثورُ بُركَانُهُ ، وبَقـدرةٍ قَـادِرٍ أراهُ وقَدْ أخذَ يَتَأرْجَحُ بِذيْنَكَ القُرطين الهائين ، ويتزحْلَقُ فَوقَهُما ، ليقفِزَ عَلى مَلاسَةِ الحرير ، وشَلالاتِ الضَوْءِ البَاهِرَة على الكَتِفَيْـن ، لِيَعـودَ فَيَتسـلّقَ أدْغالَ البُخُورِ والعَنبَرِ ، والعِطِرِ والعَبيرِ في عَاجِ العُنقِ الأتْلَعِ ، وُصولاً إلى القُرطين .. وتَستَمِرُّ اللُعْبَةُ بَينَ الأرْجَحَةِ وَالتزَحْلقِ وَالتَسَـلُقِ مِـنْ جَديـدْ ، حتّى يفنى الزَمَنُ ، وتَضْمَحِـلُّ المَسـافَات ، وتَهْبِـطَ نُجُـومُ السَّـماءِ مِـنْ خَيْمَتِها لِتَأْوِيَ إلى مقالع الرّخَامِ عَلَى الكَتِفَيْنِ السّائلين فِضّةً وعبيراً .

هـذا القلْـبُ المُدَلّـلُ بِأصدقَـائي .. عَـانَدَنِي ... ورَغْـمَ سُـكوتي وصَبْري على نَزَوَاتِهِ ، أرادَ أنْ يُضْـرِبَ عَنِ الصَّهِيـلِ ، وأعْلَنَ العِصْيَـانَ المُسَلَّحْ ... وَأمْعَنَ في تعنتِهِ .. فَأغْلَقَ بَوّاباتِ الشَّـرايينِ المُغَذِيَـةِ لَـهُ . بَادِئـاً بذلك إضْراباً عنِ الطّعامِ كالكهنة البوذيين ، واعْتَصَمَ في بَرزَخٍ بَيْنَ الحياةِ وَالمَوْتِ ، وَعَسْكَرَ هُنَـاكْ... الذيـنَ زاروني في قِسْمِ العِنَايَـةِ المُشَـدَدَةِ في حِينِهِـا ، اطّلعـوا عَلَـى تَعَنُّتِـهِ وَ عِنَـادِهِ ، وَمُمَارسَـتِهِ القَمْـعَ وَالإرْهَابِ عَلَىّ لشتّى الحرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتْ .

وَلاَ أحْسَبُ إلاّ أنّ قُدْرَةً أقْـوىَ مِنّي ، وَأقْوى مِـنْ سُـلْطَةِ البَشَـر ، وهِيَ الّتِي أقْنَعَتْـهُ بِإنهـاءِ الإضْرابِ ، وَفَكِّ الاشْتِبَاكِ ، وتَخفيـضِ حِـدَّةِ الأحْكامِ العُرْفيّةِ الّتِي أعلنَها ، وتَخفيفِ وَطْأةِ القمـعِ والإرْهَـابِ ، ومُتابَعَـةِ الوَجيبْ .. فَاستَجابَ عَلَى مَضَضْ .

وَأَزْعُمُ أَنَّهُ رُبَّمَا كانَ لِتَدَخّلاتِ أَطْرافٍ أُخرى دَورٌ في عَمَلِيَّةِ المُصَالَحةِ ، وتخفيفِ حِدَّةِ تَوَتُّرِهِ وتَعَنُّتِهِ ، وتَوْقيعه في عَاصِمَةٍ مِن العواصِمِ المُصادَرَة ، عَلَى وَثيقةِ النِّفَاقِ وَالافْتِراقْ ، تلك الأطراف هيَ أشِعَّة الحُبُّ اللافحةُ الَّتِي كَانَتْ تَرْمُقُهُ ،وتَتَوسَّلُ إليهِ وَلَدَيهُ ، وهِيَ مُحيطةٌ بسَريري ،منْ عُيونِ أحِبتّي وأصدِقائي الَّذين غَمروني بحَنَانِهِمْ ـ مَشْكُورِينَ ـ بأكثرَ مِمَّا أَسْتَحِقُّ ، فكَانَ لِحُبِّهِمْ مَفعولٌ يفُوقُ مفعُولَ الحُقَنِ وَالسَّيرومِ والأَدْوِيةِ والمُسَكِّنَاتُ .

«هَذَا مصابي . وَهَذي الكَأسُ وَالرَّاحُ إنـي أحِـبُّ .. وبَعـضُ الحـبِّ ذبَّـاحُ
أنـا الشَّـقيُّ ولَـوْ شـرَّحتُمُ جَسَـدي لسَـال مِنْـهُ .. عنـا قيـدٌ .. وتُفَّـاحُ
ولَـوْ فَتَحتُـمُ شَـراييني بِمديتِكُـمْ سَمِعتُمْ في دَمي ، أصواتَ مَن راحوا
جِراحَةُ القَلْبِ تَشْفي بَعْضَ مَنْ عَشِقُوا ومـا لِقَلْـبي.. إذا أحْبَبْـتُ جَـرّاحْ»

**

وإنيّ إذْ أَلْتَقي بِكُمُ اليَومَ ، وَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ ، بَعْدَ غيابِ دَهْرٍ طويلٍ ، طويـلٌ ، فَـلأرُدُّ إليكُـمْ بَعْـضَ جَميلكـمْ ، وَ بِفيْـضٍ مِـنْ السَّـعادَةِ الغـامِرةِ أُحَيِّكُـمْ ، وَ أُرَحِّـبُ بِكُـمْ ، مَـنْ أَحَبُّونـيَ ، وَمَـنْ قلونـي . وأَسْتَحْلِفُكُمْ باللّهِ يا أهلَ حَوْرانَ، أنْ تُساعدُوني عَلـى كَسْرِ جماح هـذا القَلْـبِ العـامِرِ بحُبِّكُمْ فتبحثوا معي لإيجادوسيلة لتحسـين أنسـالكم .. فتكثروا اليمـا تَنْسِـلونَ مِنْ ذَوَاتِ العُيونِ الوَسِـيعَةِ المُلَوَّنَـة، والصَّفْـر

الطُّويلة، وأَنْ تُجبروا جَميلاتِكم علَى التَّزيُّن بالأقراطِ الجَميلةَ الطُّويلَةُ، لَعَلَّ هذا القلبَ يَرِقُّ ويَلينُ ، فيَسْلِسَ قِيادَهُ ، ويُعاوِدَ رُكوبَ صَهَواتِ الرِّيح ، ووَميضِ البروقِ ، ويُمْعِنَ بالصَّهيلْ .

اللَّهُمَّ بَصِّرْنَا بأقدارنا .. ولاَ تُذِلَّنَا بصغارنَا .. ولاتجعلْنا في العَمَلِ كأهلِ الجحيمِ .. كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ... وبَاللّه ثم بكُمْ أَستَعينْ .

علي المصري

درعا الإثنين ٢٨ | ٣ | ١٩٩٤

ألقيت على صالة اتحاد كتاب العرب مقدمة لمحاضرة مساء يوم الاثنين ٢٨ / ٣ / ١٩٩٤ بدرعا .

[المرأةُ الوطن في شعر نزار قباني]

كلمة اعتذار :

١ – أعتذرُ مُسبقاً «لأولئك الذين يدَّعونَ فهمَ خفايا القصيدةِ كلِّها من القراءة الأولى ؛ فهؤلاء هم عباقرة نادرون ، وعلى الرغم من هذا . فإنّي أستميحُهُم العُذرَ أن يحتفظوا بنقدهم لتلكَ القصيدة لأنفسهم .

لأنَّ القصيدةَ دُنيا كاملةٌ بأبعادِها وتضاريسها ومُناخاتِها ، ولايعقلُ بالنَّظْرةِ الشُّمولية فكُّ رموزها وفهم أسرارها ؛ لذا يبقى نقدهم سطحياً مهما عَمُقَ ، واعتباطياً مهما حشَوهُ بألفاظ ؛ المنهجيةِ والموضوعية والبُنيوية » ودليلي على ذلك وشاهدي قصَّةُ الشيخ وأبي نواس مع بيته:

ألا فاسقني خمراً وقُلْ لي هي الخمرُ

ولاتسقني سراً إذا أمكنَ الجهرُ

٢ – كما وأعتذرُ للقصيدةِ نفسها « هذه القصيدةِ المصنوعةِ من وهجِ النجيع الأحمر والموصوفةِ بحجارة الأعينِ ، وانبثاق النور من غدد الجمال في وجدان الشاعر !

فالقصيدةَ أيتهاّ السيدات والسادةُ ، ليست إناء رومانياً أو فينيقياً من الفخار ، تنتهي مهمتنا بقراءةِ الكتابةِ المحفورة عليه ! القصيدةَ أيُّها المتذوقونَ للشعر ، ليستْ مادةً منتهيةً ، ليستْ زمناً ميتاً . إنها جسرٌ ممدودٌ على كل الأمكنة !

- فهَا ملتْ مثلاً : لاينتهي إلى العصر الإيزابيتيّ فقط ، بل إن ظلّهُ ينسحبّ على كل العصور .

- وحريةَ بول إيلوار ، هي ليست حريةَ فرنساَ وحدَها ، وإنما هي حريةَ الزنوجِ ، والفيتناميين ، والفلسطينيِن ، وكلَ من يزرعونَ الرماحَ في لحم جلاديهم .

- ودم لوركا المسفوحُ في بساتين غرناطة ،ليسَ دماً أندلسياً فقط ، وإنما هو دمُ البشرية كلهاَ » .

– والمتنبي هذا الذي يقف وحده في كفةِ الميزان ، ويقف الزمان كله في الكفة الأخرى ، يبدو لي : رجلاً لا جنسية له ، ولا جواز سفر ، رجلاً يقفز على جبهة العصور كلها » .

٣- وأعتذرُ للفهمِ أيضاً «لأنَ فهمَ القصيدةِ فهماً تاريخياً ، هو فهمٌ خاطىءٌ ، لأنَ التاريخَ هو علمُ الحوادثِ الميتةِ ، علم الحوادثِ التي توقفتْ عن الفعلِ والانفعال .

أما القصيدةُ ، فليستْ مادةً منهيةً ، وليستْ زمناً ميتاً :

فسيفُ الدولةِ الحمداني ، مثلاً ،حادثٌ تاريخيٌ ، ولهذا فهو قابلٌ للموت .

أما المتنبي: فهو حادثٌ شعريٌ ، خارجَ سلطة الموت.

وإذا كان سيف الدولة الحمداني «لايزالُ يتنفسُ في ذاكرتنا حتى اليوم ، فلأنَ قصائدَ المتنبي فيه ، هي التي جعلتْ تنفسَهُ ممكناً ! » .

٤- وأعتذرُ للذين اعتادوا قراءةَ الشعرِ للحكمة والموعظة وفتحَ مرافق الحلوق العريضة في مهرجاناتِ الردحِ في بلاطاتِ السلاطين والأمراء، لأنهُ لن يروقَ لهم شعرُ نزارٍ ، ولن يتناسبَ مع سعةِ أشداقهم.

فقراءةُ شعر نزارٍ سفرٌ أبديٌ على جندولٍ عبر دروب فينيسيا، والوادي الكبيرِ ، بصحبةِ زوبعةٍ من العُطور ، ترشُّها جدائلُ دليلةٍ شقراءَ على أبوابِ قصر الحمراء ؛ أو أعطافِ ماردةٍ سويديةٍ من ماراداتِ الشّمال ، تضعُ القمرَ على ذوائبِها ، وتتعلقُ نجومُ المجرَّةِ بأذيالها .

٥ – كما واعتذرُ للمتأدِّبين والمستشعرين المحدثين ، دُعاةِ التقدميَّة في الخروج على قواعدِ اللغة ، والغموضِ في الأدب ، والإعواصِ في المعاني ، أصحابِ الألفاظ المتدحرجة ، والأفكارِ السديمية المائعة..

اعتذرُ منهم جميعاً ، لأنَّ الرحلةَ مع شعر نزار ، ولغة نزار ، وتألُّق نزار ؛ ستتعبُهم بوضوحها ، وصفائها ، وزينتها ؛ ولأنها تحتاج إلى تلقٍ هادئ ، وسماع ركين ، بعيداً عن طقطقة أحجارِ النَّرْد ، وصفقِ الواحدِ والأربعين ، وقرقعة الأناشيد المدرسية .

٦ - وأخيراً أعتذرُ لكلِّ الذين مازالوا يعيشون بمنطقِ الطبلِ ، ويحركونَ أقدامَهم لنغمةِ الوترِ الواحدِ، منطقِ الربابة والدفِّ ؛ لأنَّ هؤلاء لن يعجبهم شعرُ نزار ؛ فالبناءُ الهرمونيكي لشعر نزار ، بناءٌ سمفوني، تختلطُ فيه الألوانُ بالضوء ، وتمتزجُ فيه الأنغامُ مع الظلال ، والصورُ مع قهقهاتِ الفكرِ الوضيء ، في سيلٍ هادرٍ يقيمُ الدنيا ويُقعدُها على إفرازٍ جمالي يسربلُ الكونَ بألفِ غيمةٍ بنفسجيةٍ تمطرُ زُمرُداً وحبّاً وياقوتا .

وبعد ؛

المرأةُ الوَطَنُ في شعر نزار قباني

ونبحثُ تحتَ هذا العُنوان المواضيعَ التالية:

١ - الوطنُ مغلّفٌ بالحب والمَرأةِ في شعرِ نزار .

٢ - لماذا تبنّى شعرُ نزارٍ الدفاعَ عن قضيّةِ المرأة ؟

٣ - مَنْ هي المرأةُ التي يفضّلُها نزار .

٤ - لماذا اختارَ الشاعر المرأةَ هدفاً نضالياً ؟

_ مقدمة لمحاضرة ألقيت مساء يوم الاثنين ٤ | ٤ | ١٩٩٢ بصالة المركز الثقافي بدرعا .

فَهِمَ الكثيرون منْ مدَّعي الفهْمِ ، حبَّ نـزارٍ للمـرأة ، وحتّى يومنا هذَا ، فَهماً مغلوطـاً لامُسَوِّغَ لـه ، يقـومُ في أفضـل الحـالات علـى الغبـاء والسـطحيَّة وعـدمِ التبصّـر، تمامـاً كمـنْ فهمـوا مـأثورَ القـول : إنَّ اللبيـب مـن الإشـارة يفهـمُ ، فظنـوا الفهـمَ لأنفسـهم وادَّعُوه !

صحيحٌ من هذا المنظور أنَّ الحبَّ في شعر نزار ، يحتلُّ مسـاحةً هائلةً من مساحته الشعريَّة . وأنَّهُ قضيةٌ كبيرةٌ ، أو جُعِلَ منـه قَضيـةً كبيرةً ، بلْ ومن أكبرِ القضايا التي شَغلتْهُ رَدْحاً طويـلاً مـن الزمـنِ ، ولازالتْ تَشْغَلُه ؛ نظَراً لما يُحيطُ هذه القضيـةَ مـن ضبـابٍ يُسـربلُها ويجعلُها أقربَ إلى الغموض والخرافةِ ، منها إلى الوضـوح والعُذوبـةِ. قضيةٌ لها أبعادٌ قصيَّةٌ ، وجذورٌ عميقةٌ في قلب كـلِّ عربـي – وكـلِّ إنسان – تنسحبُ على مساحة أيّامنـا ولياليـنا الطّـوال ، تمامـاً كمـا تنسحبُ على امتداد حياة الشاعر متسلقةً صخورَ هرمـهِ الشـعريِّ ، والصاعدةَ بلهفةٍ ووجعٍ ، منذُ أيّامِ عنترةَ وعبلةَ ، وشهريارَ وشهرزادَ حتى يوم الناس هذا ... اتساءل :

« ألايشغَلُ الغزلُ ، من الإرثِ الشعري الذي خلفه لنا العصرُ الجاهلي ، مكاناً واسعاً ، حتـى ليكـادُ أن يكـوِّنَ الجـزء الأكـبرَ مـن ثَروتنا الأدبية في ذلك العصر ؟ ومطالَعتنا دواوينَ الجاهليينَ المختلفةَ، تضعُنا أمامَ هذه الحقيقة الواضحةِ ؛ وهي أنَّ كثرةً كثيرةً مـن الشـعر الجاهلي الذي وصـلَ إلينـا ، تكـادُ تكـونُ قـاصرةً علـى الغَـزل ، أو مُتَّصِلةً به بِسبب .

وأنَّ الأغراضَ الأخرى جميعاً : من الفخر والمدحِ والهجاءِ والرثاء ، لاتعْدوا أن تكونَ قسيماً لشعر الغزل .. إنَّ الثروة الشعرية كالقطعةِ الذهبية ذاتِ الوجهين : نقشَ الجاهليونَ على صفحتِها الأولى عواطِفَهم التي ابْتَعَثها فيهمُ الحبُّ ، ومايُؤدي إليه هذا الحبُّ من وصلٍ أو هجر ، ومن سعادَةٍ أو شقاء ، ومن لَذَّةٍ أوغُصَّة؛ وصوَّروا هذه العواطفَ وأفنوا في تصويرِها ملَكاتِهمْ ومواهبَهْم .

وأمَّا الصفحةُ الأخرى فقد جمعوا عليها كلَّ أغراضِهم الأُخرى ، ونثروا في أطرافها كُلَّ الفنونِ والأغراضِ الثانية ، كائنة ماكانت هذه الفنون والأغراض » .

ربَّما هذه الكثافة من الشعرِ الغزلي التارخي ، والآني عندَ نزار ، هو ما أضْفَى على هذه القضيَّة سِربالاً من عدمِ الفهم والوضوح للبعض منهم .

فالحبُّ في شعر نزار ، ليس نزوةً ، ولاعرضاً لحالة وجدٍ مؤقَّتة، ولامغامرةً تنتهي بلقاء مرتقب ولا أخذاً ولا استلاباً ، وإلاّ لانتهى لكنَّهُ حياةٌ نَشِطةٌ فوَّراةٌ .. وعطاءٌ لاينتهي .. وإلهامٌ لايتوقف، وعذاباتٌ تتوالدُ من عذاباتٍ . أوليس هذا هو الوطَنُ وهمومه ؟ لا للمرأةِ ورقَّتها؟

هو نوعٌ من العبادة والسَّفرِ إلى المجهولِ ، على زورقٍ مِن الوجد والضنى .. ذلك لأنَّ المرأةَ في شعرِ نزار هي ، وأنا ، وأنْتِ ، وهم ، وهنَّ ، الوطنُ بخيراته وبكلِّ مافيه من معانٍ ساميةٍ ، وصباحاتٍ سائلةٍ تتنفس في القلوب .

وإذا تعمَّدَ الشاعرُ التَّوجُّهَ بهذا الحبِّ إلى المرأةِ ، فلأنَّها في قرارَتِهِ وطنُه الأصيلُ ، ومرابعُ خياله، ومحطُّ آمالِه ، ووحيُ إلهامهِ؛

ينامُ في حِضْنِها الدافئ وكأنّه يحتضِنُ الروابي والسهولَ .. ويلتحـفُ جدائلها الغزيرة وكأنه يستظلُّ أشجارَ الحور والزيزفون والياسمين .. ويرضعُ لَبَنَها وكأنه يكرعُ دِماءَ الكروم ولُجيْنَ السواقي .. ويسافرُ في زُرْقة عينيها بغير قلوع ، وكأنَّهُ يجوبُ سهولَ وطنه مبلَّلا بـالندى .. ويتنقَّلُ بنظره على تضاريس جسَدِها الفذِّ وهو يحسِبُ أنـه يقفـزُ على قمم الجبـال وينـوشُ ذؤابـاتِ الشـجر ومـآذنَ الخير ، وقبـابَ الرشاد ..

هذا هو الحبُّ في شعرِ نزار ، سفرٌ دونَ وصول . وإبحارٌ بغـير سُفُنٍ ، وعبادةٌ مـن طـرفٍ واحـدٍ وبـلا أمـلٍ ، في هيكـلِ الجمـال ، مترفّعاً عن المقاطع التي تخرج من بين الشفاه :

فـإذا وقفـتُ أمَـامَ حسـنكِ صامتـاً	فـالصمت في حـرم الجمـال جمـال
الحـبُّ ليـسَ روايـةً شـرقيّةً	بختامهـا يـتزوج الأبطـالُ
لكنّـهُ الإبحـارُ دونَ سـفينةٍ	وشـعورُنا أنَّ الوصـولَ محـالُ
هـو جـدولُ الأحـزان في أعماقنـا	تنمـو كـرومٌ حولَـه وغِـلالُ
إنّـي أحِبّـكِ مـن خـلال كـآبتي	وجهـاً كوجـه الله ليـس يطـالُ

هكذا هو الحبُ والمرأةُ كما سمعنا في شعر نزار ، حقيقةٌ مجرَّدَةُ عندَ الشعر ، وأزَمَةٌ مستحكمةٌ لامفرَّ منها ، وعذابٌ لذيذٌ لابُدَّ مِنـه .. أو لَيْسَ هذا هو حُبُّ الوطن الذي لافَكَاكَ مِنْهُ ؟

لكنَّ بعضَ الناس أساءُوا فهْمَ هذه الحقيقةِ الناصعـةِ ، وطريقـةَ معالجتِها ، و أسلوبَ التعاملِ معَها .. بدأتْ بالوَأْدِ خَوْفاً منَ العارِ ، و لم تنتهِ بالرَّجْمِ وإقامة الحدِّ ، والنفي وراءَ حدُود المُحال.

الحبُّ ؛ أيها السادةُ : كانَ ومازالَ نجْماً متألقاً في سماء دُنْيانَا ،

وهمّاً من هموم الإنسان الأولى على هذا الكوكب الحزين .. يُمزّقُهُ، يُعذبهُ ، يُقصيهِ، يُدْنيهِ ، يرفَعُهُ ، يَحُطّهُ .. فلا انفِلاتَ لنا من سَلاسِلِهِ الذهبيَّةِ ، ولا انعتاق لنا من همومه العذْبَةِ الأبديَّة .. لابل هو ثورةٌ وعنادٌ وتصميم وتقدميَّة ورفضٌ وَصَلبٌ :

الحبُّ ... مواجهةٌ كبرى
إبحارٌ ضِدَّ التيَّارِ
صَلْبٌ وعذابٌ .. ودموعٌ
ورَحيلٌ بينَ الأقمارِ.

أجلْ ! إنَّ الحبَّ وجعٌ لذيذٌ يُعانيه الإنسانُ على هذا الكوكب، يكبته طويلاً ولايجدُ متنفساً له ، غيرَ قتلِ المرأة التي يحبُّها .. وهكذا تكوَن المرأةُ المعشوقةُ دوماً هي الضحية ، لقد حمَّلْناها تبعةً ثقيلةً ، وسفحنا دمَها قُرباناً على مذبح الحبِّ والشهوة ، وعلى امتدادِ حِقَبِ التاريخ .. على الرغم من أنَّ مسؤوليةَ الحبّ وَكُلَّ حبٍ تقعُ على عاتِقِ الرجُلِ ، المُتسَلّح بأنيابِ الذئاب وشريعة الغاب، المتعطِّر بدماء البريئاتِ ، على ساحات البطولةِ والعَنتريات المزعومةِ ، المتهاويةِ تحت أقدامِ الشهيداتِ غدراً وخيانة ، غرورا وأنانيةً وسوءَ فهم من إنساننا الشرقيٍّ ، من أيام بَثْنة حتى يوم سونيا ونوَّار : وكلُّ جريمتِها ؛ أنَّها استجابَتْ لِنداء الرَّجُل، وخُلِقَتْ لتكونَ الإناءَ الحضاريَّ الذي يعانقُ شَهْوَةَ الرَّجُلَ ، لحفظِ بقائه .

فهل قتَلَ شِعْرُ نزارٍ حبيباتِهِ ؟ وهل أفسْدَ سلسِلةَ تسَاوُقِ الحياةِ نحو الأكرَمِ والأفضل ؟

أبداً فحبيبةُ نزار متأبّيةٌ على القَتْـلِ ، وخـارجَ سُـلطةِ المـوتِ ، لأنّها الوَطَنُ ، باقٍ في ضميرِ الأجيالِ على مرِّ العصور .

لقد أحبَّ نزارٌ وطنَه كما لم يحبَّ شاعرٌ من قبل ، منْ خـلال حُبّه للمرأة الوَطَنِ، وأدْمَنَ هذا الحبَّ على طريقتِه الخاصة ، وكَتَـبَ عنْ حُبّه وحبيباته وصديقاته ، وحدَّثنا عن المرأةِ الّتي أحبّها ، كما لم يحدِّثْنا شَاعرٌ من قبل .. ولكنْ ماحيلةُ نـزارٍ بالألبّـاء الذيـن يفهمـونَ مِنَ الاشارةِ .. هؤلاء الألبّاء الذين يجْحَـدُونَ كـلَّ شَيء ، فيقـرأون بعـدَ بسـم الله : ولاتقربـوا الصـلاةَ ، ويتوقفـونَ . ويتقوّلـون : ولاتدخلوا المساجدَ .. وينكصون .. ويقرأون شعر نزار :

حبيبتي أنتِ فاستلقي كأغنية

على ذراعي ولاتستوضحي السَّببا

فمن هذه الحبيبةُ ؟ لو سألتهم لكندوا ، لكنه يجيب :

أنتِ النسـاءُ جميعـاً ، مـا مـن امـرأةٍ

أحببْـتُ بعـدَكِ إلا خلتُهـا كذبـا

فمن هـذه الحبيبـة لـتي تختصرُ نسـاءَ الدُّنيـا كلّهـا ؟... إنّهـا الوطنُ «عُدّ لأصل القصيدة» .

لا أستطيع أنْ أنكرَ على الشاعرِ حُبَّهُ .. ولكنْ لنكتشـفْ معـاً منْ هي حبيبة نزار حبيبته ؛ ليسَتْ من رِمَمِ التـاريخ ، وَلاَ كحبيبـةِ امرئ القيس ، أو عنترة ، أو النابغة أو ابن أبي ربيعـة ، أو جميـل أو قيس بن الملوح ... إنّها تختلف عن كلِّ ماوصفتُ .

نسيجٌ وحدَها كدِمَشْقَ ، متفردَةٌ في أوصافها كالغُوطَةِ . ومِنْ نَوْعٍ آخرَ من النّساء كالرَّبوة ، ومنْ صِنفٍ آخر من البشر كبلقيس:

بلقيسُ.... كانتْ أجملَ الملكاتِ في تاريخ بابلْ .

بلقيسُ.... كانتْ أطولَ النخلاتِ في أرض العراق .

كانتْ إذا تمشي ، ترافقُها طواويسٌ ، وتتبعُها أيائل ,

بلقيسُ.... ياوَجعي ... وياوَجع القصيدة حين تلمسُها الأنامل .

هل ياترى .. من بعدِ شَعرِكِ سوفِ ترتفعُ السنابل ؟

يـانينوى الخضـــراءَ .. يـاغجريتي الشقـــراءَ ، يـاأمواجَ دجلَـة .. تلبـس
في الربيع بساقِها .. أحلي الخَلاخِل ...

هذه حبيبته .. إنهـا مـن صِنـفٍ ماعرفنـاه ، يختلـفٍ عـن كـلِّ الحبيباتِ في تاريخ القصائد وَسِيرِ الحـب ... إنها إنسـانةٌ امـتزجتْ إنسـانيتها بتـاريخ بـابل .. وشـارَكت النخـلاتِ بطولِهـا في أرض العـراقِ .. وسـارت ترافقهـا الطواويـسُ والأيـائلُ .. ولـو لم تكـنٍ مزروعةً في ضمير الحقول لما أضربتِ السنابلُ عن الارتفـاع تضامنـا مع شِعرها الذي جَزَّتـهُ الفاجعـة .. إنهـا وجـعُ القصيـدة ، وأمـواجُ دجلةِ ... حتى حين تتزيَّنُ ، لاتتزينُ إلاّ حينما تزيِّن أرضُ الوطنِ في الربيـع ، عندهـا تلبَـسُ بسـاقِها أحْلـى الخلاخـل «عـد إلى قصيــدة بلقيس» .

ولوفتّشنَا عن الوطنِ الحُلْمِ كما نَشْتَهيه ، لوجدْنَـا لَـهَ صـورةً مطابقةً لصورةِ حبيبـةٍ أخـرى مـن عرائـس الشعـرِ في ديـوان نـزار ، فهاكها : إنسانةٌ مكونـةٌ مـن عواطـف وقلـبٍ ، تحبُّ وتشـارك في الحب .. حبيبةٌ متحضِّرةٌ ، مثقفةٌ ، ناضجـةٌ ، ثـائرةٌ . تفهـمُ الحـبَّ علي أنّه مشاركةٌ ، والعواطفَ متبادلةٌ ، كمـا لم تفهمْهـا ؛ فـاطمُ ، وميَّةُ ، وعبلُ ، وَبَثْنةُ ، وريّا:

فلنستمعْ إلى نجواها في شؤونها الصغيرة «انظر ديـوان حبيبـتي صفحة ٢٤».

هذه عروس الحبّ في شعر نزار ، ليست محظية ، ولاقينة في دهاليز الحريم ، ولا خادمة تنفذ مايُلقى عليها من الأوامر ، ولاسِلْعَة في سوق النخاسة لهذا الحبّ ، وتعتبرُهُ مشروعاً ... ولذلك فتحَتْ لنا قلبَهَا، وأطلعتنا على أوجَاعِها .. ولم تختبئ ، ولم تتوار وراءَ خبائها حَيِّة غامضة مُبتهجة .. إنها تَحبُّ في وضح النهار ، لامِنْ وراءِ الكواليس تهريباً وتزويراً .. إنها واحدةٌ لوحدها لذاتها ، لامزدوجة، ولا مزوَّرة، ولاهي ذات وجهين ، أو لسانين ، ولا تخاف العسس وصيادي الكلام .

أوَلى نَرْغبُ أنْ نُحبَّ الوَطنَ بهذه الصورة ؟

صورةٌ أخرى من صور الحبِّ تُبهجُنا حين يحدِّثنا نزار عن حبيبته ، متجاوزاً كلَّ ماقيل قبْلهُ من أوصافٍ وأحاديث ؛ فصُورَةُ الوطن تتلامح بين عيْنيه بأرضِهِ وسمائه ، ويُبْسِهِ ومائه ، بوَحْشِهِ وإنسانِهِ .. فهو لايصف لَنا الأرداف الثقيلة . ولا لِكشحَ الثقيلَ ، ولالخدَ الرداح ، ولاَ اللّمى ، ولايصفُ لَنا النؤي والأواريّ، ولاماذَعْذَعَتهُ الرِّيحُ من جَمْع الولائد .. إنَّهُ متحضِّرٌ في وطن حضاري كما يَحْلم أنْ يكونَ عليه الوطن .. يحدِّثنا عن ريادتها للمقهى ، لا للقصْف ولااللعبثِ ، بل عنَ كتابها الذي بيدها وقُبَعَتها التي يلهث الصيّفُ على خيطانها «انظر ديوان قالت لي السمراء صفحة ٦٥» .

وكما يهتمّ شعرُ نزار بأدَقِّ التفاصيل في موطنه ، كالحِبر ، والطبشور ، والكتب ، وقِطَط ، واللعب والمزاريب والأسواق المعتمة ومسامير الأبواب ، والأحجار والشبابيك ، وكذلك يفعل بحبيبته وطنه ، يذكر أشياءها الخصوصية الصغيرة ، وأدق تفاصيلها الحميمة الداخلية والخارجية منها ، يحدثنا عن همومها ، واحساساتها العميقة المتنامية ، يغوص في أعماقها القصية ، ليحدثنا

عن قصيد الظلّم المتراكم في أغوارها عمّ تاريخها الملطخ بالدم ...
يُفجّر لنا أعماقها ليصف فورة الحياة واندلاع الربيع في جسدها ...
يحدثنا لأول مرة في تاريخ العشق عن حقيقة الأنثى الداخلية ، ويلقي عليها الأضواء الكشافة ليلفت أنظارنا التي غابت أو عميت عنها «أنظر ديوان حبيبتي لوليتا ص ٥٦» . يقول نزار أيضاً : «ان مصرع أختي العاشقة . كسر شيئاً في داخلي وترك على سطح بحيرةِ طفولتي أكثر من دائرةٍ ، أكثرَ من دائرةٍ ، أكثرَ من إشارةِ استفهام».

أنبقى إذاً منتظر ينَ حتى ينكسرَ شيء في داخلِ الناس ؟ كي يحسّوا بواقعهم الآسن المظلم ؟ أجلْ لقد انكسرَ كُلُّ شيء !!

فمتى يُدْرِكُ هؤلاء مع نزار أنَّ المرأةَ هي الوطنُ ، كلاهما كائنٌ حيٌ يكبرُ ويمرضُ . ويموت ، كلاهما حيٌّ له روحٌ وعواطفُ ومشاعرُ ، لهما حقهما من الحبِّ والعشق والحريّةِ والحياة ؟

متى يُدركُ الذين فسدَ الحبُّ في قلوبهم ، ففسدتْ حياتهم ، وأفسدَتْ حيواتِ مَنْ حولَهم ، وعاشوا مجتمعاً ترابياً ، إنْ لم يكنْ حَجَراً ، لاتَخفقُ في سمائه أعلامُ الحبِّ ؟

صباح الخير ياحلوه .

صباح الخير ياقديستي الحلوة .

الخ ... «انظر ديوان أحلى قصائدي «خمس رسائل إلى أمي» «صفحة ١٢٦» أو ليسَتْ هذه المحبوبة أمّة؟

وقدْ لانَعْدو الحقيقة إذا قُلنا : إنَّ نزاراً أحبَّ الوطنَ في المرأة ، أو أحبَّ المرأةَ الوطن ، وقَدْ دَلّل على ذلك بقوله :

أتيتُ من رَحم الأحزان ياوَطني	أقبّل الأرضَ والأبوابَ والشُهُبا
حُبي هنا ، وحبيباتي ولدْنَ هنا	فَمَنْ يُعيدُ لي العمرَ الّذي ذَهَبا ؟

أنـــا قبيلـــةُ عُشّـــاقٍ بكاملهـــا وبنْ دُموعـي سـقيتُ البَحرَ السُّحُبا
فَكـلُّ مفضالَـةٍ حوْلتهـا إمـرأةً وكـلُّ مئذنَةٍ رَصعتهُـاذهبــا!!

فـالحبُّ إذاً هـو الحيـاة ، والحيـاةُ بـدون حـبٍّ صحـراءُ يبـاب خاويةٌ على عروشها . والمجتمعُ بدون حُبٍ أحطُّ من الغابةِ الّتي تسودُها شريعةُ البطشِ ، والوطنُ بلاحبٍ يستحيلُ إلى بَحْرٍ مظلمٍ يأكلُ فيه الكبيرُ الصغيرَ ويسحقُ فيه القويُّ الضعيفَ .

وهذا سببٌ تاريخي هام ، إنّه القحْطُ الذي سـكنَ اثـني عَشَـرَ قرناً في حياتنا المتهالكة على فضلات حضاراتِ الآخرين .. حبُّ الوطن بدانيهِ وقاصية مصدرٍ لكلِّ إبداعٍ وكـلِّ فـنٍ ، مصـدرٌ للخيْرِ كُل الخير .. وبدون الحب لاخيرَيُرتجى .. إنَّ المدينَـةَ الّتي لايُعمرهـا الحبُّ ، مدينةٌ ملعونةٌ موبوءةٌ ، لايدخلها الخيرُ ولا النورُ ، ولاتـورق فيها الحياةُ ولا تثمر ، مدينةٌ لا يدخلها الله لأن الله محبـة ، لأن الله خير وسلام وطمأنينة فهـو الـذي أطعمهـم مـن جـوع وآمنهـم مـن خوفٍ ، صدق الله العظيم .

آيها السادة : متى تعلمنا الحبَّ نُصبحْ قريبين مِنَ الله والحياةِ، مِنَ الحضارة. مـن الوضـوح والثقافةِ والصراحـة . فتسـهلُ الحياةُ وتورقُ وتثمـر أينَعَ الثمـار ، ثـم تستحقُّ أنْ تعـاشَ ، فيعمـرُ الوطنُ بالحبِّ والألفةِ والوداد ، ونبحرُ بعيداً عن العالمِ الشائه ، عالمِ الحِقـدِ والضَّغينـة ، والباطنيـةِ . والكـذبِ ، والغمـوضِ ، والخابعـة والمِراء ، إلى سواحلِ الصراحَةِ والبساطةِ والوضوح ، والمحبَّة [illegible] لا حَسَـدَ ولاغـرورَ ، فبـالحبِّ وحـدَهُ ينتصـرُ الإنسـانُ علـى كـلِّ الشرور، فَلِمَ لانحمِلُ قلوبنا على راحاتِنا ، وندخلُ جنةَ اللّـه بالحب والصَّفاءِ والنقاءِ ؟ فيحبُّ الإنسانُ أخاهُ الإنسـانَ ، فيعمـرُ الكـونُ ويحلُّ السَلامُ .

بهذا الأسلوب أحَبَّ شاعرنا وَطنهُ في امْرأةٍ ، وأحبَّ في امرأةٍ العالَم كلّهُ .. أحبَّها وطناً يضيىء إليه ، وأمّاً تحدِبُ عليهِ ، وأختاً تخافُ عليهْ ، وزَوْجَةً يذْبَحُها الشّوقُ إليه ، وابنةً يزْرَعُ الابتسامَةَ على شفَتيها ، والسعادةَ في قلبها .

أمَّا المرأةُ الجسدُ فظلّتْ بعيداً عن مُتناوَل يدهِ ، أحبَّها بعَيْنِ الفنّان ، لابعينِ الجزّارِ .. والمَسافةُ شاسعةٌ بينَ الحُبَّيْنِ وبينَ العينَيْنِ . ونزارٌ على الرَغمِ مَن حُبِّهِ للمرأةِ ، اصْراره على هذا الحبِّ ، وسعادته بهذه التهْمةِ ؛ إلاّ أنَّهُ يرفضُ أنْ يدْفِنَ شعْرهُ وفنّه في جَسَدِها ، فيقولُ : «الحبُّ الّذي ربطوني به ، ليسَ الحبَّ الذي تُحدّدُهُ جغْرافيَّةُ الجَسَدِ ، جَسَد المرأةِ .. إنني أرْفضُ مُواراتي في مِثلِ هَذا القَبرِ الرُخاميِّ الضيِّق .. فالمرأةُ قارةٌ مِنْ القارّات الّتي سافرْتُ إلَيْها ، ولَكنَّها بالتأكيد لَيستْ العالَمَ كلّه ... المرأةُ هيَ الآن عِندي، أرضٌ ثَوريَّةٌ ، ووسيلةٌ من وسائل التّحرير .. إنّي أربُط قضيَّتها بحربِ التحريرِ الإجتماعية التي يخوضُها العالَمُ العربيُّ اليوم» لَلتخلّصِ من جَلاّديهِ .

هذا هوَ الدليلُ الشافي الكافي على امْتزاجِ حُبِّ الشاعِرِ لوطنه بحبّه للمرأةِ ، كرمزٍ للأرضِ ، أرضِ الوطنِ ، أوَلَيْستِ الأرْضُ أنثى؟... لمْ يكتفِ بأنّها وطنهُ ، بل رَبَطَها بمصيرِ الوطنِ ، و تحريره، فلْنستمعْ إليه يُخاطِبها :

ثوري .. إني أحبُّكِ أنْ تثوري

ثوري... على شرق السبايا ، والتكايا، والبخور .

ثوري ... على التاريخ ، وانتصري على الوهم الكبير .

لاترهبي أحداً ...

فإنَّ الشمسَ مقبرةُ النسورِ.

ثوري ... على شرقٍ ، يراكِ وليمةً فوقَ السريرِ

«انظر يوميات امرأة لامبالية»

أحبَّها، لأنّه وجدَ فيها وطَنـهُ ، لأنـه يقـرأ في كـل قسـمةٍ مـن قسماتها وَطَنَهُ ، في عينيها يقرأ مَجد دمشقَ ، وأمجادَ بـني أميَّـة، وفي ثغرِها شموسَ بلاده ، وفي وجهها نقاءَ العروبة ومحتدها الأصيـل ، في شعرِها حقولَ السنابل التي تأبّت على الحصاد . في أعطافهـا ، الفـلَّ والريحانِ والكبادَ «في مدخلِ الحمـراءِ» ملحمـةُ الوطـن في المرأة ، وملحمةُ المرأةِ المعجونة بالوطن .

إقرأوا هذه القصيـدة ، وقولـوا إلي أيـنَ تبتـدئ المـرأة ؟ وأيْـنَ تنتهي حدود الوطن؟ اقرأوها وحاولوا فلنْ تستطيعوا أنْ تفصلوا بَينَ ترابِ الوطن ومائه وأورادِه ونباتاته وتاريخـه ، وبـينَ جَسَـدِ المـرأةِ ، وَجْهها ، جدائلها ، شفاهها ، وبينَ حُبِّها وأقراطها .

أرأيْتُمْ كيْفَ يمتزجِ الوطن بالأُنثى ؟! وكيفَ تذُوبُ الأُنثى في ترابِ الوَطنِ ومجدِهِ وعِزِّه وتاريخِهِ ؟!....

وعلى الرغْمِ أنَّ العشـقَ كثـيراً مـا يُطَوِّحُ بالشـاعرِ في الفيـافي والقفـارِ ، ويصهـرُهُ ويكويـهِ كمـا التوتيـاء تصهـرُ فتـذوبُ ؛ لكنّـه يستعصي على الاكتواء والذوبان ، ولايجدُ غير الشـعر يُنشـدُه تحـت شُرفات حبِّها ، فإذا الشـعرُ يَهيـجُ جـوارحَ الشـوقِ والصَّبَابَـةِ فيـهِ ، لكنّه رُغم ذلكَ يحبُّها والوطنُ نَصـبَ عينيْـهِ لايفارقـه ، فَلِنرَ كيف يختلطُ حبُّهـا بمـاءِ البحـرِ وبحيراتِ الجنـوبِ وحمـرةِ الخـوخ ، وعبق التاريخ الذي يبعثُ فيه الحياةَ مِنْ جَديد فينهضُ الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ

في دوّامةٍ من المباخرِ والطيوبِ ، ليقودَ الثُوارَ ، وتمشي في موكبهِ المآذنُ ، والرُبى ، وذكرياتُ التاريخ الأثيل :

العشقُ يكويني .. كلوحِ التوتياءِ
ولا أذوبْ ..
والشعرُ يطعنني .. بخنجرِهِ
وأرفضُ أنْ أتوبْ ..
إني أحبُكِ ..
إني أحبُكِ يا التي اختزَنَتْ بعينيها
بُحيراتِ الجنوبْ ..
ظلّي معي :
حتى يظلَّ الشعرُ محتفظاً بنكهتِهِ
ويبقى البحرُ مغموراً بزُرْقتهِ
ويبقى الخوخُ محتفظاً بحُمْرتِهِ
ويبقى وجهُ ميسونْ
يُحلّقُ كالحمامةِ
تحتَ أضواءِ الغروبْ ..
ظلّي معي :
فلربُما يأتي الوليدُ ،
وفي عباءتِهِ الحمائمُ ، والمباخرُ ، والطيوبْ .
ووراءَهُ .. تمشي المآذنُ ، والرُبى ،
وجميعُ ثوّارِ الجنوبْ ..

*

وهكذا نجدُ الوطنَ مزروعاً في عيـونِ النسـاءِ اللواتـي أحبَّهُـنَّ نـزارُ ، متسـلقاً خيـوط الحريـر في ضفـائرِ الجميـلاتَ اللائـي يمـلأنَ سهولَ وطِنِهِ ودساكرهُ وقراهُ ، ومهما حاولنـا أنْ نفصـلَ المـرأةَ عـن الوطنِ في شعرِ نـزارٍ ، فليـس ذلـكَ في مقدورنـا ، فـالحبُّ والوطـن معجونانِ في دمِهِ ، وفي كلِّ حرفٍ من حروفِ قصائده.

---

٢ - لماذا تبنّى شعرُ نزارِ الدّفاعَ عن قضيةِ المرأةِ؟

أحسَّ الشاعرُ في سنٍ مبكرةٍ أنَّ تخلُّفَ المرأةِ مقرونٌ بتخلُّفِ الوطنِ ، لابلْ سببُ منْ أسبابِ تخلُّفِهِ ، وأحسَّ بأثقالِ الظلمِ والعذابِ الباهظينِ اللذين تلقاهما من الرجُلِ .. على الرغم ممّا يبدوا ظاهرياً عكس ذلكَ ..

وكبُرَ هذا الإحساسُ مع الشّاعرِ ، حتى تفجَّرَ من شَقِّ ريشتهِ منهجاً شِعرياً ، ومذهباً فنيّاً ، لازَمَهُ طِوالَ حياتهِ ، وشغَلَهُ بصورةٍ جديَّةٍ طوال خمسةِ عقودٍ من الزمنِ ، وارتبطَ همُّه بها بهمومِ وطنهِ.

فاستبطنَ المرأةَ ، وتغلغلَ إلى أعماقِ أعماقها ، ليُطلعَنا على أدَقِّ مشاعِرِها الأنثويُّة وأخطرِها ، مشاعِرِ الأنثى الحقيقيةِ التي أنكرها عليها الرجلُ على مرِّ العَصورِ ، أبٌ ، وأخٌ ، وعمٌّ ، وخالٌ، وابنٌ ، وصديقٌ ، وزوجٌ .. فحرموها من أعزِّ عواطفها ، وأغلى إحساساتها ، ورفضوا الاعترافَ بها ، على الرغم من حقيقةِ وجودها ، بل ويُمارسونَها همْ أنفسُهم مع أنثى الغيرِ .. التاريخيُّون، والدراويشُ ، والمشعوذون ، والمتحجرُون ، والمزدوجون ، والخلفاءُ،

والسلاطينُ ، وكلُّ الذين طيَّنوا نوافذَ الضوء عن عُقولهم ، الذين يدفنونَ رؤوسهم بالرمالِ كالنعامةِ حين يُداهمُها الخطرُ .. أنكروا عليها حقها كبشر.

ومنَ النِّعمِ التي أُغدقتْ على المرأةِ ، شعرُ نزار ، الذي كرَّسَ للدِّفاع عنها ، والناطقُ الرسميُّ باسمها ، ليعرضَ قضاياها وأشياءَها التي لا تجرؤُ على الخوضِ فيها ، كما لم يتحدث شاعرٌ منْ قبلُ إنْ في الشرقِ ، أو الغربِ ، في القديمِ أو الحديثِ .

فنزار منْ هذا المنطلق ظاهرةٌ مُلفتةٌ للنظرِ ، ونعمةٌ حلّت على النِّساء في هذا العصر. فهلْ سمعتم فيما سمعتم ؟ أو قرأتم فيما قرأتم من حَدثكم أو كتبَ لكم عن تلكَ اللّحظاتِ الخطرةِ في حياةِ المرأةِ حين يجري نسغ الحياةِ في جسدها ؟ من حدَّثكم عن أعمق أعماق الأنثى وأقدسِ أقداسها التي لا تأتي في العمرِ إلاّ مرّةً واحدةً لا تتكرَّرُ؟ عن أدقِّ إحساساتِها البشريةِ ، واختلاجاتِها الإنسانية لحظة تدفق الحياةِ والصِّبا والفتوَّة في عروقِها ، لنسمعهُ بلسانِ حالِها يقول :

لِمَنْ صدري أنا يكبر؟

لِمَنْ .. كرزاتُه دارت؟

لِمَنْ .. تُفاحُه أزهر ؟

لِمَن صحنان صينيان ؟؟ .. منْ صدفٍ ومِنْ جوهرْ .

لِمَنْ قدَحانِ من ذَهبٍ ؟ وليسَ هناكَ مَنْ يسكرْ .

لمن شفةٌ مناديةٌ ؟ تجمَّدَ فوقها السكّرْ .

أللشيطانِ .. للديدانِ .. للجُدرانِ لا تُقْهرْ ؟

أرُبّيها ، وضوْءَ الشمسِ أسقيها .. سنابلَ شعريَ الأشقرْ ؟

ومرةً أخرى يكشــفُ لنـا عـنْ المأسـاةِ الإنسـانيةِ الـتي تُعانيهـا المرأة، في زمنٍ محدَّدٍ لايمكنُ أن يعودَ مرَّةً أخرى، يقولُ بلسان حالها:

خلوْتُ اليومَ ساعاتٍ

إلى جَسدي

أفكِّرُ في قَضاياه ..

أليسَ لَهُ ، هوَ الثاني قَضاياهُ ؟

وجنَّتُهُ وَجُمَاهُ ؟

لقدْ أهملْتُه زمناً

ولمْ أعبأ بشكواهُ...

نظرْتُ إليه في شَغفٍ

غابَتُهُ ، ومرْعَاهُ ...

أنالَوني حليبيَّ .. كأنَّ الفجرَ قطْرَةُ وصَفَاهُ ..

أسِفْتُ لأنَّهُ جَسدي

أسِفْتُ على ملاستِهِ

وثُرتُ على مُصَمِّمِهِ ، وعاجِنِهِ ، وناحِتِهِ ،

رثَيْتُ له .

لهذا الوحشي يأكُلُ مِنْ وِسادَتِهِ ،

لهذا الطفْلِ ليسَ تنامُ عيناهُ ..

نزعْتُ غِلالَتي عنّي ،

رأيتُ الظلَّ يخرجُ مِنْ مراياهُ ،

رأيتُ النهدَ كالعُصفورِ .. لم يتعبْ جناحاهُ ...
تحرَّرَ من قَطيفته .. ومزَّقَ عنهُ تفتاهُ ..
حزِنْتُ أنا لمرآه ..
لماذا اللهُ كوَّرَهُ .. ودوَّرَهُ .. وسوَّاهُ ..
لماذا الله أشقاني ،
بفتنته .. وأشقاهُ ؟...
وعلَّقَهُ بأعلى الصدرِ .. جُرْحاً .. لستُ أنساهُ .. «انظر يوميات امرأة لامبالية صفحة ٤٤»

أجل .. لقد حدَّثنا نزارٌ ، على لسان المرأةِ ، وبالرَوعَة ماحدَّثَ ! حدَّثنا عمَّا لايُدركه الرجلُ بذكورتهِ ، وعمَّا تحسّهُ المرأةُ الأُنثى حينَ تَتَفتَّح ثعابينُ الجنسِ تنهشُ جسدَها ، حينَ يجري نُسْغ الحياةِ مُتدفِّقاً في عُروقها ، فهلْ للقبيلَةِ أنْ تُدْرك ذلك ؟

بعين الفنّان الأصيل المُدرِكِ لِفنّه ، يُفتِّق القوْل حولَ مشاعرِ الأُنثى الداخليةِ وَينشرها أمامَنا وردْاً وجمراً - نحبُّه ونحترق فيه - على أجْفان غيومٍ تتهادى في حقولِ لُغتهِ الخصْبة ، وفيافي موسيقاهُ الصادحَة ..

وبأسلوبٍ درامي حزينٍ ، وشكوى مريرةٍ ، يوصلُنا إلى بداياتِ المُشكلةِ المأساةِ ، مأساة الحقيقة الحيَّةِ المُرعبةِ، الّتي تكتوي بنارها المرأة الشرقيةُ وتتمزَّقُ في غابةِ الرجلِ المفترسِ ، الّذي لايعرفُ ، أو يتجاهلُ أنّهُ يعرفُ ، أو لايُريْد أنْ يعرفَ ماتعانيه مِنْ شقاء .

وهكذا يُهوِّمُ بنا على سطوح من المرايا المُتقابلةِ في مقاصيرِ

شعرهِ السحري ، لِيرينـا أفكارنـا ، وقلوبنـا ، ووجوهَنـا .. وأفكـارَ غيرنا ، وقلوبَهم ، ووجوهَهم ، كما لَمْ نرَهـا مـنْ قبـلُ .. فتصْعقُنـا المفاجأةُ ، ويأسرُنا الذهولِ ، فنضلُّ رُبما أو نضيعُ ، ونحـارُ ونحتـارُ ! أنُصَدِّقَ قولَ : المرأةُ عورةٌ ؟ أو المرأةُ عارٌ ؟ أمْ نصدِّقُ هذه المشـاعرَ الأُنثويَّةَ الإنسانيةَ النابضةَ بالحياةِ والتوْق كصورةٍ مِـنْ صـورِ الحقيقـة الساطعةِ عمَّا يجري بداخلها مِنْ جداولَ وينابيع ؟

ثم تنفلِتُ نفوسنا وعقولنا منْ قيود الزمَنِ ، لِتَّطفوَ فوقَ سديم الحدثِ والمشاعرِ المتأجِّجةِ تحتَ سَمعِنا وبصرنـا في جحيـمِ شَـكْواها الآدميَّةِ .. لِنضيعَ مـرَّةً أُخـرى مـعَ الأنغـامِ الشـعريَّةِ النزاريَّـة ، الـتي أضرمتها لغةَ نزارٍ وموسيقي نزار ، على سحباتٍ مِنْ تَوَجُّعِ الرَّصْدِ ، واندلاع جداول الضَّوْء والعبير مِّنْ صَراحَتها الموجعة ، ونحارُ : بماذا نعجبُ ؟ أبالموضَوع ، أم بالشعرِ ؟..

ومن ثَـمَّ ؛ وبخبرةِ الطبيـبِ المـاهرِ ، وحِـذْق الخبـيرِ المجـرِّبِ ؛ يُشخِّصُ لنا نزار الدّاءَ المستعصي القديمَ ، ويضعُ إصْبَعنا علـى الألَـمِ التاريخيِّ الذي عاشـتْه المـرأةُ عَـبْرَ القُـرونِ ، ويُسلِّطُ عليـه الأضْـواءَ الثاقبةَ .. فتبهرُكَ ضَراوَةُ الدّاءِ ، وخطورةَ الألمِ ، واستعصاءُ الدَّواء . يقول على لِسانِها :

أنا أنثى ..... أنا أنثى !!

نهارَ أتيتُ للدنيا ،

وجدْتُ قرارَ إعدامي ..

ولَمْ أرَ بابَ محكمتي ،

ولَمْ أرَ بابَ حُكّامي ...

«انظر يوميات امرأة لامبالية».

نحكمُها أوَّلاً ، ثم نَبحَثُ لها عنْ تُهمَـةٍ ! لأنَّها دائماً موضعُ اتّهام ! لِماذا ؟ وكيفَ ؟ تكوَّنتْ لدْينا هذه القناعـةُ !؟ إنّها تـاريخ طويلٌ ، ومأساةٌ مريرةٌ .. لكنَّ نـزاراً اسـتطاع بلُغَتِـهِ المعبرةِ وعمـق احساسهِ بواقِع المـرأةِ الـذي لايُرضـي صديقـاً ولاعَـدُواً ، يسبُرُ لَنـاَ أغوارَ مُشكلةٍ من أعْوصِ المشاكلِ وأمرِّها في هذا الشرق الحزيـن ، والّتي مازالَ يُعانيها منـذُ عشَـراتِ القـرون ، دونَ أنْ يصـلَ بهـا إلى حلٍ، أوْ بَسْطٍ للدواء .

لقد تجمَّعتْ أسس النَّجاح كلُّها للشاعرِ لإدْراكِ أبعـادِ الحَيْـفِ الَّذي لَحِقَ بكرامةِ المرأةِ وحقِّها في الحياةِ .. ولَعلَّنا نضعُ إصْبَعَنا على جُزْءٍ منَ الحقيقةِ ، لو أنَعَمْنا النَظرَ في الشاهدِ التالي ، يُسجِّله الشاعرُ في كتابه «قصَّتي مـعَ الشـعرِ» فيقـولُ : كـلُّ أفـرادِ الأُسـرةِ – يعـني أسرته – يُحبّون حتى الذَّبح.. وفي تـاريخ الأسـرةِ حادثَـةُ استشـهادٍ مُثيرةٍ سببُها العِشقُ .. الشهيدةُ هـي أُختي الكُـبرى (وصـال) قتَلـت نفسها بكلِّ بساطةٍ ، وشاعريةٍ منقطعةِ النظيرِ .. لأنّها لَم تَستَطعْ أنْ تتزَوجَ حبيبها » .

لعلَّ هَذا السرَّ الأليمَ ، وهـذه الفجيعـةَ الداميـةَ ، هُمـا اللـذان جَعَلا الشاعرُ يُنصِّبُ نفسَهُ طِوالَ عُمْرهِ مُدافِعاً عـن المرأةِ ، وَحقِّهـاَ في الاختيارِ ، والحبِّ ، والحياةِ الكريمـةِ . إنهـا نقطَـة تحـوُّل عـاطفي مصيري في حياةِ الشاعرِ .. أثَّرتْ فيهِ وهزَّتْهُ من الأعمـاقِ، واقتَلعَتْـهُ منْ جذُورِ العشيرةِ ، ومَنطقِ البلطةِ والساطورِ ، الّتي تتعاملُ بهما معَ المرأةِ ... وأثَّرتْ بالتالي علَى أُسْلوبهِ وأفكارهِ في كتابة الشِّعرِ علـى مساحَةِ دواوينـه الّـتي تزَيـنُ دُنيانـا عَلـى مـدارِ الفُصـول.. وَلَا أظـنُّ واحداً مِنْ شُعراء هذا الوطـنِ وقـفَ المَوْقـفَ المشـرِّفَ ضِـدَّ تجـارَةِ الرقيـقِ الّـتي يُديرهـا المتورِّمـونَ جنسياً مِن أمـراء النفـطِ ، فكـانَ لقصيدَتِهَ «الحـبُّ والبـترولّ» وقْـعُ الصاعقـةِ عَلـى رؤوسـهم ،

وفضَحَتْ شَهواتِهم ، ونبّهت الناسَ إلى هذا الوبَـاءِ المُميـتْ ، يقـولُ على لسان المرأةِ السبيِّة:

مَتى تفهَمْ ؟

متى ياسيِّدي تَفْهَمْ ؟

بأني لَستُ واحدةً ... كغيْري منْ صديقاتِكْ

ولافتحاً نسائياً ... يُضافُ إلى فتوحاتِكْ

ولارَقَماً .. مِنَ الأرقامِ .. يعبُرُ في سجلاتِكْ

مَتى تَفْهَمْ ؟...

«انظر ديوان حبيبتي صفحة ١٦٤ »

لقد حفرتْ هذهِ الحادثة – حادثة وِصال – وحادِثَةُ السبيَّة – وِجْدانِ الشاعرِ وتركَتا فيه أخاديدَ مِنَ الوجَعِ الأزْرَق ، وظلّتْ جِراحا تُهما حيَّةً في ضميرِ الشاعرِ وقلبهِ وفكرهِ تـنِزُّ القَلَقَ والوجَعَ والقيْحَ والصديدَ ... مِنَ أجلِهِما ثارَ على القيم الرَّديئةِ مِن مَوْروثاتِنا، والتركِةِ الثقيلةِ مِنَ الظُلْم والجوْرِ ، والأصْفادِ والقيودِ ، والقهرِ والوأدِ التي رَسَفتْ بأثقالِها المرأةُ على امتِداد صَحارينا وبَوادينا ، وتعدُّد مُدننا وقُرانا .. ثارَ على الذّينَ ألقوا تَبعَةَ ذَلكَ كلّه على كاهِلِ المرأةِ ، وهُمْ شُركاؤُها ، فحَرمُوها منْ أغلى عواطِفِها ، وأعزِّ أمانيِها ، حَرموها منْ حقّها الطبيعي في الحياةِ ..

وحللوا لأنفسهمْ ماحرّموه عليْها ، فيقولُ على لسانِ مقهورةٍ مِنهنَّ :

يَعودُ أخي مِنَ الماخورِ .. عِنْدَ الفجرِ سَكْرانا

يَعودُ .. كأنّهُ السُلْطانُ .. مَنْ سمّاهُ سُلطانا ؟

ويبقى في عيونِ الأهلِ .... أجلنا وأغلانا

ويبقى ... في ثيابِ العُهْرِ ... أطهرَنا .. وأنقانا

يعودُ أخي من الماخورِ .. مِثلَ الديْكِ .. نَشوانا

فسُبحانَ الذي سواهُ منْ ضوءٍ .. ومِنْ فحمٍ رخيصٍ نحن سوَّانا

وسبحانَ الذي يَمْحُو خطاياهُ ... ولايمحو خطايانا .

الغريبُ في الأمرِ ، أنَّ دعوةَ نزار هذهِ ، وجهادَهُ البُطوليّ الذي كلَّفه نزْفَ دَمِهِ، ووَهْجَ فكرهِ ، ووجَعَ قلبهِ ... لم تَلْقَ استحساناً وتقديراً يليقُ بها ، حتى منْ أولئكَ الذينِ يدَّعونَ التقدُّمية زُوراً وبُهتاناً .. ونصرةَ المرأةِ وتحريرها باطلاً وتعهّراً !!

ليسَ ذلك فحسبُ ، بلْ يُجرِّحونَ نزاراً ، ويتّهمونهُ أنَّهُ أضاعَ عمرَهُ في دُنيا المرأة .. وَمِمَّنْ؟! .. مَنْ أولئكَ الذين يُريقون ماءَ وجُوهِهم على أعْتابِ الغواني ، ويشترون لَهُنَّ القصورَ الشامَخة ، والعرباتِ الفارهَة...

وَمِمَّنْ؟ .. مِنْ أُولئكَ الذين يَنْتقونَ السُكْرتيرات المُرَبْرَاتِ ، ويُفْنونَ أيّامَهم ، ويبعثرونَ لياليهُم في أحضانِهنَّ ، ويُعطِّلونَ أعمالَهم وأعمالَ غيرهم بِمُغازَلتِهنَّ ، وَلَغْوِ الحديثِ في المِهْتافِ إليْهنَّ..

وَمِمَّنِ ؟.. مِنْ قبلِ أُولئكَ الَّذينَ يعتبرونَ الحديثَ المجرَّدَ عنِ المرأةِ عَوْرَةَ ، فإذا ماجَنَّ الليلُ وأسدَلَ أستارَهُ ، تسلَّلوا إليهنَّ كالثعابين ، يسْفحونَ الويسكيَّ والشمبانيا على أقدامِ المُرَبْرَباتِ الحِسانِ ..

عن هؤلاء جميعاً يقولُ نزارٌ على لسان إحداهُنَّ مُتَسائلةً :

لِماذا في مدينتنا ؟... نعيشُ الحبَّ تهريباً .. وتَزْويرا ؟

ونَسرِقُ مِنْ شقوقِ البابِ موعِدنا .. ونستعطي الرَّسائلَ .. والمشاويرا ؟

لِماذا في مَدينتنا ؟.. يَصيدونَ العواطفَ والعصافيرا ؟

لِماذا نحنُ قَصديرٌ ؟.. وما يبقى مِنَ الإنسانِ .. حينَ يَصيرُ قَصديرا؟

لِماذا نحنُ مُزدَوَجُونَ .. إحساساً .. وتفكيرا ؟

لِماذا نحنُ أرْضيُّونَ .. تَحْتِيّونَ .. نَخشى الشمسَ والنُّورا ؟

لِماذا أهلُ بلْدتِنا ؟ .. يُمزِّقُهمْ تناقُضُهم

ففي ساعاتِ يقْظتِهمْ

يَسُبُّونَ الضَّفائرَ والتَّنانيرا

وحينَ الليلُ يَطْويهم .. يضمُّون التَّصاويرا .

«انظر يوميات امرأة لامبالية »

ويُعزِّزُ نزارٌ موقفَهُ الشعريَّ من قضيَّةِ المرأةِ وتحريرها والدِّفاع عنْ حقِّها في الحياةِ الحرَّةِ الكريمةِ فيقولُ : «إنِّني أكتبُ اليومَ لأنقِذها منْ أضراسِ الخَليفةِ ، وأظافرِ رجالِ القبيلة ، إنِّني أُريد أنْ أُنهيَ حالةَ المرأةِ الوَليمةِ ، أو المرأةِ (المُنْسَفِ) وَأحررَها من سيْفِ عنترةَ ،وأبي زَيْدٍ الهُلالي – لأنه – ما لَمْ نكُفَّ عن اعتبار جَسَدِ المرأةِ مَنْسَفاً تغوصُ فيهِ أصابعُنا وشهوتُنا، مالَمْ نَكُفَّ عنِ اعْتبارِ جَسدها جداراً

نُجرِّبُ عليه شهامتَنا ورَصاصَ مسدَّساتِنا .. فلا تحريرَ إطلاقاً ».

أجلْ .. إنَّ قضايا الحريَّةِ واحدةٌ في العالمِ ، لاتتجزَّأ ، وقَضَايا التحرير واحدةٌ في كل بُقعةٍ من بقاعِ الدُّنيا ، تشتبكُ ببعضِها لا انفِصامَ لِعُراها .. وشِعرُ نزارٍ يربُطُ عمليَّةَ التحريرِ في الوطنِ العربيِّ والعالمِ الثالثِ بقضيَّةِ تحريرِ المرأةِ ، لأنها كلّها قضيةٌ واحدةٌ لاتتجزَّأ. والمرأةُ هيَ في كلِّ الأحوالِ نصفُ المجتمع ، فهيَ أمٌّ ، وأختٌ ، وابنة وزوجة ، وصديقةٌ ، ورفيقةُ عملٍ ونضالٍ .. هكذا نرى المرأةَ في شعرِ نزارٍ ، كما يجبُ أنْ تكونَ ، لتؤدِّيَ دورَها المُبدعَ الخلاق .

وحينَ يتحدثُ شعرُ نزار عن المرأةِ ، ويخبرُنا عن الحبِّ ، فإنّه لايقصدُ الإثارَةَ كما يظُنُّ البعْضُ من السُّذَّجِ والمتورِّمينَ جنسياً . إنّما يريدُ أنْ يُعرِّيَهُمْ مِنَ الداخلِ، ويُسقطَ كلَّ الأقنعةِ الحَضاريَّةِ المزعومةِ الّتي ارْتَدَوْها كيفما اتفقَ ، ليستُروا جَهْلَهُمْ ونِفاقهمْ السيَاسيَّ والاجتماعيَّ ، والذِّئابَ المفترسةَ المتحفزة فيهمْ .. يقولُ :

ثقافتنا ... فقاقيعٌ منَ الصابُونِ والوَحلِ
فمازالتْ بداخلنا .. رواسبُ من أبي جَهْلِ
نلُفُّ نساءَنا بالقُطْنِ .. وندفِنهُن في الرمْلِ
وتملكهُنَّ كالسُّجادِ .. كالأبقارِ في الحقلِ
ونهزأُ مِنْ قواريرٍ .. بلادِينٍ ولا عَقْلِ
ونرجعُ آخرَ الليلِ .. نُمارسُ حقنا الزَوجيَّ .. كالثيرانِ والخيلِ
نُمارسُهُ خِلالَ دقائقٍ خمسٍ .. بلاشوقٍ .. ولاذوقٍ .. ولاميلِ
نؤدِّي الفِعلَ للفعلِ

ونرقُدُ بعدَها موتى .. ونتركُهن َوسطَ النارِ .. وسطَ الطينِ والوَحْلِ

قتيلاتٍ بلا قتْلِ

بنصفِ الدَّربِ ، نترُكهُنَ بالفطَاظةِ الحيْلِ

«انظر يوميات امرأة غير مبالية» .

لا أظنُّ هذا الشعرَ يحتاجُ إلى بيان .. ففيـهِ تشـخيصٌ سـريريٌ لمرضٍ مُسْتَعْصٍ عانَتْ وتعاني منه نِساءُ الشرْقِ التعيسِ .

وحينَ نقرأُ شِعرَ نزار بعـدَ ذلـكَ علـى لِسـانِ إحداهُـنَّ ، فإنـه يفتَحُ لنا نافِذةً على ثورَةِ الحَياةِ بداخلها .. فهـوَ لايَكتـبُ لِيَفضَحَهـا أمامَ مَمْلكةِ الرِّجالِ ، إنَّمـا يكتُـبُ لـلرُجلِ ، ليحرِّرهـا مِـنَ الكَبْـتِ والعُقَدِ التِي فرضتَ عليها مرغمة أو مختـارةً ليكسـر الجليـد لتعيـش، حُرَّةً نقيَّةً ، كيلا تُمارسَ الحبَّ تهريباً وتزويراً ، تقول :

يعيشُ بداخلي وحشٌ ... جميلٌ اسمه الرجل

له عينان دافئتان .. يقطرُ منهما العَسَلُ

ألامِسُ صدرَهُ العاري ألامسُهُ .. وأختَجِلُ

قروناً ... وهوَ مختبئٌ ... بصدري ، ليسَ يرتَحِلُ

ينامُ وراءَ أثوابي .. ينامُ كأنَّهُ الأجَلُ

أخافُ ، أخافُ أوقِظُه .. فيُشعلُني .... ويَشتَعِلُ

كمخلوقٍ خُرافيٍ .. يعيشُ بذِهنِنا الرجُلُ

له تسعونَ إصبَعَةً .. وشدقٌ أحمرٌ ثمِلُ

تصوَّرناهُ خفاشاً .. معَ الظلماتِ ينتقلُ

هذه هـي الصـورةُ الخرافيـةُ المطبوعـةُ على ذكـراهِ المـرأةِ عـن الرجلِ ، إنها صورةٌ مخزيةٌ مرعبةٌ ، لـنْ يرضاهـا رجـل واحـدٌ يحـترمَ نَفسه، اللهمَّ إلاّ أولئك النرجسيُّون أو ضعافُ النفوس ، المعقدون .

ومن أجل ذلك ثارَ الشاعرُ نزار ليعيـدَ لـلرجل في ذهـن المـرأةِ بعضَ اعتباره ، وليبعثَ في نفسِ المرأةِ شيئاً من الهـدوءِ والطمأنينـةِ ، وبعضاً مـن الثقـةِ في الرجـل، هـذا المخلـوق الـذي فُـرِضَ عليهـا أن تشاركه همومهُ على هذا الكوكب .

٣ - مَنْ هيَ المرأةُ التي يُفضلُها نزارٌ ؟

هَلْ أحبَّ الشاعرُ أيَّةَ امرأةٍ عَبَرتْ أُفقَ حياتِهِ ؟

أوْ أنّهُ افترضَ أشياءَ يجبُ أنْ تتوفرَ فيمنْ يُفضِّلُ مِنَ النساءِ ؟

أمْ أنّهُ اشْتَرَطَ مُواصَفاتٍ محدَّدة ، أحبَّها في نساءِ الأرضِ جميعاً أيْنَما كُنَّ ؟

أميلُ بفَضْلِ عكوفي على شعر نزار ودراسته ، وقد كان موضوع دراستي في الماجستير ، وبفضل صداقتي الحميمةِ للشاعرِ على امتداد أربعينَ عاماً، أميلُ إلى القولِ : إنّهُ يفضِّلُ النوعَ الثالثَ مِنَ النساءِ .

فالمرْأةُ الّتي تتصدَّرُ شِعْرَ نزار ، هي غيرُ الّتي تُغري الرجالَ بحبِّها ، أوْتسبيهمْ بجمالِها .. حَبيبَةُ نزار مُناضِلةٌ شريفة ، تمارسُ حبَّها بصراحةٍ ووضوح ونظافةٍ في رابعة النهارِ .. تعْمَلُ ، وتحِبُّ ، وتكافِحُ في الهواء الطلق ، وعلى ملاعبِ الشموسِ ، تحمِلُ الكِتابَ والرغيفَ بيَدٍ ، وَبالأخرى تحمْلُ البُنْدقيَّة وتقِفُ في الخَندَق .. هكذا يرُسُم لَنا الشّاعرُ صورَةَ لِلمَرأةِ المفضَّلةِ لديْهِ ، يقولُ : تحتَ عنوانِ / البنادقُ .. والعيونُ السودُ . / من رسالةٍ إلى صديقةٍ مُجنَّدَةٍ «الصفحة ١٢٩ من ديوانه : الشعر قنديل أخضر » :

أيّتها الصديقةُ .

الآنَ تعودينَ من مُعسكرِ التدريب .

وأنتِ كالرايةِ المُتعبةِ ، كالزَوْرقِ العائد مِنْ رِحلةٍمُجْهِدة ..

جلسْتُ أُدخنُ .. وأتأمَّلُكِ قطعةً قطعةً . كما لو كُنْتُ لاأعرفُكِ مِنْ قَبْلُ.

عَيناكِ النقيَّتانِ كأمطارِ ليلَةٍ إفريقية .

قميصُكِ المعقودُ الأكمامِ . الذي تركَتْ عليهِ البُنْدقيَّةُ بُقعاً مِنَ الزيْتِ

أطهرَ مِنْ زيْتِ المعابدِ .. أطهرَ من الطُهْرِ...

هـذه هـيَ المرأةُ المفضَّلـةُ الّـتي يَعرضُهـا شـعر نـزارٍ في بعـضِ مَواصَفاتِها ، وقدْ أطلقَهَا مِنْ عِقالها ، وكَسَرَ عَنْهـا قُمْقُـمَ الخـوفِ والخُرافـةِ ، وأوضـارَ التقـاليدِ وحررَّهـا مِـنْ جلادَيهـا وعارضيهـا في سوق النخاسة...

هذه هي المرأة المفضَّلة كما رسَمها لنا شعرُ نزارٍ وأفنى ملكاتهِ الشعريَّةِ مِن أجْـلِ نُصْرتهـا ، وذوَّبَ أيّامَ عُمـرهِ لكيْ ينتزعهـا مـن مقاصيرِ الحريـمِ ،وأقبيـةِ المتعهِّدينَ ، وعُلَـبِ الليـلِ ، إلى ملاعـبِ الشموسِ .. أنقذَها لِتشاركَ في الحياةِ الّتي وُجدتْ منْ أجْلِها بعدَ أنْ طالَ ليلُ تعْطيلها وتعويقها عن الدَّور العظيم الذي يجـبُ أنْ تلعبـهُ ، فهيَ نصـفُ المجتمـعُ وسـرُّ اسْتمرار البشـريَّة ، وَهـيَ لَيْسَـتْ عـورَةُ مكانُها البيْتُ ، كما أرادَ لها البعْض .

أرادَها الشاعرُ أنْ تمارسَ دَورها الخلاّق في بناء الحيـاةِ، ولكنَّـه يرفُضُ الوصايةَ عليْها وَالموصيـنَ ، ويرفـضُ الحَجْرَ علـى عواطفهـا والحاجرينَ ، يريدُها حُـرَّةً نقيـةً كالشـمسِ ، ويكتـبُ لهـا ، لاكمـا يُريدُهـا الدراويـش : لاتخرجُ مِـن بيتهـا إلاّ مرتـيـن ؛ مـرةً إلى دارِ زوجها، ومرَّةً إلى القَبرِ .

رُبَّما أنيَّ لا أنْساقُ مع الشاعرِ إلى الحدِّ الذي يُريُـد ، ولكنَّـي قطعاً لسْتُ معَ الدَّراويشِ ، فالقَضيَّةُ واضِحَةٌ جَليَّةٌ .

إنَّ نـزاراً يُريدُهـا حُـرَّةً أبيَّـةَ النَّفْسِ ، تثورُ علَـى جلاَّديهـا ، ومُسْتَلِبي حُرِّيَتها ، وترفُضُ أنْ تُباعَ في سوقِ الجواري ، ترفُضَ المالَ والجاهَ والسُلْطانَ ، مِنْ أجلِ حرِّيتها ، وإنسانيتها. وَأشاركهُ الرأي على أنْ نـأخذَ بعين الاعتبارِ أنَّ الحريَّةَ مسؤوليةٌ [illegible] ، وتحتاجُ إلى ثقافةٍ عاليةٍ وفهم دقيق لحركـةِ المجتمع في [illegible] فإذا ماتوفر المناخُ المُلائمُ لامانِعَ منْ أن تعملَ ، وتكتبَ . و [illegible]

يقولُ على لسانها :

سأكتبُ عنْ صَديقاتي
فقِصةُ كلُ واحدَةٍ
أرَى فيها .. أرى ذاتي .. ومأساةً كمأساتي ..
سأكتبُ عن صديقاتي
عنِ السّجنِ الذي يمتصُّ أعمار السجينات
عن الزمن الذي أكلَتْهُ أعمِدَةُ المجلاَّتِ ..
عنِ الأبوابِ لاتُفْتَحْ
عنِ الرغباتِ وهْيَ بمهْدِها تُذْبَحْ
عنِ الحلَماتِ تحتَ حَريرِها تَنْبُحْ
عنِ الزنزانةِ الكُبْرى .. وعنْ جُدرانها السُّودِ
وعَنْ آلافِ ، آلافِ الشهيداتِ...
دفن بغيرِ أسماء ، بمقبرةِ التقاليد .

«انظر صفحة ٨٨ يوميات امرأة لامبالية»

الشاعر يطمَـحُ في شِعْرِهِ أنْ يَرى المرأةَ طبيعيَّـةً ، بعيـدةً عـن التبرُّجِ والزِّينةِ ، يحبُّ أنْ تكونَ رقيقةَ الحاشيَةِ ، وزينةً بغيرِ تكلفٍ ، عميقةً كالبحرِ ، واضحةً كالشـمسِ، وديعـةً كقطـةٍ شـاميَةٍ ، أليفـةً محببةً إلى القلب .

يريدُها واعيةً مثقفةً ، فيهـا ، أنفـة وكبريـاء ، وعنـف مقبـول يخفـف عليهـا أنوثتهـا مـع دماثـة لا تهـافت فيهـا ، وخِبْرةِ المجـرِّبِ الحكيم. وفطنةِ الحليم وزَكانتهِ ، وفطرةِ المرأةِ السليمةِ التي لاتخيبُ ، معَ نموٍ في الحدْسِ وتفتحُ البصيرةِ ، ولباقةٍ بارعةٍ في دَفع دَفّةِ الحديث إلى الاتجاهِ السليم، وصمتٍ حينَ يكونُ الصمْتُ أفصحَ مِنَ الكلامِ.

فلنستمعْ إليه في قصيدته السادسة عشرةَ من ديوانه : الرسم بالكلماتِ حيث يقول : صفحة ٧٥

عرفتُكِ منْ عامين ، ينبوعَ طيبةٍ ووجهاً بسيطاً كان وجهي المُفضَّلا
وعينين أنقى مِنْ مياهِ غمامةٍ وشعراً طفوليَّ الضفائر مُرسَلا
وقلباً كأضواء القناديل صافياً وحبّاً كأفراخ العصافير ، أوّلا
أصابعُكِ الملساءُ كانتْ مناجماً ألملمُ عنها لؤلؤاً ، وقرنفلا
وأثوابُكِ البيضاءُ كانتْ حمائماً ترشْرشُ ثلجاً حيثُ طارَت ومُخمَلاً
عرفتُكِ صوتاً ليسَ يُسْمَعُ صوتُهُ وثغراً خجولاً كانَ يخشى المُقَبِّلا

أرأيتم ؟ كيفَ نقِفُ على أرْضيَّةِ الفنّان الأصيل ، الصُلْبَةِ ... فعينُه لاتحُطُّ إلاّ على جَمال ، وذوقُه الّذي يَدْأبُ لِبُلوغ الكمال ، وعقلُهُ الذّي يبحثُ دائماً عَنْ سماء للإلهِ الّذي فيه ؛ يُراوِدُ هو جسَدَهُ ، ويُحرّكُ أصابعَهُ في رِحْلَتِها السّحريَّةِ على بياض الورَقَ .. ولِذلِكَ فهُو لا يحبُّ إلاّ حينَما يكونُ في حالةِ وعْيٍ كامِلٍ واتزان يمكنه منَ الاختيارَ ، لأنَّ الاختيارَ حُرِيَّةٌ ، والحريَّةُ مسؤوليةٌ جَسيمةٌ على أرْضيَّةِ الدّهْشةِ والتوقع .. إنّهُ يحبُّ أنْ يرى مَنْ يحبُّها بحَجْمِها الطبيعيِّ ، وعَيْناهُ مفتوحتان ، فالحبُّ لايقومُ على الغباء أبداً ، ولاعلى التغابي ، وإلاّ خرجَ عَن معناهُ ، ولسْنا الآن في صَدَدِ تبْيانِ ذلك المعنى ، يقولُ :

أيمكنُ أنْ تغدُو المليكةُ هكذا طلاءً بدائياً ، وجفناً مكحّلا؟
أيمكنُ أنْ يغتالَ حسْنُكِ نفْسَهُ وأنْ تُصبحَ الخمرُ الكريمةُ حنظلا
يُروّعُني أنْ تُصْبحي غجَريَّةً تنوءُ يداها ، بالأساور والحُلى
سلامٌ علىَ مَنْ كُنتِها ..ياصَديقتي فقدْ كنتِ أيّامَ البَساطةِ أجمَلا

المرأةُ الّتي يبحثُ عَنها الشاعرُ ، بعدَ أنْ ضلّتْ به السُّبلُ . وضيَّعته الدروبُ ، هي طوقُ النجّاةِ ، والزورَقُ الّذي ينقلهُ إلى شاطئ الأمان . فقد تعبَ الشاعرُ من التسكع في محطات النضّال المجنون ، وفقدَ كلَّ شيءٍ و لم يبقَ مِنْ دُنياه إلاّ عيناها اللتانِ تمثلان كلَّ شيءٍ جميل في وطنهِ الحزين ، يقول :

عَيناكِ.. آخرُ مركبينِ يُسافرانْ

فهلْ هنالِكَ مِنْ مكانْ .

إنّي تعبتُ منَ التسكع في محطّات الجنونِ

وما وصلْتُ إلى مكانْ ...

عَيناكِ ... آخرُ فُرصتيْنِ مُتاحتيْنِ

لِمنْ يُفكرُ بالهروبِ

وأنا .. أفكرُ بالهروبِ

فَهلْ هُنالكَ منْ مكانْ ؟

عَيناكِ ... آخرُ ماتبقّى منْ عصافيرِ الجنوبِ

آخرُ ماتَبقّى مِنْ نجومِ الصيفِ

آخرُ ماتبقّى من حَشيشِ البحرِ

آخرث ماتبقّى مِنْ حقولِ التبغِ

آخرُ ماتبقّى منْ دموعِ الأقحوانْ

عَيناكِ .. آخرُ زَفّةٍ شعبيةٍ تَجريْ

وآخِرُ مَهرجانْ.....

أجلْ لم يبقَ له إلاّ عَيناها ، فهُما الميناءُ والمرسى ، وهُما آخرُ

ماتبقّى من مشاريعِ الفَرحِ والاحتفالاتِ الشعبيّةِ ، فلا الزفّـاتُ تُقـامُ ولا الأعراسُ يُحْتفلُ بها ، بعْدهُما ، فَهما آخرُ مابقّي لهُ مـن أسْـفارِ العشقِ ومكاتيب الغرامِ. ثمَّ يتذكّرُ يدَيها اللتَـين طالمـا سَـجَّلَ علـى مَلاستِهما آخرَ مالدَيهِ منْ رسائلِ الحبِّ . وأغلى ماعنْدهُ من قصـائدِ الشَّوقِ يقول :

عَيناكِ .. آخرُ ماتبقّى مِنْ تُراثِ

العشقِ

آخرُ ماتبقّى مِنْ مكاتيب

الغَرامْ

ويَداكِ ... آخِرُ دفتَرينِ من الحريرِ

عَليْهما :

سجَّلتُ أحلى مالدَيَّ منَ الكلامْ

* * *

عجيبـةٌ هـي المـرأةُ الـتي يفضِّلُهـا الشـاعرُ علـى كـلِّ النسـاء ، ويهواها من بين كلِّ النساء! إنها من صنف يكادُ ينقرضُ مـن أرضِ بلادِهِ ، كما شتول النخل تذوي في وطنهِ الحزين .

وهواها ثورةٌ طاهرةٌ من أجمل وأطهرِ الثوراتِ التي أُعلِنتْ مـن ملايين السنين . ومن أجلِ ذلك يُريدُها أمرَاةً ثـائرةً تجتاحـهُ بغاباتِ شعرِها الذي يهزأ بعصْـفِ الريـح، وتسـتبيه بوضـاءَةِ وجْهِهـا الـذي يكسفُ ضوءَ الصباح :

عيناكِ .. آخرُ ماتبقّى من شتول النخل

في وطني الحزين ...

وهوالكِ .. أجملُ ثورةٍ بيضاءَ

تُعلَنُ من ملايين السنين

كوني معي امرأةً

يُغطّي وجهُها ، وجهَ الصباحْ

كوني معي شَعْراً

يُسافِرُ دائماً ، عكسَ الرياحْ

أرأيتَ ؟ مَنْ هيَ المرأةُ التي يعشقُها نزار ! إنَّ طموحاتِه تفوقُ ذلك ، إنّه يريدُها عجريَّةً ، وحشيةً ، جنيةً ، لأنَّ العشاقَ برأيهِ لايبلغونَ ذرْوةَ العشقِ إلاَّ إذا انحازُوا إلى الثوّارِ والغاضبين ، يقول :

كُوني معي غجريةً ،

بدويةً ،

وحشيةً

كوني معي ، جنيّةً ،

لايبلغُ العشاقُ ذروةَ عِشقهِمْ

إلاّ إذا التحقوا بصفِّ الغاضبين ...

أحبيبتي ؟!

إنّي لأعلنُ أنَّ كُلَّ مافي الأرض

من عنَبٍ وتينْ...

حقٌ لِكلِّ المُعدمين ...

وبأنَّ كُلَّ الشعرِ ،

كُلَّ النثرِ ،

كُلَّ الكُحْلِ في العينَيْنِ ،

كل اللؤلؤ المخبوء في النهدين

كُلَّ العشبِ ، كُلَّ الياسمينْ

حقٌّ لِكلِّ الحالمينْ ...

كُوني معي :

ولسوفَ أُعلنُ : أنَّ شمسَ اللهِ .

تُشبهُ في استدارتها ،

رغيفَ الجائعينْ ...

ولسوفَ أُعلنُ ، دونَما حَرَجٍ .

بأنَّ الشعرَ أقوى ،

منْ جَميع الحاكمين ...

وهكذا تختلطُ المرأةُ المناضلةُ ، بالسياسَةِ ، والعقائدِ ، والوَطنِ في شعرِ نزارٍ ، فلا تعرفُ أيْنَ تنتهي جغرافيةُ المرأةِ ، ولا أيْنَ تبتدئُ حدودُ الوطنِ . فهل فَهِمَ المعدُّونَ للنزْوِ والسفادِ ، من هي المرأةُ التي يختارُها نزار ؟

والشاعرُ لايخفى عليه تآمرُ هؤلاء ، فيقول عنهم : «الحبُّ الذي ربطوني به ، ليس الحبَّ الذي تحدِّدُه جغرافيةُ جسدِ المرأةِ . إنّني أرفضُ مواراتي في مثلِ هذا القبْرِ الرخامي الضيِّقِ . فالمرأةُ قارةٌ من القاراتِ التي سافرتُ إليها ، ولكنّها ليستِ العالمَ كُلَّهُ .

إن الحبَّ عندي يُعانق الوجودَ كلَّه ، إنَّهُ موجودٌ في التراب ، وفي الماء ، وفي الليل وفي جراح المناضلين ، وفي عيونِ الأطفالِ ، وفي ثوراتِ الطلابِ ، وغضبِ الغاضبين .

المرأةُ موقفٌ من المواقف في رحلتي البحريَّةِ الطويلةِ ، ميناءٌ من الموانئ ، زوّدني ذاتَ يومٍ بالخبزِ والماء والحرير وأعوادِ البخور . لكنَّ بقيَّةَ الموانيء ظلَّتْ تنادي سُفني . إنَّ أسوأ شيء في تاريخ البحارِ . هو الرسوُّ في ميناء واحدٍ . فالميناءُ الواحدُ مقبرةٌ للطموح.

وخلال رحلتي الطويلةِ مع الشعرِ ، لم تبقَ المرأةُ في مكانِها ، ولم أبقَ في مكاني ، كانَ لابُدَّ من تغييرِ المقاعدِ والأثاثِ والأدوارِ ، حتى لايتحولَ الحبُّ إلى مملكةٍ من ممالكِ الضَّجرِ».

ثُمَّ يقولُ : « المرأةُ كانتْ ذاتَ يومٍ وردةً في عُروةِ ثوبي ، خاتماً في إصْبعي ، هماً جميلاً ينامُ على وِسادَتي، ثم تحوَّلتْ إلى سيفٍ يذْبَحُني . والمرأةُ عِندي الآنَ ليستْ ليرةً ذهبيةً ملفوفةً بالقطنِ، ولاجاريةً تنتظرُني في مقاصيرِ الحريمِ ، ولافُندُقاً أحملُ إليه حقائبي، ثم أرحلُ .

المرأةُ عِندي أرضٌ ثوريةٌ ، ووسيلةٌ من وسائلِ التحريرِ . إنّي أربطُ قضيَّتَها بحربِ التحريرِ الاجتماعيةِ التي يخوضُها العالَمُ العربيُّ اليومَ . إنّي أكتبُ اليومَ لأنقذَها من أضراسِ الخليفةِ ، وأظافرِ رجالِ القبيلةِ . إنّي أريدُ أنْ أنهيَ حالةَ المرأةِ الوليمةِ ، أو المرأةِ (المَنسَفِ) وأحررَها منْ سيفِ عنترةَ وأبي زيْد الهلالي .

ما لم نكُفَّ عن اعتبارِ جسدِ المرأةِ (مَنْسَفاً) تغوصُ فيه أصابعُنا وشهواتُنا ، وما لم نكفَّ عن اعتبارِ جسدِها جداراً نجرِّبُ عليهِ شهامتنا ، ورصاصَ مُسدَّساتنا، فلا تحريرَ إطلاقاً .

إنَّ الجنسَ هو صُداعُنا الكبيرُ في هذه المَنْطِقَةِ ، وهو المقياسُ البدائيُّ لِكُلِّ أخلاقياتِنا التي حملناها معَنا من الصحراء . يجبُ أنْ يعودَ للجنسِ حَجْمُهُ الطبيعيُّ وأنْ لانُضخِّمَهُ بشكلٍ يحوِّلُهُ إلى غولٍ أو عنقاء... »

الأهدافُ الكبيرةُ ، طريقُها شاقةٌ وطويلةٌ . والأدبُ موقفٌ ، والأديبُ موقفٌ . الأديبُ ليس خِزانةً من الكُتبِ ، وليس موسوعةً متنقِّلةً ، ولاعشراتِ الدواوين الشعريَّةِ . فكثيرون هُم الذين كتبوا الأسفارَ الطويلةَ وماتتْ بموتِهم لأنَّهم بدونِ موقفٍ .. هذا الموقفُ هو الذي يحدِّدُ موقعَهم من حركةِ التاريخ ، ويُفسِّرُ شكلَ رؤيتهم للمتغيِّراتِ التي تُحيطُ بهم ، ويرسمُ مُستقبلَهم على شكلِ نبوءةٍ للحُلْمِ الذي يرغبونَ ارتقاءَ الحياةِ إليه ويرتَضُونَه لهم ولمَنْ يحيطونَ بهمْ مِن البشرِ ، وقد يُحققونَ هذا الاستشراف الحُلْميّ كُلياً أو جُزئياً ، محكومينَ بدقَّةِ الأهدافِ ، وحجم العقباتِ المعوِّقةِ ، وكميَّةِ الجَهدِ المبذولِ .

« وكلَّما كانت النفوسُ كباراً
تعبتْ في مرادها الأجسامُ » .

هكذا يختارُ أصحابُ الرسالاتِ أهدافَهم ، ويُعبِّدون دروبَهم الشاقَّةَ ، المحفوفَةَ بالآلامِ والدموع . والتاريخ قدَّم لنا الأمثلةَ التي أسمعتْ مَنْ بهمَ صَمَمُ . أمَّا الذين يكتبونَ لمجرَّدِ التسليةِ، وتزجيةِ الوقتِ . والعَبثِ ، ليقالَ عنهم أنهم كتابٌ ، فهؤلاءِ عواسجُ متطفِّلونَ على الأدبِ والحياةِ تكنِسُهمْ حركةُ التاريخ ، ويذهبونَ جُفاءً ، مصداقاً لقوله تعالى ، وهو أصدقُ القائلين في الآية ١٧ من سورة الرعد ١٣ : «كذلك يضربُ الله الحقَ والباطلَ ، فأما الزَّبَدُ فيذهب جُفاءً ، وأمَّا ماينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض، كذلكَ يضربُ الله الأمثالَ » صدق الله العظيم .

وهكذا اختارَ شِعرُ نزار طريقاً خطِرةً ، تتفجَّرُ الألغام تحت وقع خُطاهُ ، في كلِّ خطوةٍ يخطوها ، وتحُفُّ به الأهوالُ من كلِّ

جانبٍ . غامَرَ بسمعتِهِ وعُمْرِهِ وعبقريَّتِهِ من أجلِ موقفٍ يناصر المرأة به ، وحتى هذه اللحظة بينكم من لا يغبطه على هذا الموقف وربما يشنؤه .. أما هو فقدِ اختارَ الطريقَ الأصْعبَ، لأنَّهُ صاحبُ رسالةٍ ومبدأ التزَمَ بهما ، ووقفَ جُهدَهُ وعمرَهُ يناضلُ مِن أجلِهما : الوطنُ ممثلاً بالمرأة ، والمرأة ممثلة بالوطن ..

اختارَ طريقَها هي ، لأنَّها الطريقُ التي توصلهُ إلى ارتقاء الوطنِ وتقدُّمِهِ ، وكرَّسَ فنَّهُ لأجلِها . وأحسَّ الجزارونَ بالخطرِ ، وخافوا على قِطعانِ محظياتِهِم أنْ تخرُجَ من الحظائرِ وترى الشمس ، فانهالَتْ عليهِ سكاكينُ العشيرةِ ، وسواطيرُ القبيلةِ ، وأسنانُ الإمارةِ، وبواريدُ جميعِ أسماءِ التعجُّبِ والأشارةِ.

اختارَ الطريقَ الصعْبَ ، وهو مُقدِّرٌ صُعوبَةَ هذا الاختيارِ في مجتمعِ الخُرافةِ والأساطيرِ ، والأولياءِ والدجالينَ ، والباحثينَ عن الكنوزِ المدفونةِ في الغيبِ ، والمهرِّبينَ ، مجتمعٍ يؤمنُ بالطُّهْرِ والعُهرِ ، يُصليّ ويسكرُ ، يَزْني ويدَّعي العفةَ .

اختارَ الطريقَ الأصعبَ ، لأنَهُ رَضعَ حليبَ التحدِّي ، ولبانَ الثورْةِ . منذُ أن قُطِعَ حبلُهُ السريُّ ، وأُدرِجَ في عِدادِ سكَّانِ هذا الكوكبِ ، وأخذَتْ تتلامَحُ في ذهنِهِ تعاليمُ أصحابِ الزوايا والبُخورِ والتكايا ، وترنُّ في اذنيةِ تعاليمُ شيخِ الكتابِ ، فتدقُ أبوابَ تمرُّدِهِ فيقولَ :

حينَ كنّا ... في الكتاتيبِ صِغارا

حقنونا .. بسخيفِ القولِ .. ليلاً ونهارا

درسونا : ركبةَ المرأة عَوْرَةْ

ضِحكةَ المرأة عَوْرَةْ

صوتَها .. من خلفِ ثُقبِ البابِ عورَةْ

صوَّروا الجنسَ لنَا ... غولاً .. بأنيابٍ كبيرهْ

يخنُقُ الأطفالَ

يقتاتُ العذارى ...

خوَّفونا .. مِنْ عذابِ اللهِ ، إنْ نحنُ عشقنا

هددونا .. بالسكاكين .

إن نحن حلمنا

فنشأنا .. كنباتاتِ الصحارى ...

نلعق الملحَ .. ونستافُ الغُبارا...

يومَ كانَ العِلمُ ، في أيامِنا :

فَلْقَةً تُمْسِكُ رِجْلَنا

وشيخاً وحَصيرا ..

شوَّهُونا .. شوَّهوا الإحساسَ فينا .. والشُّعورا ..

فصَلُوا أجسادَنَا عنَّا ... عُصوراً .. وعُصورا ...

صوَّروا الحبَّ لنا ... باباً خطيرا ...

لو فتحناهُ ... سقطنا ميِّتينْ

فنشأنا ساذَجينْ

نحسَبُ المرأةَ ... شاةً أو بَعيرا ...

ونرى العالَمَ .. جِنْساً وسريرا...

أمَا كانَ بإمكان الشاعر أنْ يسلُكَ الطريقَ الأسْهلَ والأسْلَمَ ؟ فتُفرَشَ في طريقِهِ الطُّرَرُ السلطَانيةُ ، والقطيفةُ والحريرُ ؟!

أمَا كانَ بمقدورِهِ أنْ يستريحَ مِنْ وجَعِ القلْبِ ، على أرصفةِ الفِكْرِ كغيْرِهِ ؟ فيُعْلَفَ كغيرِهِ في زريبةِ السُّلْطانِ ، ويُريحَ ، ويستريحَ؟

أما كانَ باسْتطاعَتِهِ أن يتسلَّحَ بالفؤوسِ ، والسكاكينِ ، كأشياخِ العشيرةِ ؟ ويشاركَ أفرادَ القبيلةِ وليمةَ المرأةِ المنْسَفِ ؟

أما كانَ أسهلَ لهُ أن يرتديَ الجُبَّةَ والكشكولَ والمسبَحةَ الأنيقةَ ؟ ويعيشَ بسلامٍ ، ويكونَ محموداً بين أوتادِ القبيله وأواريِّها؟

الحقيقةُ ، لمْ يكُنْ باستطاعتِهِ ذلكَ ، ولافي مقدورِهِ ، ولافي لَوحِهِ المحفوظِ . ولانحنُ نريدُ للشاعرِ غيرَ ماكانَ ، وماهوَ عليهِ الآنَ .. فالثورةُ في دمِ الشاعر ورثَها كابراً عن كابر.. والحريَّةُ قدَرٌ مُقَدَّرٌ على الشاعرِ لا انْعِتاقَ لهِ مِنْ دروبها ولافَكاكَ لهُ مِنْ معاناتِها .

الثورةُ والحريةُ ، أورثَتاهُ التمرُّدَ على القديمِ البالي ، ودفعتاهُ إلى التجديدِ للأفضل ، إلى التجديدِ في المخبرِ والمظهرِ .. وإلاَّ فما قيمةُ الثورةِ والحريَّة إذا لم تكوِّنا نسقاً تقدميّاً ومنهجاً تصاعديّاً في التطوُّرِ والارْتقاءِ .

لذلكَ ظلَّ الشاعرُ طوالَ نضالِهِ الشعريِّ منذُ منتصفِ الأربيعينياتِ حتى اليوم ، يَشنُّ غاراتِهِ على الموروثِ البالي ، ويلتحمُ بفلولِ المتراجَعِ المهزومِ «حتى لمْ يبقَ شبرٌ في جسدِهِ إلاّ وبه ضربَةُ سيفٍ أو طعنةُ رُمحٍ ، فلا نامت أعينُ الجبناء» . وظَلَّ يلملمُ جراحاتِهِ . ويجففُ دموعَهُ، ويرقأ نزيفَه ، ليُغيرَ من جديدٍ ، مشرِّعاً سنانَ قلمهِ الصقيلِ ، ينقضُّ على خصومِهِ ، أعداءِ الحريَّةِ والثورةِ والتقدمِ ، فيُخلِّفُهُمْ مُنْطرحينَ يُلَمْلِمونَ أوْحالَ سُقْمِهِمْ ، وضحالةَ موروثاتِهِمْ ، وهيَ تعاني سكراتِ الموتِ. إلى مثلِ هذا يُشيرُ الشاعرُ

وعلى لسانِ إحدى المصلوباتِ على جُدران التقاليدِ الباليةِ ، يقول :

أقمْنـا ، نصـفَ دُنيانـا	علـى حِكـمٍ وأمثـال
وشـيَّدْنا مـزاراتٍ	لألـفٍ ، وألـفِ دجّـال
وكالبَبْغـاء ، ردَّدْنـا	مواعـظَ ألـفَ مُحتـال
قصدْنـا شـيخَ حارتِنـا	ليرزُقَنـا ، باطفـال
فأدخلَنـا ، لحجْرَتِـهِ	وقـامَ بـنزعِ جُبَّتِـهِ

وباركنا

وضاجعنا

وعندَ البابِ . طالَبَنا

بدفعِ ثلاث ليراتِ

لصُنْعِ حجابِهِ البالي

وَعُدْنا مِثلَما جِئنَا بلا وَلَدٍ وَلاَ مالِ

هكذا يتصدَّى الثائرُ بإيجابيَّةٍ ضِدَّ كُلِّ عواملِ التخلُّفِ ، ويُدير رحى معاركِهِ بحذْقٍ ومهارةٍ ، ليدفـعَ عجلةَ التاريخ إلى الأمام .. وهذا ماتركَ النّصالَ تتكسَّرُ في جَسدِ الشاعرِ على النصالِ .. وإلاّ فما المُسَوِّغُ للإعادةِ والتكرارِ في شِعرْ نزار؟

وإلحاحِهِ المستمرِّ ، وتركيزهِ الدؤوبِ على موضوع حقِّ المرأةِ، وقضية المرأة لدرجةٍ ماتركَ فيها قولاً لقائلٍ ؟

سيداتي سادتي : لقدْ مللْنا شِعْرَ المناسباتِ والحولْياتِ والمقابرِ، وقرفْنا شِعْرَ المسمَّطاتِ والمخمَّساتِ والألْفياتِ ، وتقيَّأنا شِعْرَ الخَطابةِ والربَّابةِ والعشائرِ ، واحترقْنا بمعلَّقات المدائح والمذابح

والمكابح ، وانْذَبَحْنا بقصائد التّنظير والتقْعيـدِ والتهريـج والبشـارفِ .. وجفتْ حناجرُنـا مـن تَرْديـد الأَناشـيدِ الحماسِيَّة ، والمنظومـاتِ المدرسيَّةِ ، والقرَادِيَّاتِ الحرَفيَّةِ.. لقد انتهى زمنُ القَصيدةِ العصماء ، تجلدُ أعصابَنا بقوافيها الصمَّاء النحاسيةِ .. وجاءَ زمنُ شعريٌّ جديـد تقرؤكَ القصيدةُ فيـه قبـلَ أنْ تقرأهَـا ، وتشـرِبُكَ قبـلَ أن تشـربَها ، وتشتبكُ معكَ بالسلاحِ الأبيض بمجرَّدِ أنْ تفُكَّ الخاتَمَ السحريَّ عن كنوزِها ...

لا أزْعُمُ لنفسي أوْ لغيري صَلاحِيَّـةَ هـذا السيْلَ الجـارفَ مِن الغُثاء الـذي يُسـمُّونَهُ شعراً منثوراً، أو نثراً مشـعوراً ، تطالِعُنـا بـهِ أعمـدَةٌ مؤمَّنـةفي صُحُفِ الخِلافَةِ والسـلْطَنَةِ وإلا مـارةِ ، لتصفـعَ وجوهَنا ، بأرْذَلِ القول ، وسخفِ المبنـى والمعنـى ، فنشـعرَ بـالتقيُّئ والغثيانِ ... أنا لا أقصدُ الشِعرَ الـرديء ولا الزَّمـنَ الـرديء ، إنمـا أتحدثُ عن زمان شِعْري تَسَنَّمَ ذروتَهُ روادٌ عِظامٌ ، من أمثالِ نزار ، وأبي ريشةِ ، وبدَوي الجَبل ، والجواهري ، ونديم محمدْ ... وتركُوا السُّفوحَ والمستنقعاتِ للضفادع تُصمُّ الكونَ بنقيقها الآذان .

من أين أدخلُ في القصيدة ياترُى — وحدائقُ الشعر الجميل خرابُ
لم يبقَ في دار البلابل ، بلبلٌ — لا البحتُريُّ هنا ... ولازريـابُ
شعراءُ هذا اليوم جنسٌ ثالثٌ — فالقولُ فوضى، والكلامُ ضبابُ
يتكلْمونَ معَ الفراغ، فما هُمُ — عجمٌ إذا نطقَوا ... ولا أعرابُ
اللاهثونَ على هوامش عُمرنـا — سيّانَ إنْ حضَروا،وإنْ هُم [illegible].
يتهكُمونَعلى سطحِ النبيذِ معتَّقاً — وهُمُ على سطح النبيذِ ذُبابُ
الخمرُ ا تبقى إنْ تقادَمَ عهدُهَا — خمراً .. وقدْ تتغيَّرُ الأكوابُ

فمِنْ بين سُحُبِ دخانِ الواقعِ الشِّعريِّ المتردِّي وسُخامِهِ .. ومن بين الأنقاضِ المتداعيةِ لزمنِ المعلّقاتِ .. ومن بين اختلاجاتِ الفِكرِ المهزومِ ، وقصائدِ الضَحالَةِ والضفادِعِ والمستنقَعاتِ ؛ يهلُّ علينا شِعرُ نزارٍ، مطراً منَ العقيقِ والزُمردِ والفسيفساء ، وموقفاً مثلاً للكبرياءِ ، وأدباً رفيعاً يزيِّنُ بقوافيهِ ومعانيهِ كواكبَ السماءِ :

ما الشعرُ ؟ ما وجعُ الكتابةِ ؟ ما الرُؤى
أولى ضحايانا همُ الكتّابُ
إنَّ القصيدةَ ، ليس ما كتبَتْ يدي
لكنّها ، ما تكتبُ الأهدابُ
نارُ الكتابةِ ، أحرقَتْ أعمارَنا
فحياتُنا الكبريتُ والأحطابُ

وللمرةِ الثانيةِ في تاريخِ الشعرِ العربيِّ ، يقفُ شاعرٌ بكفةِ الميزانِ وحدهُ ، ويقفُ الزمانُ الشعريُّ كلُّه في الكفةِ الأخرى ؛ يصفعُ الخُرافةَ ، ويهزأ بالعاداتِ السقيمةِ، ويسخرُ من عسكرِ السُلطانِ ، ويركُلُ القيمَ الموبوءةَ كلَّها التي حشاها الأغبياءُ في رؤسِ النَّاسِ ، من خلفِ «الحرَمْلِكْ» ودهاليزِ الحريمِ .. وَحْدَهُ يقفُ نزارٌ خارجَ سلطةِ السُلطانِ والأميرِ ، يدافعُ عن حقِّ المرأةِ المضيمِ ، فتبرُقُ قصائدُهُ في سماءِ العروبةِ ، من محيطِ أمريكا إلى خليجِ عربِ أمريكا .

إنَّهُ عملٌ انتحاريٌّ جبارٌ ! أليسَتُمْ معي ؟... لكنَّهُ انتحارٌ اختياريٌّ رائعٌ ، يُقدِّمُهُ فنانٌ على مذبحِ فنه .. فالذين لايقامرونَ برؤوسِهِمْ مِنْ أجْلِ كلمةِ حق في وجْهِ سلطان جائر .. الذين لايُصلَبونَ على حروفِ قصائدِهِمْ ، يظلُّون دونَ مستوىً مايقولونَ .. فَمَنْ منهم وبأعْلى صوتِهِ قالَ .

تَمَرَّغْ .. يا أميرَ النفطِ .. فوقَ وحولِ لذَّاتِكْ .

كممسحةٍ .. تمرَّغْ .. في ضلالاتِكْ .

لك البترولُ ... فاعصرهُ .. على قدمي عشيقاتِكْ .

كهوفُ الليلِ .. في باريسَ .. قدْ قتلتْ مروءاتِكْ .

فَبِعْتَ القدسَ .. بِعْتَ اللهَ .. بعْتَ رمادَ أمواتِكْ .

كأنَّ حرابَ إسرائيلَ .. لم تُجهضْ شقيقاتِكْ .

ولم تهدمْ منازلَنا ...

ولم تحرقْ مصاحفَنا..

ولا راياتُها ارتفعَتْ .. على أشلاءِ راياتِكْ .

كأنَّ جميعَ مَنْ صُلبوا .. على الأشجارِ في يافا

وفي .. حيفا

وبئرِ السبعِ

لَيْسوا من سُلالاتِكْ

تغوصُ القدسُ في دَمِها .. وأنتَ صريعُ شهواتِكْ

تنامُ .. كأنَّما المأساةُ .. ليستْ بعضَ مأساتِكْ !

متى .. تَفْهَمْ ؟!

متَى .. يستيقظُ الإنسانُ .. في ذاتِكْ ؟!

إنَّهُ موقفٌ في قِمَّةِ المعاصرةِ والمسؤوليَّةِ والثورةِ والتجديدِ في المضمونِ والشكلِ، والتحرير، تحريرِ نصفِ المجتمعِ الذي أُعْفِيَ من

مهامَّـه منـذُ عصـورِ التقهْقُـرِ والانحـدارِ ، ومـنْ أداءِ دورِهِ في العمـلِ والبناءِ والنضالِ في عهـودِ الحَرمْلـكْ والإمـاءِ ، وتحنيـطِ الزوجـاتِ ، ومدَّعي خدمةِ الدينِ ، والسلطانِ .. ليبْني المجتمـعَ الصحيـحَ السـليمَ المعافى ، الذي إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى كلّه بـالحمى والسـهر ، ليقيـم المجتمـعَ القويـمَ ، الواضـحَ الملامـحِ ، بعـدَ أنْ فَسَـدَ إحساسُـه بجمالِ الحياةِ ، وشاهتْ مفاهيمُهُ داخلَ عفَنِ السـراديبِ ، ومعـالفِ أمـيرِ المؤمنـينَ عـالي الجنـاب .. لينقـذ مـاتبقى مِـنْ نصـفِ المجتمـع المسحوق منْ بيْنِ براثِنِ الفِكْـرِ المهـزومِ ، وأدبِ الصحـفِ الصفـراءِ السقيمةِ التي لاتكْتبُ إلاّ بمرسومٍ من السلطان .

سيداتي .... سـادتي : إنَّ الغبـاءَ أو التغـابي أمـامَ إشْكالاتِ حركةِ التاريخِ والمتغيراتِ وتجاهُلَها ، لايُحلُّ المشْكلَةَ ، بل يعقّدُها .. والتصدِّي لها هُوَ الردُّ المنطقيُّ ، والحلُّ العقلانيُّ لتعقيداتهـا .. ومِـنْ هُنا يبدأ دورُ الفنانِ الأصيلِ بالتزامِ قضايـا مجتمعِـهِ وأمّتِـهِ ، لاقضايـا سادَتِهِ وعالفيهِ، لاقضاياهُ وهمومَهُ النَرجسيَّةَ المريضةَ !

التزامُهُ بتسليطِ الأضواءِ على عيـوبِ مجتمعـهِ لإصلاحِهـا ... وكشفِ مآسيهِ التي يخبُّ بهاَ خلالَ مسيرتهِ العشـوائيَّةِ المتعثرةِ مـع حركةِ التاريخ ، في ظلالِ المعارفِ النازفةِ وجعاً ، والعاداتِ المهلْهلَـةِ سَقامةً ، وكتابةِ التاريخِ المَسفوحِ مِسَخةً ... ليُعمِّقَ إحسـاسَ النـاسِ برفضِ الواقِعِ ، تحفيزاً وتثويراً وتصدّياً ونضالاً .

من أجلِ هذا ثارَ شعرُ نزارٍ على الموروثِ والمعروفِ .. فنزَفَ فكرُهُ وقلبُه على الورقِ دفاعاً عـنِ المـرأةِ ومجتمعهـا ، ليحررَهـا مـن إسارِها ، ويُطلِقَها من عقالِها ، ويعيدَ لها إنسانِيَّتَها المسْتَلَبَةَ ، ليعيـدَ لهـا كرامتَهـا وشـخصيَّتَها ، بعـد أنْ حُنطَـتْ كالفراشـاتِ ، آلافَ السنينَ ، في دورِ الحريمِ والإماءِ .. فلِسانُ حالها يقولُ :

ياسيِّدي .. أخافُ أن أقولَ مالديَّ من أشياءْ

أخافُ لو فعلتُ .. أنْ تحترقَ السماءْ

فشرقُكمْ ، ياسيدي العزيزِ .. يُصادِرُ الرسائلَ الزرقاءْ

يُصادر الأحلامَ ،من خزائنِ النساءْ

يمارسُ الحجْرَ ، على عواطفِ النساءْ

يستعملُ السكّينَ .. والساطورَ .. كي يخاطبَ النساءْ

ويذبحُ الربيعَ .. والأشواقَ .. والضفائرَ السوداءْ

وشرقُكم ؛ ياسيِّدي العزيزِ ... يصنعُ تاجَ الشرفِ الرفيع ،

من جماجمِ النساءْ

وبعد ؛ ياسادتي الكرام :

لقد أرادَ شِعرُ نزار أن ينْقُلَ المرأةَ والحبَّ من دهـاليزِ الحريـمِ ، إلى العراء ، والهواءِ ، والشمسِ ، حيثُ الحريَّةُ والنقاءُ ؛

لأنَّ الحبَّ حين يُختَلَسُ اختِلاساً ،

ولأنَّ المرأةَ حينَ تتحولُ إلى شريحةِ لحمٍ نتعاطاها بالأظافِرِ ،

ينتفي الوجْهُ الحضاريُّ للحـبِّ .. وتنتفـي أيَـةُ صِيغـةٍ إنسـانيةٍ للحوار .. ويصبحُ الغَزلُ رقصةً همجيَّةً حوْلَ ذبيحةٍ ميِّتةٍ .

ياسادتي :

إنَّ المرأةَ في أكثرِ الشعر العربي ؛ مادةٌ منتهيـةٌ .. وأعضاؤهـا الجميلةُ مصفوفةٌ على موائـدِ الشـعراء ، كأطبـاق المشـهِّياتِ ؛ فهـي طرفٌ كحيلُ ، أو عَجُـزٌ ثقيـلٌ ، أو خصرٌ نحيـلٌ ؛ يكـادُ مِـنْ ثِقـلِ الأردافِ ينبترُ .

أما المرأةُ في شعرِ نزارٍ فهي جسرٌ ممدودٌ على كل الأزمنةِ «عدْ إلى البنادق والعيون السود » في ديوانه الشعر قنديل أخضـر صفحـة ١٣٠ ومابعد » .

فهلْ نسألُ بعدَ الآن ! لماذا يكتُبُ نزارٌ شعراً عنِ النسَّاء ؟
تفضَّلوا إنْ كانَ هناكَ سؤالٌ !

درعا ٢١ | ٥ | ١٩٩١

ترحيب

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم . وبِهِ نَستَعينْ

أَيَّتها الأَخَواتُ وَالأخْوَةُ ؛ مَسَاءُ الخَيْرِ .

يُسْعِدُني أنْ أَلتَقيَ بِكمْ مِنِ عَلَى هَـذا المِنبَرِ الثَّقـافيِّ . لِنُرَحبَ معـاً بـالأَديبِ اللَّوْذَعـيِّ ، وَالمُفكـرِ الجَهْبَـذِ ، وَالمَسْـرَحيِّ المُبْـدِعِ ؛ والكَاتبِ الكبيرِ . الأخِ وَ الزَّميلِ عَلي عُقلَةَ عِرسانِ . رئيـسِ اتحـادِ كُتابِ العَربِ فِي سُوريا .

فَتعَالوا ... نَتحَوَّلْ مَعاً فِي مَجَالي فِكْرِهِ النيِّرِ ، نَتَفَيَّأُ أكـثَرَ مِـنْ دَوْحَةٍ دَانِيَةِ القُطُوفِ ،

وَنَستَظِلُ أكثَرَ مِنْ سَرْحَةٍ يَانعةِ الثِّمارِ ؛ نَجْني مِـنْ تِلْـكَ مَـالَذَّ وَطَابَ ، وَ نَشْتَارُمِنْ هَذِه مَاعَذبَ وَصَفَاوَرَاقَ .

أَدْعُوكُمْ لِلسَّـفَرِ مَعي عَبْرَ مَواسِـمِ الخِصْـبِ وَالعَطَـاء لأَدِيبِنَـا الكَبيرِ الأُسْتَاذ الدكتورَ عَلي عُقْلـةَ عِرسَانَ، حَيـثُ الغِـلالُ وفـيرةٌ ، وَالبَرَكَةُ غَامِرَةٌ . ولَكنْ ؛ هلْ نَملِكُ أَلاَّ نَسْـمَحَ لِلجَمَـالِ أنْ يَسْـتَبِينَا وَنَحْنُ عَلى أَبوَابِ رياضِـهِ المرصعةِ بالإستبرق ، وَالوَشْـي المُنمنـمِ / وَالتُحفِ البَاذِخةِ ، أو نحن نتسلق هضابه الأنفس ، الحبلـى بالمواسـم

الواعـدة فكـراً وإبداعـاً أَوْ وَنَحْـنُ نَسْتعرض حَدَائـق أدبـهِ الفيـح ، بأزاهيرها النَّديَّةِ وَأَوْرَادِهَا الْمُخْضَلَّةِ ؟ فَمِنْ أَيْنَ نَدخلُ ؟ با لله عَلَيكُمْ أَرْشدوني ؟

– أَمِنْ بَوَّابَةِ الشِّعرِ نَدْخُلُهُ ؟ وَكَيـفَ ؟ وَحِكَايَـةُ شِـعرِهِ ، حِكَايةٌ خفيفةٌ طريفةٌ . تماماً «كحكايةِ الـوَرْدَةِ الَّتي تَرْتَجِفُ عَلى الرَّابيةِ ، مخدَّةٌ مِنْ العَبيرِ وَقَميصاً مِنْ الدَّمْ . »

– أَمْ بَابِ المَسْرَحيَّةِ؟ كَيْفَ ؟ وَمَسْرحيَّاتُهُ تَغْمُزُ فكْرَكَ وَقَلْبَكَ وَخيالَكَ فَتحدِثُ فِيكَ هِـزَّةً عَجيبـةً ، وَحَالـةً سَـمْحَةً قَريـرةً تَلُفُّكَ وتغرقك فِيها .

– أَمْ مِنْ بَابِ الخَاطرةِ السَّانِحةِ الرَّقْرَاقَة ؟ كَيْفَ؟ ـ وَخَاطِرَتُـه كتلةٌ مُلْتَهِبَةٌ مِنَ الحَرِيرِ تُداعِبُ أَنْفَكَ وَأُذُنَك وَعَقْلَكَ ، فَتَتْرُكُكَ مُبَعْثَراً عَلَى تخومِ السُّؤالِ .

أَمْ مِنْ بَابِ الدِّراسَةِ الفِكْرِيَّةِ ؟ كَيْفَ ؟ وَهِيَ تُدَغْـدِغُ قَلْبَكَ، وَتَهْمِزُ فِكْرَكَ ، وَتَخْتَرِقُ ضَمِيرَكَ ، دَوُنَ أَنْ يَـدُورَ فِي خلـدِكَ أَنْ تَسْتَقرِئَها ، أَوْ أَنْ تَفُكَّ رُمُوزَهَا لِتَقِفَ عَلَى سِرِّ إعْجَازِهَا ـ وَقُدْرَةِ إقنَاعِهَا ؛ وَلَو فَكَّرْتَ فِي ذَلِكَ يَوْماً فَسَتجدُ نَفْسَكَ كَما تَجِدُني الآنَ أُعْلِنُ عَلَى المَـلأ بِكـلِّ زَهْوٍ وَافْتِخَارٍ بِأَنَّنِي أَكْتَشِفُ عَليّاً مِنْ جَديدٍ.

والآنَ ؛ أُرِيدُ أَنْ أَجتَازَ بِكُمْ عَتَبةَ الخَوْفِ ، وَبَوَّابَةَ النِّفَاق السِّيَاسيِّ الَّتِي تَفْصِلُكُمْ عَنْ كُلِّ مَاهُوَ آدَمِيٌّ وَإِنْسَانيٌّ ، عَنْ كُلِّ مَاهوَ حَقٌّ وَخيرٌ وَعَدْلٌ وَحُرِّيَّةٌ ؛ لِنَقِفَ جَميعاً مُنْتَصِبي القَامَاتِ عَلَى تُخُومِ الحُرِّيَّةِ وَقَدْ أَشْرَقَتْ أَنوارُهـا وَ خَفَقَـتْ أَعْلامُهـا فِي سَـمَاءَاتِ العَالَم كُلِّهِ مِنْ حَوْلِنَا ؛ لنَتَحاوَرَ معاً حِواراً ديمقرَاطياً فِي قَضَايانَا المَصيريَّةِ ، وَفِي شُؤُوننا الدَّاخِليَّـة . وَتَفتَحَ قُلوبَنا بِصـدْقٍ وَعَفْويَّةٍ ،

وَنَتحرّرَ مِنْ عُقْدَةِ «مَعَ أَوْضِدَّ» عُقْدَةَ «عَسْكَر وَحَرَامِيَّة» ، لِنَتَمَتَّعَ بِبرَاءَةِ الحُرِّيَّةِ ، وَحِيادِ العَدَالةِ ، ، وَحَلاَوَةِ الحَقيقةِ ، وَنَقْطَعَ الطَّرِيقَ عَلى كلِّ المناورينَ منْ وَرَاءِ الكَواليس لِخِداعِنا، وَالمُسَاومِينَ عَلَيْنا وَعَلى حُقوقِنا في اللّقاءَاتِ المُغْلَقَةِ ، وَالمتآمِرينَ عَلى قَضَايَا أُمَّتِنا في الإجتماعاتِ المُنفردةِ.. المُغيِّرينَ جُلُودَهُمْ وَعقولَهمْ وَكَلامَهُمْ أمامَ المِيكْرُوفُوناتِ وَعَدَسَاتِ التَّصْوِيرِ .

بالحِوَارِ الدِّيمقرَاطيِّ الحُرِّ ، في الهَوَاءِ الطَّلْقِ ، بَعيداً عَنْ أَجْوَاءَ الصالاَتِ المُكَيَّفَةِ وَفَرقَعَةِ أعقابِ بَنادِقِ الجُندِ وَكَبِيرِ البَاوِرَانِ وَرَاءَ الأَبْوَابِ المُغلَقَةِ ، نَجدُ أَنْفسَنَا . وَنُعَبِّرُ عَنْ ذَوَاتِنَا ، بِأَنَّهُ المُناخُ الوَحِيدُ الَّذي يَلِيقُ بالإنسانِ وَبِكَرَامةِ الإنسانِ .

الحِوارُ الدِّيمُقراطيُّ الَّذي حُرِمْنَا مِنْهُ زمناً طَويلاً بضغط من مهمازية أعداء أمتنا ، وتنفيذاً لمشيئة الذين جندوا أنفسهم في صُفُوفِ أعدائنا ، وَ الَّذينَ يُريدُون لَنا أنْ نَبْقَى عَبِيداً لِيَتَسَنَّى لَهُمْ قِيَادُنَا ، وَ أنْ نَظَلَّ بلا أَلْسِنَةٍ لِكَيْ لا نهتف بالحَقِّ أَوْ نهتفَ لِلحُرِّيَّةِ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ طَارَدُوا مُفكِّرِينا ، فمَلَؤوا المعتَقلاتِ في كُلِّ بَلَدٍ ، وَلاحَقوا كتّابَنا فانتَشَروا في كُلِّ مَكَان ، وَ اسْتَعْمَلوا أَبْشَعَ الوَسَائِلِ مَعَهُمْ كغَسيل المخ أوفَرم الأصابع فَتَشَتّتوا عَلَى كُلِّ القَرَّاتِ ، وَظَلَّتْ رَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ عُصْبَةٌ لَيسَتْ بالكَثيرةِ مِنْ نخبَةِ أُدَبَائنا وَكُتّابنا يَتَصَدَّوْنَ لِلمُؤَامَرَةَ التي أَدْرَكُوا أَبْعَادَهَا .. ... يُغَامِرُنَ بِرؤُوسِهِمْ في سَبِيلِ كَلِمة حق وَصِدْق يَقُولونَهَا ، لَقَدْ آلَوْا عَلَى أَنفُسِهِمْ ألاَّ يُلْقُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، وَرَضوا بكَفَافِ العَيْشِ ، بالخُبْزِ وَالمَاءِ ، بالحَجَرِ بيْنَ أَحْزِمَتِهِمْ وَبُطونهمْ، لِيَظَلّوا أَحْرَاراً شُرَفَاءَ يَتنسَمُونَ رِيحَ الحَقِ وَالعَدْلَ وَالحُرِّيَّةِ... وَتَركُوا مَعَالفَ السُّلْطَانِ وَنُعْمى المَرْبَرِبَاتِ الحِسَانَ لِلّذينَ أَجَّروا أقلامَهُمْ ، وَجَيَّروا وَلاَءَهُمْ لِمَنْ يَدْفَعُ أَكْثَرَ .

وَمَازَالتِ المُؤَامَرَةُ مُستَمرَّةً ضِدَّنا وَ ضِدَّ أحرَرِنا وَأعلامِنا وَمُفكِّرينا ، يَقودُهَا أَعْدَاءُ أُمَّتنا ، وَرَهطٌ مِمَّن وَظَّفوا أنفُسَهُمْ عِندَهُمْ وَ جنَدوا فِي صُفوفِهِمْ ، وَرَاحُوا يُقدمون سِلسِلةً مِنَ التنازلاتِ وَباسْمِنا يَوماً بَعْدَ يَوم ، إنهُمْ عَلَى عَجَلةٍ مِنْ أمْرِهِمْ ، يَوَدُّونَ إبْرامَ الصَّفْقَةِ بالسُّرْعَةِ المُمكنةِ قَبْلَ أنْ نَسْتَيْقظَ ، وَيَفقدُوا مَواقِعَهمْ وَيَخسَروا مَكَاسِبهمْ.

وَلَكِننّا نَقُولُ لَهُمْ : إنّنا مُستَيْقظونَ يَقظونَ ، وعَارِفُونَ بكُلِّ مَايَبيعونَ وَيَقْبضونَ وَإنّنا عَلَى الأَقَلِّ فِي هَذا الوَطنِ سَنسْقِطُ كُلَّ الإتفاقاتَ المَشبوهةِ ، وَالمَلاَحقِّ السِّريةِ ، فَنَحْنُ لِسْنا على عجلةٍ مِن أمْرنا ، وَ أَربَعُون عاماً مَنَ الصِّراع مَعَ العَدوّ لَيْسَت بالزَّمن الطويل في عُمرِ الشُّعوبِ رُبَّما لَمْ يُقدَّرْ لجيلنا التحَّريرُ ، فَلِمَ نَسْتَرْهِنُ أجْيَالنا القَادِمةَ وَنُلزمهم بِقصَرِ نَظرِنا وَخَيبَتِينا ؟!

لَقدّ ظلَّ الصَّليبيُّون أَكْثَرَ مِنْ قَرنَيْن يَجثمونَ عَلى صَدورِنا حَتَّى جَاءَ صَلاح الدِّين وطردهم وَأُمَّةٌ أنجبتْ صَلاَحَ الدِّين، قَادِرَةٌ عَلَى أنْ تُنجبَ غَيْرَهُ وَتحرر فلسطينَ... أمَّا أنْ نوقعَ صَكَّ الاستسلامِ بَأيدْينا ، فَلا ، وَأَلْفُ لاَ ، وَتَبَتْ أيدٍ تُوقِعُ ذَلِكَ ، وَسَيَظلُّ مَوْقِفنا العَربي الأسيرُ ، وَأرْجو أنْ يَظلَّ ، وَلَونَظرِياً ، رَائداً لِلقوْميَّة العَربيَّة، رافِضاً كُلَّ الحلول الإسْتِسْلاميَّةِ، وَالجلُوسَ إلى مَوَائد المُفَاوضاتِ مع الأعدَاء، والإنزِلاقَ عَبرَ الأبواب الخلفيَّةِ لِلكَامبِ .
اللّهمَّ اشْهَد فَقد بلَّغتُ

٢١ / ١٠ / ١٩٩٤

أضواءٌ علَى بَعْضِ القَضَايَا الثَّقافيةِ في فِكْرِ الأستَاذِ الدكتور علي عُقْلةَ عرسَانَ

الأَدَبُ * الأدبُ بصورةٍ عَامَّةٍ : «تَعبيرٌ إنسانيٌ فِي قَوالبَ كَلامِيَّةٍ ، تُراعي قِيَمَ الجَمالِ وَتصقُلها وَتُنميها . وَيَضعُ العَمَلَ الأدَبِي بمتناولِ القارئ تجربةً» حَيَّةً، وَنماذجَ إنسانية ، وَسُلوكاتٍ بَشَريَّة «فِي سِيَاقِ مُعَالجةٍ لها خواصُّها وَ خصُوصِيَّتها ، تومِضُ بِوَهَجِ المُعَانَاةِ، وَلَها لَذْع نارِها».

وَبطريقةٍ أُخرى يُعرِفُ لَنا الأستاذ عَلي عُقْلَةَ عرسَانَ الأدَبَ، فِي كتابِهِ دِراساتٌ فِي الثَّقافةِ العَربيةِ : وذَلِكَ فِي الصفحة ٨٣. حَيْث يَقولُ : إنَّ الأدَبَ الحيَّ ، شِعْراً كانَ أَمْ نَثْراً ؛ يُكثِّفُ تَجَارِبَ أفرادٍ مُبدعينَ ، هم خلاصة عَصرٍ أو جيلٍ ، وَبَعضُ شُهودِهِ وَرُوَّادِهِ ، وَكلٌّ مِنهمْ مُتَأَصِّلٌ فِي بيئةٍ وَثقَافةٍ وَمُجتمع ، مُتَوَاصِلٍ تواصلاً فَعَّالاً مَعَ الآخرِ ، كِياناً فرْدِيّاً كَانَ الآخرُ ، أم جماعةً أمْ مَوْروثاً حَيّاً فِي تاريخِ أُمَّةٍ».

وَيُقدِّمُ الأدَبُ بَعْدَ ذَلِكَ «وَاقعاً فَنّياً ، يتكوّن مِنْ تَوْظيفِ مُختارات واقع ما - أشخاصٍ علاقات ، أحداث ، سلوك ، وقائع، حالات نفسية وعاطفية ، إلخ وإعادة تركيبها بوعي لتحقيق هدف من بوعيٍ ، لتحقيق هَدَفٍ، مِنْ خلالِ تمكنٍ ملحوظٍ ، وامتلاكٍ كافٍ لأدواتِ التَّعبير ، وَوَسَائله ، وَتَقَنيَّاتِهِ فِي جنسٍ أوْ نوعٍ أدبِيٍ » قِصَّةٍ ، روايةٍ ، مَسْرحيةٍ ، قصيدةٍ ، خاطرةٍ ، إِلَى آخره .

الأديب * والأدبُ أو الأديبِ كَمَا يُصوره لنا الأستاذ عَلي عُقْلةَ عرسَانَ، هوَ الَّذي «يُطعِّمُ واقعه الفنِّيَّ ذَاكَ ، أَوْ يُقيمهُ عَلى أرضيَّةٍ مِنَ الحُلمِ وَالرؤيةِ ، وَعَلى قدرةِ تَزَاوج وَتَكاملِ الوَعي المَعْرِفِي

وَالفَنّ في إعـادةِ تكويـنِ المُعطيـاتِ – مادّيـةٍ ، وَمَعنويـةٍ ، ورُحيَّـةٍ – وَتَقديمها ؛ صياغـةً جَديـدةً ، رؤْيـةً تَتَسـامى إلى الشُّـمولِ وَالكمـالِ لِحركةِ الحَياةِ وَمُقَوماتهـا ، وَلِـدور الإنسـانِ وَمَكانَتِـهِ في ذَلـك مِـنْ جِهَةٍ ؛ وَللعلاقاتِ البشرية وسياق الحَياةِ وَالمتعةِ وَالسـعادةِ ، وَمَـايبني ذَلَك وَينتجهُ فيها مِـنْ جَهـةٍ أخرَى .. كُـلُّ ذَلـك يَقـومُ بـه الأدبُ وَالأدِيـبُ » وَلاَ يجوزُ ألاَّ يَقُـومَ بـه ، وَإلاّ أَلْغـى دَوْرَهُ بيـدَهِ ، بـلْ وَيَجـبُ أنْ يَنْدفِـعَ في سـبيلِ تحقيـقِ ذَلـك «بحـسٍّ إنسـاني سَـليمٍ وَمَسؤوليةٍ عَن الحاضرِ وَالمسْتَقبل».

وَهكذا «يَستمدُّ الأَدبُ، كما يستمدُّ الأديبِ مِـنِ انتِمائَـهِ إلى بيئَةٍ وَتُربَةٍ اجتماعيةٍ وَثقافيةٍ ، وَمنْ نموّهِ فيها ؛ تَمايُزاً وَخصوصيّةً .

كَما يَسْتمدُّ منْ مُعايشته لِدقائق الحياةِ، وَمعاناة النّاس؛ قُـدرةً علـى الغَـوصِ في أَعمـاقِ النّفـوسِ، وَكَشْـفِ الدَّخـائلِ ، وَدوافِـعِ الأفعال، وَقَوانين العلاقاتِ وَمحرِّكَاتها ؛ وَتمكناً مِن اسْتخلاصِ العِـبَرِ وَتَقديمَ المِثالِ وَالبدَيـل في ثَـوبِ رُؤيـةٍ ، أو كَشْـفٍ مُمْتـعٍ ومؤثـرٍ ، وربَّما مُثير ؛ مِنْ خلال عُمـقِ تصويـرٍ وَتعبـيرٍ وتأثـيرٍ ، الأَمْـرُ الـذَي يُكسبهُ – الأدب أو الأديـب . أصالـةً في مَحلّيّتِـهِ وَانْبثاقـاً منهـا مِـنْ جهةٍ ؛ وَعمقاً وَشمُولاً إنسانيّين مِنْ جهة أخرى ؛ يجعلانِهِ مَقبـولاً ، وَمُؤثراً في حياةِ أناسِ عصْرهِ ،وَفي عُصورٍ وَأجْيالٍ وَبُلدانٍ » .

أرأيتـم كمـا أرى ؟ هـذا التّصـوّرَ المبـدعَ الخـلاّق الـذي يـراه الاستاذ عَلي عُقْلَة عرسَانَ: للفنان ، وللدور الذي يجب أن يقوم به في بيئته ومجتمعه ؟!

دور الأدب والأديب

* هذا هو قدر الأديب والمفكر ،وبالتالي الأدب ، أن «يُسجِّل

موقفاً ، ويقدِّم رؤيةً في الحياة ، ويحمـل طاقـةً على التأثير والتنويرِ والتحرير ، ومنْ ثمة على التحريض والتثوير والتغيير ؛ مما يجعله دائماً مشروعَ بناء مستقبلي ، وأملاً وطنياً ، وهاجس استشراف الإنسانية لأفاق المستقبل ، ومكنون النّفس البَشَرية ، وطاقة تسـام واستيعاب وتمثّـل ؛ تتبـدى جميعـاً في تفاعلـه الخـلاق مـع الواقـع ، والجديـد ، والمشكل ، والعويص والغريب» .. هذا هو الأديب الحق الذي نـراهُ جديراً بهذا الاسم ، فإذا ؛ هو يعيدُ بناء ماحوله كما يحلم به سمواً ، ويرضاه تألُقاً ، ويتعايشُ مَعه تكـاملاً واتّسـاقاً ، عالَمـاً خيّراً معطـاءً نسجهُ من وهجِ دمه ، وانبجاس النّور من خلايا الإلـه الرّائـع الّـذي يَسْكنُ فيه ، وَيَنْداحُ مِنْ غدد الجمال المخبوءة في عقله الّـذي يتـألق لحظة الأداء الفني المبدع ، واسْتلهام آمال من يحيطون به .

«وإعادة البنـاء تلـك تحمـل مشـروعاً ، وتُقـدِّم عالمـاً أوْصيغـةً جَديدة للعالم ، يضيـق أو يرحـب حسـب تجربـة المبـدع ، وقدراتـه وأصالة ثقافته ، ووضوح رؤيته .. حسب فهمـه للحيـاة ولمشـروعه فيها ، وموقفه مما يجري على ساحة تفاعله الفنيِّ معها ».

وأما مايرمي إليه الأديب أو الأدب ، فيحاول الأستاذ علي أن يفتح أمامنا آفاقاً معرفيه مضيئة حين يقـول : «والأديـبُ – والأدبُ – يرمي إلى دخول عالم كلٍّ منّا ، واحتلال مكانةٍ فيـه ، فهـو على نحو ما ، يُريد أن يغـزو كياننـا ومشـاعرنا ، عقولنـا وأرواحنـا ؛ بمـا يحمل إلينا من مشـاعر وأفكـار وقيـم ورؤيـةٍ .. ويتوسل إلى إنجـاح مقاصده بوسائل يمثلها ، أو يلخصها فنه كلهُ وتجربتهُ كلّها » .

«وغني عن البيان – من وجهة نظري – القول بأن مـايريد أن يغرسه صـانع الأدب – أو الأدبُ – في أعماقنـا ، مبثوث في البُنيـة التي يقدمها ككل، وبالتالي فإن دعاواه وقيمة وأغراضه كلّها تـترجم

– إنْ كانَ متمكناً من صنعته – في فعلٍ تـامٍ بكـلِّ مقوماتـه ، معبّراً عنه بأداءٍ يرقى إلى التمام باستثمار طاقةِ وسيلة التعبير ، تلـكَ الـتي يمتلكها .

وهو يحـاول – جـاهداً – ألا يُفاجئنـا بخطـابٍ فـجٍ مَكشـوفٍ يَستثير عداوتنا لما تحمله ألفاظه ومعانيه من اسـتفزازٍ ، ويستنفرُ منـا مكامن الرّفـض أو الشـك في جـدوى مـايريد أن يغْرسـه في داخلنـا وينميه ، في سَلامةِ الغرسِ وطوايا الغارس، أو بجدية وجدوى الرحلة التي هو رُبانها والداعي إليها أصلاً ، وهو يسوس قارئـه ليتغلغـل إلى أعماقه ، ويخوض معركتـه هنـاك في الأعمـاق ، ويتوقـف نجاحـه في ذلـك علـى قيمـة مـايحمل ، وعلـى أسـلوب الوصـول والتوصيـل بفنٍ » .

وهكـذا يُريـد الأستاذ عَلي عُقْلةَ عرسَانَ أيّهـا الأعـزاء أن يقودنا بخيط واهٍ مـن الفهـم إلى القـول بـأن الأدب بنـاءً علـى ذلـك «متصل بالحياة متواصـل معهـا ، ينبـع مـن طينتهـا ومائهـا وشمسـها وهوائها ، من ماديتها وروحها ، من إنسانها ومشـكلاته ومعاناتـه ، من أحلامه وطموحاته ، ويصـبُّ – فَيضَ فِكـره، وعصـارةَ قلبـه ، وزبدة فنّه ، ودفق رؤاهُ وحُلمه – في مُستقبلِ الحيـاة والإنسـان ، أو يتوجـه إلى شـواطيء ذلـك المستقبل باندفـاع ، وماعليـه إلاّ – أنْ يسعى، وليس عليه بإدراك النجاح متخذاً مَن عرض الواقـع بصـدق وفنٍ ، ومن التصويـر والخيـال ، مداخـل للتغيير ومطايـا إلى حصـنَ النفسَ والعقل وإلى معاقل التأثير والاقناع والامتاع ، في سيد الحيـاة وصانعها ، غايتها وضحيتها في آن معاً ، الإنسان : الذي هو المعنيُّ بـالأدب ، والمعني بـه الأدب ، والـذي هـوَ صُلـبُ الحيـاةَ ، والمعنيُّ بالحياة ».

الأدب والسياسة

* وبعد هذا التفصيل في الأدب والأديب ودورهما ، ينتقل بنا الاستاذ علي نقلة فنية بارعة ليحدثنا عن الانسان الأدب – والسياسة ، دون أن يخل بتساوق الموضوع وتلاحمه ، بل ليعمقه ويجلو لنا زواياه ، بل وليظل الإنسان الحرّ محور الحديث وقطب البحث ، على اعتباره أسمى مافي الوجود وأرفع مافي المخلوقات ، حتى إن الله سبحانه وتعالى فضله على جميع خلقه واستخلفه في الأرض كما في الآية الثلاثين من سورة البقرة ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفةً ..﴾ ورغم اعتراض الملائكة على هذا الخليفة . أعزه ونصره وهزم الأحزاب كلها .. والكلام على لسان الملائكة عليهم السلام : «قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ..» وجاءت النصرة من رب العالمين تؤيد الإنسان وترفع مقامه فوق كل مقام ، فقال جَل وعلا يُخاطبهم ﴿ قال : إني أعلم مالاتعلمون﴾ والآيات الكريمة التي تدلل على سمو الإنسان ورفعة مكانه واضحات بينات فإلى كتاب الله العزيز نحيل المستزيد .

وعن الانسان الأدب – والسياسة يقول : « والإنسان في بعض التعاريف – وإن كان ذاك التعريف ضيقاً ومثيرا للإعتراض ، أو محرضاً للكبرياء البشرى عليه – هو – الانسان حيوان سياسي ، بالمعنى الشامل للسياسة ، فهو يسوس ويساس ، ويتعاطى السياسة وتؤثر عليه وتدخل في شؤونه »

إذاً فالأدب لو «شاء الابتعاد عن ساحة السياسة وتأثيرها ، فَقَدَ عوامل ومقومات حيويةٍ هامة تربطه بالحياة ، والإنسان ،

والمعاصرة . وهو لن يستطيع – حتى إذا أراد – أن ينأى كلياً عن سوح السياسة ، ساخنة ، وباردة ، ومعتدلة .. قد يفلح في تجنب الصراع المباشر ،وتجنب التبعية نسبياً ، والإعلانية التي قد تجرها أو تمليها ، ولكنه لن ينجو من تأثير السياسة على الحياة وفي الأحياء وعليهم – فالحياة موضوعه – ولا من أشكال التواصل ونتائجه – سلباً أم إيجاباً – مع خططها وأخطائها ونتائجها ، وممارسات فرسانها وانعكاسات تلك الممارسات عليه وعلى اهتماماته وموضوعاته وآفاقه ».

إذاً لا انعتاق للأدب – والأديب من أحابيل السياسة وشراكها، بل قدر عليه أن يقع أسيراً لها أو أن تعلقه شباكها بطريقةٍ أو باخرى حيث يُعبِّر الأستاذ علي عن ذلك ، فيقول : «ونرانا في ميدان الأدب ، شئنا أم أبينا ، أمام تبادل وتفاعل ، وتواصل وتوغل، بل قل تعارك مع السياسة وفيها ، عبر ساحة علاقةٍ لابد منها بين الأدب والسياسة ، حيث تكون آناً جدلية نافعة ، وآناً ضارةً ، ويبقى الاختلاف في درجة التواصل والتأثير والتبعية ،وليس في مبدأ قيام العلاقة نفسها ».

العلاقة بين الكاتب والقارئ

* تحدثنا حتى الآن عن الأدب والأديب ودوريهما في إعادة صياغة الحياة على نسق أروع وأبدع في مزج خلّاق بين الواقع والحلم . وعن الأدب والسياسة واشتباكهما بل وتعاركهما في تواصل وتوغل حيناً ، وتنافر حيناً آخر ... والآن يحاول الأستاذ الأديب علي عقلة أن يسلط لنا الأضواء على العلاقة الجدلية القائمة بين المنشئ والقارئ اللّذين يُشكلان وجهين لعملةٍ واحدةٍ ،

وبشيء من التركيز ؛ لتبيان دور الأديب أو المفكر ، والمواقع التي يتمترس بها أحياناً ، حينما يخرج عن سنن كونه أديباً حراً يعانق قنن الجبال ، ويشمخ برأسه زاحماً أفلاك السماء فيقول : «و الأديب يتوجه إلى المجتمع ، بل الأدب كُله – مؤسسة اجتماعية أداته اللغة ، وهي من خلق المجتمع – فهو لايهمل القارئ أبداً ولايهمل دوره الذي ينبغي أن يلعبه أمامه وفي تكوينه ، ولاينبغي أن يهمل العلاقة الجدلية التي يمكن أن تقوم بينهما بإيجابية واضحة .

ولايمكن أن يكون الأديب مستغنياً عن القُرَّاء مهما تظاهر بعض الكتاب بتجاوز هذا الهاجس » إذ هم الوجه الثاني له ، بل هم المعنيون بما يكتب أولاً وآخراً ، وإلاّ فلمن يكتب ؟ لايمكن أن تكون عبثاً ، ولاتسلية ، إنه التزام طبيعي تجاه المجتمع ينبثق من أعماق الذات ، الإنسانية السويّة .

فإذا كان قدر الأديب أن يعطي أدباً ، فإن قدر المجتمع أن ينتظر مواسم عطاء الأدب بلهفةٍ وشوق ، لأن «الأدب بذّارٌ للأمل، غرّاسٌ لمشاعر الوعي - شهارٌ لأسلحةِ الحَياة في وجه موت الروح واليأس والتيئيس ، وهو في رسالته تلك لابد له من تواصل مع الناس يبني بهم درعاً تحميه ؛ وانبثاق من معطيات واقع تمتد له جذور فيه تغذيه وتبقيه ، ولابدّ لهُ من أن يقود معارك النّاس ، أو يكذبها لتغيير ماهم فيه .

وهو بهذا المعنى ؛ حاملٌ رسالة إنسانيةً تقدميةً حضاريةً ومستقبلية» ولانعني بالتقدمية في الأدب ، ذلك النوع «العندقجي» الذي تحول فيه الأدب ، أو مايسمى تجاوزاً أدباً ، إلى «منفستو» عقائدي يموج بالغباء ، وينضحُ بالطوباوية ويطفح بالعهر ، فقد ولى ذلك الزمان بحمد الله وإلى غير رجعةٍ .

« إن الأدب عند الناس : كلمةٌ هاديةٌ منقذةٌ ممتعةٌ ، كلمة محشوة برصاص الحق يوجَّه إلى الظلم والقهر والجهل محشوَّةٌ بإرادة حرةٍ مناضلةموجهةٍلكل أشكال الاستلاب والاستباحة ؛ تلك التي تلتهم مقدسات الإنسان . كلمة نفاذة توقظ الوعي وتصنعه وتحرر الإرادة ، وتنير ذلك الطريق المجهول .. طريق السعادة» .

التحدياتُ

* والأدب بهذه الصورة ، وبهذا المعنى ، حاملُ رسالةٍ انسانية تقدمية حضارية ومستقبلية – كما سبق القول – « يخوض من أجلها صراعاً مستمراً على جبهات عدّةٍ ، ويستنهض من أجل الفوز في ذلك هِمماً وطاقاتٍ حيوية :

١ – فهو في صراع ومواجهةٍ مع عوامل الضعف في الذات كي لاتنحرف أو تنقرف . بدوافع وبواعث وعوامل ؛ الإغراء والإغواء ، والاستسهالِ والانبهار ، والضغط والقمع ، والتضييق والاضطهاد .

٢ – وهو في صراع ومواجهةٍ مع الأدب والثقافات والاتجاهات والتيارات الغازية – ولا أقول مع تلك التي تتفاعل وتتلامح وتتحاور باحترام – كي يحافظ على هويته وخصوصيته في عملية التلاقح والتلاقي والحوار ـ التي لابد منها دفعاً للتحجر والانغلاق والتقوقع والتخلف .

٣ – وهو في صراع ومواجهة مع السياسات التي تريد تبعاً وبواقين، وأقناناً ومصفقين . وإعلاميين من غطٍ خاص ، ومعلنين مزوقين في عصر الإعلام والإعلان هذا . ولاترغب السياسات الديكتاتورية في رؤية الأدب إلاّ ساجداً مسبِّحاً مهللاً مكبِّداً –

لمكوتها – وتريد أن يموت دوره الموقظ للوعي بالذات وبالحق وبالحرية لتبقى على حالة (أسواق الاستعراضات الجماهيرية العصرية) حيث لاوجوه بل معالم وجوه ، ولاذوات متمايزة أو متميزة ، بل كتلٌ لحمية متباينةُ الحجوم ، ولاشخصياتٍ لها حسٌ المواطنة التامة أو حقها ، إنّها تريدُ كتلاً هلاميةً عن الجماعات التي يجمعها طبلٌ وتفرقها عصا ، والتي تردّدُ – وتهتف – حتى لو نَعَقَ الغرابُ.

٤ – وهو في صراع ومواجهةٍ مع احتكاراتٍ واقطاعياتٍ حكومية ، مع امبراطوريات رأسمالية وامبريالية وعنصرية ؛ زاحفة على القيم والحقوق والحقول والبشر ؛ على جغرافيا الضعفاء وتاريخهم وحضارتهم ؛ لاتبقي منهم إلاّ أيدٍ عاملة في ممالكها ، وأفواهاً مُستهلكةً لسلعها ؛ وليسَ لهم منْ حقوقٍ إلاّ حق الجوع حتى الموت ، والاقتتال حتى الموت ، والانتحار حتى الموت ، بأسلحةٍ من صُنعها .

٥ – وهو في صراع ومواجهةٍ مع معطيات عصر ومجتمعات نمت الفردية فيها إلى درجة سحقٍ الجماعة ، والأسرة ، والقيم والأخلاق ، والصّلات الإنسانية الخيرة . أو ألغت الفرد إلى درجة إنكار وجوده من حيث هو كائن ذو حقوق وحرياتٍ ونزعاتٍ وذو شخصيةٍ مستقلةٍ ، وصاحب حق في خصوصيةٍ وهويةٍ ، في أسرةٍ وملكيةٍ غير استغلاليةٍ ، في عقيدةٍ ورأي ورؤيةٍ... وقول كلمة في حياة تعاش مرةً واحدةً فقط ، وتمر دقائقها دون أمل في العودة .. حياةً يوقع فيها الموت خطاه خلف خطى الإنسان ، ولابد أن نعيشها ونواجه فيها كل مايخيف ، ونجني شهد السّعادة، لأن ذلك من حقنا ، وهو مايميزنا كبشرٍ عن سائر المخلوقات.

٦ – وهو في صراع ومواجهة مع تقنيات العصر بأنواعها ، مع وسائل الإتصال الحديثة ، تلك التي تريده : مصنعاً مُعلَّباً مسطحاً مبرمجاً ، يستخدم أسلوب الرسائل المرمزة (الشيفرة) ليسهل خزنة واستثماره في مصارف المعلومات ، وليسهل أيضاً نقله وابتلاعه في عصر السرعة».

مايطالبُ به الأدب

* وفي هذا الزمن الرديء ، لم يبق في الساحة إلاّ الأدبُ ، واحداً أحداً ، يواجه التحديات كلها ، بهمةٍ لاتفترُ ، وعزيمةٍ لاتلين، وصبرٍ لاينفذ ، ويحتال للمرور على كل المخافر والحواجز والثعالب ، والقوارض واللواحم «وتراه حائراً في أمر المستقبل .

كيف يقتنص قُرَّاءه؟

وكيف ينعش الإنسانية الضامرة في الكائنات البشرية ؟

وكيف يتلخص ، ويخلص النّاس من سطحية وأضرار تعليب المعلومات ، وتصْنيعها ، وبثها إعلامياً دَعاويّاً – أو دعائياً – ضاغطاً بأحد اتجاهين فقط : معْ ، أوضد ، من خلال الإذاعات المرئية والمسموعة؟

كيف يخلص الإنسان من دوامة استهلاك طاقته وتفريغه ؟

ومن دوامة الركض وراء فرصة عملٍ ورغيف خبزٍ ؟ في عصر الضائقات الاقتصادية والمجاعات والجائحات الكبرى ، وتهديد الجوع، والانفجار السكاني ، وملاحقة كابوس الرعب النووي له ، ذاك الذي عسكر بانتظاره حتى في الهواء والفضاء والكواكب البعيدة ؟» فأين المفر ؟

الأدبُ أجل الأدب ! وأيّ أدب ؟

لقد مل الناس قراءة الأدب المستريح ، وعافوا الكلام الكسيح، وضاقوا ببشارف شعراء البلاط والتحليط والتمسيح . ويئست الجماهير من أدب المجمعات الاستهلاكية ، وترشيد الطاقة ، وأفران كرنشة الرغيف ، ومقامات المثقفين وفق المنهج الرسمي ، والمناسبات الاستعراضية .

- «إنها تريد من الأدب أملاً ومعيناً ونوراً ، وتريده محرضاً وبانياً وثائراً ، وممتعاً ومحرراً مثيراً ؛ يفتح آفاق الحرية والجدة - ويعيد اكتشاف إيجابية العالم وكنوز السّعادة فيه للإنسان ، فيمدّ ذلك المخلوق المتعب بدفق حيوية وحرية وشجاعة ليواجه الحياة والبؤس والطغيان والأسئلة المحرجة - التي تموت على أسلة اللّسان رعباً من سوط الرقيب - وليشق طريق الحياة عريضة إلى قلب المجهول والمرهوب المطلق» .

- إنهم يريدون منه أن ينزع الأقفال عن أجفانهم التي أغلقها الخوف ، وأن يبعثهم من سباتهم في دهاليز الإرهاب، حتى يروا نور الحرية وقدْ سطع على العالم من حولنا وراحت راياتها تخفق في سماء الأمم الحية والشعوب المستيقظة .

- إنهم يريدون منه أن ينزع الأغلال من أعناقهم والوقر من آذانهم التي أصمّها المطبلون والمزمرون في موكب الأمير ، ومولد الأمير ، ومجلس الأمير ، وتبول الأمير ، لأنه على كل شيء قدير .

- إنهم يريدون منه أن يزيح عن أكتافهم كابوس المتسلقين أعمدة مؤممة في جرائد السلطان ، وزوايا الوقف الشرعي في صحف الخلافة الصفراء ، ودكاكين الوعظ والإرشاد والأدلجة والإفساد في مجلات حاكم الخافقين وحامي البلاد .

* ونقلة أخرى مع الاستاذ علي عقلة عرسان ، مع فكره النير ، ورؤاه الخيرة ، تقودنا إلى الحرية والالتزام، بعد الذي قلنا وعددنا ، ففي الصفحة ٩٦ من مؤلفه دراسات في الثقافة العربية ، يقول : «وعلى هذا النحو يمكن القول : إنّ الأديب والكاتب في هذه المواجهة من أجل الإنسان والحضارة والحرية والحقوق الإنسانية، من أجل الحياة ومستقبلها ، لابد أن يكون على درجة من الالتزام ، بل هو حتماً على درجة منهُ. ولكن هذا يوقفنا ، قبل الالتزام عند مفهوم الحرية .

الحرية * والحرية : هي جاهزية الكلمة لدى الكاتب والأديب والمفكر ، أولئك الذين يقفون في جبهة المواجهة المستمرة للدفاع عن الشخصية الثقافية للأمة وعن حضارتها وحيوية أبنائها ، في وجه أشكال الغزو واستلاب واحتلال العقول والإرادات والضمائر، الذي أخذ يحلُّ في عصرنا محلَّ احتلال الأرض .

والحرية ، قد تضمن كمبدأ في دساتير وتشريعات وتصريحات، ولكنها ليست منْ ذلك النوع الذي يحدد نهائياً في إطار أو يحنط في دثار ، لأنها مرتبطة بالإنسان الحيِّ . ولأنها دليلُ حيوية ، لأنها الهاجس والأساس الذي يشغل الكائن الإنسان ، مبدعاً كان أوغير مبدع ، والأساس الذي يمكنه من تطوير نفسه وتطوير الحياة ، لأنها كذلك، فهي تجدد ، وأفقها في اتساع ، وفهمها مرتبط والوعي المعرفي بعلاقة جدلية بناءة.

فالوعي المعرفي يُفتق في سمائها الآفاق ، وهي تدفع إلى التّعمق في مجالاته ، وتعتمد عليه أساسا في تجديد الانعتاق ؛ ولذا فإن الإنسان في نمو وعيه ، وتطور مداركه ، و تقدمه في مراقي المعرفة

والعلم والرقي ، يأخذ الحرية التي تنقصه ، أو تدفعه الحرية إلى القيام بمسؤوليات إنسانية ، وتفرض عليه امتلاك إدراكٍ ينقصه .

من هنا ينشأ نوع من الصدامية بين مفهوم ، ومفهوم للحرية ، ينعكس في صراعات وصدامات بين المحافظة والتحرر ، بين التخلف والتقدم ، بين عقليات وعقليات . وحولها ينشأ نوع من السجال والحوار السياسي، وربما أكثر من الصدام بين الأدب والسياسة/ المثقف والسياسي .

ومن المعروف أنّ حرية التعبير هي الشرط الأول لانطلاقة الثقافة ، ونمو الأدب ، وازدهار الفكر . وكما أنّ الحريّة أساس حياة الفرد وتقدمه وشعوره بمعنى الكرامة والعيش ، وهي كذلك بالنسبة للمجتمعات والأمم ؛ فإن حرية التعبير هي الركيزة التي يستند إليها الإبداع وينبثق منها .

وحرية التعبير عند الكاتب لاتنفصل عن الحريات والحقوق العامة الأخرى للإنسان ، ذلك لأنّ هدف التعبير ؛ إحداث التحرير والتغيير : تحرير العقل وتحرير الإرادة ؛ وتغيير البنى والعلاقات والقيم المختلفة .

وغاية الكتابة ليست شبيهة بغاية الآله ... فإذا كانت غاية الآله : الأنتاج .. فإن غاية الكتابة : حرية القارئ وتكوين وعيه ، وإنماء معرفته وإمتاعه .

والكاتب الحرُّ ، أو ذو الغَرض في قضيّة الحرية ، لايجد نفسه، ولاتأثيره ، ولايستكمل شرطه الانساني والإبداعي ، إذا كان القارىء عبداً وفي معنى العبودية تأتي الأمية أيضاً لأنها استعباد الجهل للإنسان . ولأن إحدى غايات الثقافة : التحرير والتنوير ، وصولاً إلى التحريض على التثوير والتغيير ، بسلاح الوعي والإرادة

الحرَّة . فلايمكن للكاتب ، كما أنه لايريـد ؛ أن يلغـي القـارئ مـن حساباته ، لأن غايته هي الوصول إلى بناء الوعي الإنسـاني بالحريـة وعلى أساس متين منها ، وبناء الحرية واسـتمرار تجـدد آفاقِهـا علـى أسـاس متـين مـن الوعـي . وبمقـدار مايحـترم الكـاتب حرِّيـة الآخـر ويشركه في المسؤولية ، ويقدم إليه إبداعـاً ناضجـاً أصيـلاً ، مُتصـلاً بالواقع ، شامخاً منه وبـه ، نحـو رؤيـةٍ لواقـع أفضـل مـأمول ومرتـاد بمقدارِ مـايؤثر الأدب في الحيـاة والنـاس ، ويتصـل بواقعهـم ويكـون فعالاً بإيجابية بناءةٍ في المجتمع والحضارة .

والحريـة ليسـت كلمـةً مُجـردةً ، وليسـت حريـة خيـوط العنكبوت تطفو على بُعد أشبار من سطح الأرض ، ولاهـي انبثـاق فوضوي في جسم الكلمـة ، وأستخدام فوضـوي أو عدمـي لذلـك السلاح ، سلاح الكلمة، كما أراد الشاعر الفرنسي أندريه بريتون، زعيم السوريالية ، أن يرى في الأدب ، حيث قال معبراً عن مذهبة، السوريالي فيه : «أبسط مظهر للعمـل السـوريالي ، هـو النـزول إلى الشـارع بمسـدس في اليـد ، وإطلاقـه علـى الجمهـور علـى سـبيل الصدفـة، وبقـدر المسـتطاع » .. إنّ الحريـة في الأدب ، وحريـة الأديب ، ودور الأدب ، غير ذلك تماماً .

وحرية الكاتبِ خصوصاً ، وحرية الإنسـان عمومـاً ، ليسـت كلمةً ، وليست نصاً ، وليست حرية كلام فقط ؛ وإنما هـي حريـة مناخ ، أو مناخ يوفر الحرية ويحفظهـا ، ويوفـر لممارسيها مقومـات العيش الحر والتصرف الحر . إنها تتصـل لـدى الكـاتب بالإطمئنـان والإستقرار النفسـي والإجتمـاعي ، وتتصـل بتوافـر حـد أدنـى مـن مستوى المعيشة ، ومن الضمان الصحي والاجتماعي ، تتصل بتوفيرِ شروطٍ للعيش والعمل لايشعر فيهـا المبـدع خاصـة والإنسـان عامـة بأنه مهددٌ بالحرمان – أي شكل من أشـكال الحرمـان – إذا مـارس حريته ، أو إذا خرجَ عن حدود الطريق المرسومة للتفكير والتدبير .

ولأن الكاتب بحكم تكوينه وانتمائه ورسالته وسلاحه ودروه؛ طليعة لمجتمع . ولأن عمله متصل بمصادمة الخطأ والخلل والفساد ، و بالكشف عن مقوم الإصلاح والتقدم داخل أعماق الذات ، وخفايا وظواهر الواقع ؛ متصل بالريادة والاكتشاف لأفاق الإرادة الواعية في ممارسة الكلمة الحرة المسؤولة وإضفاء السعادة واستثمار معطيات العمر والواقع بما يحقق سعادة : هي للذات كما هي للغير؛ للفرد كما هي للمجتمع ، ولأمتنا كما هي لسائر الأمم .. لأنه كذلك ؛ فإنّ عليه أن يكون مستعداً لاستعمال سلاحه في هذه المصادمة ، وسلاحه الكلمة ، والكلمات على حدّ تعبير بريسيبارين pricc parain مسدسات عامرة بقذائفها » فكيف يطلق هذه القذائف إذا كانت أصابعه مشلولة ؟

إن شرط استخدام الجندي لسلاحه هو امتلاكه للسلاح وجاهزيته .

ولكن هذه العلاقة الجدلية الحية والحيوية في بناء الانسان والحضارة ؛ لابد أن تكون محكومة بمنطق ومعطيات تتصل بالناس والحياة والواقع ، وبمصلحة الإنسان والتقدم والحضارة والسعادة . وفي هذا الإطار بفهم القول المعروف – من وجهة نظري – «الحرية تؤخذ ولاتعطى» ويفهم أيضاً القول بأن الحرية ترتب المسؤلية بما يضعها في إطار الإلتزام .

الإلتزام * وأما الإلتزام فإنه محور من المحاور الرئيسية التي . يتمركز حولها الأدب – والأديب ، منذ أن كان قدرٌ على الأديب أن يكتب أدباً ، ووجد آخرون يقرأون هذا الأدب . وأجد لزاماً علينا : أن نميز بين الإلتزام ، والإلزام .. بين المبدع ، والمتكسب . بين الكاتب ، والمستكتب .. بين الأعمى ، والبصير .

هذه الأسئلة وغيرها تقرع عقل المفكر منّا وتلحُّ في طلب الإجابة عنها ، والأستاذ علي يتصدى لها بطريقته الخاصة ، درساً وتفصيلاً ، لأنها من صميم عملنا معاشر الكتاب وقدرنا في مواجهة هذا العصر «ولكن مفهوم الإلتزام – هذا – يختلف من أديب إلى أديب، ومن عصر إلى عصر ، ومن بلدٍ إلى بلدٍ .. وغني عن الشرح القول بأن الإلتزام شيء آخر غير الإلزام ؛ فالأخير يمت إلى القهر بكلّ صلةٍ ، والأول يمت إلى الحرية بكل صلةٍ .

الإلزام : إرادة قوة قاهرةٍ تسحق اختيار الكاتب و «الآخر» وتملي عليه مايفعل ومايقول وتحيله إلى تابع أوبوقٍ .

والإلتزام : فعل إراديّ تتمثله إرادة حرّة مسؤولة ، يدفعها الوعي المعرفي وصدق الانتماء إلى عصر وبيئةٍ وجماعةٍ وأمةٍ ، إلى تحديد موقف الالتزام يقوم على الاختيار الحر، وهو يدفع صاحبهُ إلى تحمل مسؤولية المشاركة في حياة الناس ، وإنماء الحضارة والمعرفةٍ وصنع مستقبلِ الإنسان ، ، والقيام بالتبعات التي تترتب على حر يشارك أحراراً ظروف الحياةِ والعمل والمصير ، ويحرص على أنْ يكون لهم من الحرية ومن تجدد أفقها ماله هو . يعرف حدود الواجب وحدود الحق ، ويقوم بما ينبغي أن يقوم به من أعمال ، وبالتعبير عما يختلج في داخله من مشاعر وأفكار .

والإلتزام ؛ على ذلك ، فعل تمليه الحرية المسؤولة ، والانتماء الأصيل الواعي ، للوطن وللأمة والإنسانية ، للحاضر والمستقبل ، للبيئة المحلية وللأرض كلها في آن معاً حيث يشعر المبدع بالمسؤولية عن النفس والغير ، وعن مصير النّاس والحياة .

وصاحبُ الإلتزام – كما أفهم الإلتزام – ينتمي إلى قيم وواقعٍ معاش ، وقوانين وشرائع ومعطيات ثقافيةٍ وحضاريةٍ تجسدُ معاني : العيش ، والكرامة ، والحرية ، والكفاية .. صاحبهُ يلتزم بالإنسان ،

بالشعب ، بالحق ، بالحرية ، وبالنضال من أجل استمرار الحياة بتقدم ، وقيم الحياة في نماء وازدهار ، بما يحافظ على استمرار الحياة وتوازنها واستعذاب السعادة وتجددها ، وتأمين حاجات الجسد والروح للناس كافة.

وعلى هذا فصاحب الإلتزام معرضٌ للصّدام مع من يسوسون الناس ، ومندوب لهذا الصدام؛ عندما تتعارض الممارسات مع الشعارات من جهةٍ أخرى ومع القيم والأهداف والقوانين والمعايير التي سبقت الإشارة إليها من جهة أخرى . فإنه مُطالب بموقفٍ يُمليه عليه شرف التزامه ، وشرف انتمائه إلى الكلمة .. وهنا تتجلى طبيعة العلاقة بين الأديب والسياسي ، ومن تلك المواقف ترسم تلك الطبيعة ، وتبرزُ الحدود والصِّلاتُ .

ولا بد من الإشارة إلى بديهيات أرى في الإشارة إليها فائدةً ، لتوضيح العلاقة وتحديد طبيعة الصراع أو السِّجال والحوار بينهما . (بين الأديب والسياسي) :

فبعيداً عن المماحكات ، وعن نماذج المتعصبين . وانطلاقاً من التوجيهات والأهداف العامة التي ينشدها الأدب والتي تشكل قاعدة؛ نذهب إلى تلمس نقاطٍ تحدد الطريق إلى تلك العلاقة بين الأدب والسياسة / بين الأديب والسياسيّ ، الأدبي والسياسيّ :

١ - الأديب لايريد، ولاينبغي له ، أن يأخذ مكان السياسي . أو يطالب به وخطابهما مُختلف ، وبالتالي لايوظف أدبه لهذه الغاية ، فيشوهُ صورة شخص أو حكم بقصد الوصول إلى أخذ مكان الحاكم . كما لاينبغي له أن يضع نفسه في خدمة أشخاص لتحقيق الأغراض نفسها. وإنما عليه : أن يقتحم أمكنة الإسهام في صنع القرار السياسي بوسائله ، ليصدع برأي ويثبت موقفا .

٢ - الأديب مهتمٌ بشعبٍ ، ووطن ، ومصير ، بحياة إنسان وقيم ، بعلاقات وسنن وتشريعات ومعايير تواضعت عليها الجماعة وثبتتها الممارسات الديمقراطية .

ومهتم أيضاً بالفرد ، والروح والمشاعر والحقوق ، وانطلاقات الكشف والحرية والمتعة المشروعة في الحياة . مهتم بمستقبل أفضل للإنسان بوصفه مجموعة مشاعر وأفكار وقيم ، ومشروعاً متجدداً لممارسة الحرية وفهمها ، ولاكتشاف السعادة وامتلاكها والارتياح في كنفها . إنه مهتم بالعدل ، والشبع ، والصحة ، وبغياب أشكال الاستغلال والاستلاب مهتمٌ بالتعايش الخلاق مع الكائنات والأشياء. وبالتفاعل الخلاق أيضاً الذي يصنع حضارةً مستجدةَ الأفق من لقاء الحضارات ، ويقيم مجدَ الإنسان على الأرض، وبالتالي فالأديب مهتم بالحاضر في صيرورته ، وبالمصير النهائي للكائن الحيّ ، وبدوره في الحياة نفسها وبكيفيتها . إنه ليس كل شيء في الوجود ، ولكنه يهتم بمقدار يعني كل شيء في الوجود .

تنظيم العلاقة بين الأدب أو الأديب وبين النظام

* ولايمكن إبعاد الأدب عن هذا الدور الذي يجعله بمثابة ضمير حي للجماعة وللإنسانية أو أكثر شرائح ضميرها حيوية وحساسيّة.

والأدب ليس قاضياً بمقدار ماهو حسّ العدالة والحياة .

ولاهو العقل المدبر بمقدار ماهو معيار مرهف لمدى ملاءمته التدبير للإنسان في صيرورة ومصير . »

وعلى هذا فإنّ دور الأديب ليس معارضةَ السلطة لأنها سلطة «بل ضد الممارسات السلبية والمغلوطة والقهارة للقائمين على تلك المسؤوليات أيا كانوا ، أو للعجلة نفسها ، وللارتجال في توجيهها ، إذا سارت في طريق مضادةٍ لمنفعة الإنسان ومصلحته وسعادته وحقوقه .

ولأن الأديب والأدب من حيث المبدأ ليسا ضدَّ مبدأ قيام الدولة وممارسة المسؤول لصلاحياته بما ينفع الناس ، بل ضدّ الإساءات والأخطاء العريضة ، وضد التقصير والإهمال والاستغلال الذي يقوم به المسؤول وضد عدم الكفاءة وعدم الأهلية ضد الفساد؛ أي أنهما – الأدب والأديب – في نهاية المطاف ضد كل مايشوه الحياة والإنسان ويلغي السعادة والحرية والتوق ليعيش أفضل، أو يعطل الإندفاع البشري في هذا الإتجاه .

وإذن فالأدب ليس معارضة مجانية لتحقيق طوباوية إلغاء الدولة والنظام كما يرى طوباويو المادية ، بل هو دعوة لتكامل جهد كل حريص ، سياسياً كان أم مواطناً عادياً ، مسؤولاً أم غير مسؤول ؛ من أجل حاضر وغدٍ أفضل وأسعد .

وهو – الأدب – مواقف مشرفة ، هو خير الجهاد ؛ إن قال كلمةَ حق في وجه سلطان جائر ، وهو المقدرة على إهداء العيوب لأصحابها ليقوموا بالإصلاح ، وإهداء الصورة الأجمل والأحسن للمجتمع ، ليقوم الأفراد جميعاً بتقويم الخطأ في الذات وفي الواقع وصولاً إلى الأسلم » .

«إن الأديب والأدب عندما يعارضان ويهدمان ويفضحان ، ويوجهان النقد المرير للممارسات والأشخاص والأوضاع والواقع . وحين يندفعان ليعيدا وقع الحياة الصحيح وبناء الإنسان السليم ؛ ليسا على الإطلاق وبالضرورة هدامين مخربين يصدران عن جهلٍ أو أغراض أو فساد كينونة وتكوين ، ولا لأنهما يكنان عداوة أو استصغارا للمسؤول والسلطة ».

الأدب والأدباء «لايعملان بشكل مطلق (كما يحبُّ بعض الساسة أن يرى – إلى جانب الأعداء والمناوئين ، مع استثناء دور المتعصبين أحاديي النظرة ، وأولئك الذين يغرسون جذورهم

ويستمدون محركات إرادتهم من خارج تربتهم الثقافية والحضارية والإجتماعية والقومية) ليس الأدب ولا الأدباء كذلك بالضرورة ، كما يحبُّ بعض المسؤولين والسياسيين ورجال السلطة أن يقولوا ، إذ هو انتماء لأرضٍ ووطنٍ قوميةٍ وواقع اجتماعي في حدود تاريخ وجغرافيا ، ويرتب عليه هذا الإنتماء دوراً إيجابياً .

١ – فالأديب ، ليس بالضرورة – أن يكون – مُعايشاً لمشكلات الواقع معايشة أعمق وأدق من معايشة المعنيُّ بكل مشكلة من مشكلاته أو المسؤول عنها ، وليس المطلوب منه أن يقف على الصعوبات التي تعترض حل كل مشكلةٍ ، ولذلك فهو حين يناقش ، أو يعترض ، أو يصور أو يحلم : فإنه إنما يستفيد من تجربته الإنسانية الغنية ومعرفته بالنفس البشرية ومن قدرته على سبر أغوار النفس والواقع ، واستخلاص نتائج قابلةٍ للتعميم من ذلك الواقع ، بما يملكه من حس سليم وبصيرة ثاقبة وملاحظة دقيقة .. الأمر الذي يمكنهُ من إجمال مشكلات الواقع التي تنقلب أمامه إلى معاناة ومثبطات تؤثر سلباً على الإنسان وتمنعه من استشعار الحرية واستعمالها ، ومن الإحساس بالسعادة ، ومن مباشرة العمل بإيجابية ، والإقبال على العيش بفرحٍ ، وبثُ الموثبات في جنبات الروّح ، – خاصة – والأديبُ معني بخلاصات ونتائج ماينعكس على الإنسان وعلى الحياة .

٢ – الأديب معني بالسياسة كفردٍ في جماعةٍ ، وكطليعةٍ واعيةٍ مسؤولة في أمةٍ ، وكإنسان حرٌ في مجتمع حر لكل فرد فيه دور، وحق ، ومكان . وهو معني بالممارسة الديمقراطية وبحريات الإنسان وحقوقه .

٣ – ولايمكن للأدب والأديب أن يلعبا دوراً إيجابياً في تطوير عمل السلطة وممارستها وانعكاسات ذلك في القضايا المصيرية وعلى الناس والحياة في دولة أو امة .

لأن الأدب والأديب يضعان مايقدمان من جهدٍ ورؤيةٍ و كشفٍ وثروةٍ معرفيةٍ، وشجاعةٍ وإبداع في خدمة الحياة والناس ، عن طريق الإنتاج المثير لقوى الخير والمحبة والحياة والاستمرار والتطور في الإنسان .

٤ – والأديب، في الإنتاج الأدبي، حين يُعري مثالب الواقع ، ومعايب الأشخاص والعلاقات، والقيم المريضة السائدة في المجتمع ، حين يفتح العيون والبصائر ، ويفتق آفاق التفكير الحر والنظر الحر والرؤية – السليمة – ويقدم مايساعد على بناء النفس وازدهار المجتمع ، فإنه حين يفعل ذلك : يكون عوناً للسياسي على أداء مهامه ، وعيناً له تدله على مواطن العلل والأدواء ، ليقوم – إذا كان سليم القصد والقدرة والنظر – بتأدية خدماتٍ للناس والحضارة والحياة ، وليصنع ازدهاراً لسلطته يدخله التاريخ المشرف .

٥ – والأدب والأديب ، على هذا النحو ، يكونان في خدمة السياسي ، مادام هو في خدمة الحق والشعب والوطن والقضايا المصيرية للإنسانية ، و مادام مخلصاً للقيم السامية وحريصاً على دور الثقافة في تكوين الإنسان وازدهار الحضارة .

وعلى السياسي أن يحسن الاستفادة من عون الأدب والأديب، وأن يُحَسِّنَ شروط أدائهما وتأثيرهما بالتركيز على خلق مناخ حرية التعبير – شرط الإبداع الأول ومناخه الأفضل – وأن يرفع درجة الشعور بالمسؤولية ، وإشعار الكاتب بأنه يُشارك في

صنع القرار بما يكتب ، ويتحمل مسؤولية كل كلمة حيال التاريخ والشعب ، وحيال الواقع الذي تسهم الكلمة في صنعه .

والمسؤولية هنا أدبية لاجزائية ، مسؤولية أخلاقية تجعل الكاتب أكثر انتماء وصدقاً وبحثاً وموضوعية ، وتجعله أكثر التصاقاً بالواقع ، ونشداناً للحُلْمِ الممكن ، الذي يسعد البشر ، لا أفراداً منهم. والحُلْمُ مدخلٌ أو أحد المداخل لتغيير الواقع .

٦ – السياسي معني بالأدب والأدباء ؛ لأن الثقافة هي أفضل وأرقى جهدٍ بشري يحتاج إليه الإنسان ، والإبداع الأدبي والفني ، تاج الثقافة الأنصع .

ويهم السياسي الواعي أن يضفر هذا التاج فوق جبين عصره وبيده هو ، ويعرف أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، وأنَّ واجبه كحاكم لايقتضي منه أن يقدم للشعب خبزاً وسجوناً وبنادق ، وخطط تنميةٍ طموحةٍ لايكون الإنسان والوعي في الإنسان رائدها وعمادها . إنما ينبغي على السياسي أن يقدم له بالدرجة الأولى ؛ علماً ومعرفة، وأدباً ، وفناً، نوراً ويقيناً ، تقوم على هديهما أسس بناء الحياة والشخصية، وأسس الاستمتاع بالحياة ، ينبغي أن يقدم له ثقافة إنسانية النزوع والأهداف ، هي أسمى ماتنتجه البشرية وتبقيه وتورِّثه أجيالها ، وخلاصة كل تقدم وتاجه وحصيلته ومعياره.

٧ – والسياسي معني – أو ينبغي أن يكون معنياً – بالحياة وبسعادة الناس وبتطور المجتمع ومصير أفراده وأسره ، وفئاتهم ، وظروف عمل كل منهم . ومستقبله ، وكذلك بمصير البلاد وبمستوى نموها .. وبذا يلتقي مع الأديب ، أو يلتقي مع

الأدب ، أو يلتقي معه الأديب في اهتماماتٍ إنسانيةٍ واجتماعيةٍ وثقافيةٍ مشتركةٍ ، وفي نقاط تشكّل تلاقي الطرفين، الأدباء و الساسة | الأدبُ والسياسة ، فيما يمكن تسميته | بوحدة الأضداد| حيث يجدون أنفسهم يعملون لأهداف مشتركة أو على طريق قد تتقاطع أو تتوازى».

٨ – «ولابد للعلاقة بين الأدب والسياسة | بين أديب وسياسي ؛ من أن تتداخل وتتقاطع ، ولابدَّ من أن يحدث صدام آناً وتوافق آناً . والأمر أولاً وآخراً منوط بمدى انسجام الأقوال والأفعال العائدة لكل شخصٍ مع المعايير والأسس والقيم الناظمة لخلوص الشخص وإخلاصه لقضايا الناس ، وقيمهم ، وحرياتهم . منوط بأشخاص الأدباء وأشخاص الساسة ، وبمدارك ووعي والتزام كل منهم بمناط الالتزام وأهدافه في الأدب – كما أفهمه – وبمناط السياسة وغاياتها في الحياة والمجتمع وكذلك بتفهم كل منهم وتقديره لدور الآخر ومسؤولياته وموقعه ومكانته وحدود وجدوى مايفعل .

٩ – وعندما يعترف كل من الأديب والسياسي للآخر بالحق التام بالمواطنة ومسؤولياتها و بأن معيار التفوق والفضل يميل إلى صالح من يؤدي خدمة أفضل – من موقعه – للحياة والناس والوطن .

عندما يحترم كل منهم الحريةَ وحق الوجود والإختلافَ بالنسبة للآخر، ويدخلون الحلبة متقيدين بقوانين (اللعبة البشرية) في التعايش الاجتماعي الذي يحفظ حقوقاً ويرتب واجبات متساوية للمواطنين أحراراً وعليهم في وطن حر .

عند ذلك يستطعون الدخول في حوار وصراعٍ وسجالٍ في إطار إنساني بنّاء يحكمُ جُهد كلٍّ منهم ويوجهه . عندئذٍ يستفيد كلٌّ منهم من الآخر ، ويعترف بفضله ، وتصبح العلاقة على أرضيّة المواطنية والإنسانية

صحيحة ، حيث : يرفع الأدب شأن رجل دولة أو حاكم ، أوسياسي ، أو سلطة لأنه يستحق أن يُرفع ويخلد في صفحات مجد الكلام المكرس لما جد الأفعال .

ويرفع السياسي أو السلطة شأن كاتب أو أديب لما يقدمه من خدمات للأدب والوطن والشعب والحياة ، وهو بذلك يعلي إرادة الشعب وشأن نفسه ، ويرفع سلم الثقافة والأدب درجة في مراقي حضارة بلاده ، والحضارة الإنسانية . ولايسمح أي منهما أن تنقلب العلاقة بينهما إلى تبادل المنافع والمدائح والتكريم على حساب المجتمع والقيم على حساب الأدب والسياسة . وإنما يحتكمان إلى معيار واضح للقيمة ، وهو منفعة الناس وبناء الحياة وازدهار الثقافة وتوطد القيم ».

اضطراب العلاقة بين الأدب والسياسة * أما إذا اضطربت العلاقة بين الأدب والسياسة ، بين الأديب والسياسي ، وانقلبت وحدة الأضاد إلى تنافر الأضداد «فإنها تنقلب من طرف السياسي تجاه الأديب إلى :

- تكريم مادي ومعنوي ،لقاء تمجيد ومديح ودفاع وتأييد على أي أساس كان ، أي تبادل سلع ومنافع ،حيث يدفع الحاكم من جيب غيره ليدفع شأن نفسه على حساب سلامة القيم »

ومن طرف الأديب تجاه السياسي إلى :

- مداجاة ونفاق ورفع لمكانة شخص أو حُكم ، بإفساد مكانة الكلام ومصداقيته ، ويتم ذلك على حساب القيم والحقائق ،لقاء حظوة ونقود ، أي تبادل سلع ومنافع .» حيث يدفع الأديب ـ وأشك بأصالته وأدبه ـ من ماء وجهه ونبض قلبه .

- فالسياسي يبيع ، ويقبض ، ثم يذهب ، وينمحي بسرعة من أذهان الناس .

والأديب يعطي ويعطي ، ليظل باقياً في ضمير الأمة وتراثها ، ووجدان الناس.

- السياسي ينبته الطفرة والمصادفة والأسمدة الكيماوية والبيوت البلاستيكية .

والأديب ينبه الواقع الطبيعي والفطرة السليمة ليعيش ويبقى ويثمر .

- السياسي يحمل دولارات الناس ويولي .

والأديب يحمل هموم الناس ويبقى .

«والخاسر في هذه اللعبة الأدب والسياسة خصوصاً ، والثقافة والشعب عموماً ، لأن قوة صنع الحياة وتوجيهها وتكوين طاقة الإبداع والخلق فيها - هي - في تزاوج السيف والقلم ، والرأي والقرار » وللأسف أصبح في هذه الحالة المريضة فاسداً عفناً

« إن إبطال دور الأدب في الحياة ، ، وإفساد مناخ ـ إبداع ـ الأدباء وأدائهم ، وتشويه مصداقية الكلمة على الصعد الإجتماعية والثقافية خصوصاً ،من الأمور الملحوظة في فترات التردي السياسي ، وفي فترات الطغيان وعهود الديكتاتوريات .

- فحينما لاتكون السياسة استيعاباً حكيماً لمعنى السلطة وممارسة المسؤولية والتحكم بالقوة والطاقة .ـ

وحينما لا يتمتع السياسي بوعي واحترام تأمين لحقوق الآخر ، ولدور الحرية ومكانتها في الحياة

- وحينما تتضخم أنانية ـ السياسي ـ أو شعوره بالعظمة ، ولا يرى صالحاً إلا رأيه ورؤياه :

حينئذ يدمر مقومات عديدة تصنع التطور وتثري الحياة ،

ويؤدي فعله ذاك إلى ضمور الأدب والفن ، والى غياب تأثير الإبداع بل إلى غياب الإبداع نفسه » ونشوء طفليات وعواسج معتاشة على هوامش الأدب تطبل وتزمِّرُ للحاكم العظيم وحزمة البرسيم ،

فيظلم كل شيء وتطفو على سطح المجتمع عينات رديئة ليست منه تعيث فساداً ،فتنتهك الحرمات وتدوس المقدسات ، فتشوه الوجوه ، وتهرب البسمة عن الشفاه ، وتتقوس ظهور الرجال ، وتجهض النساء ، ويختنق الأطفال ، وتسقط الشمس على الساحات مشانق سوداء ، فيدخل الشعب غياهب السرداب ، خوفاً من الكلاب وصوله الذئاب ، وتنتهي الحياة .

« وظاهرة احتكار الحياة من قبل بعض الساسة ، ظاهرة انتسابها وانتساب كل ما فيها اليهم ، ظاهرة بارزة في تاريخ البشرية ـ من فرعون الحاكم الإله ، إلى اقطاعات الدولة في أكثر بلدان العالم اليوم على رأسها بلدان العالم النامي ، مروراً بالملك الشمس القائل : أنا الدولة . وكثيرون منهم يتصرفون على أنهم ملاك كبار لكل ما في الدنيا ومن فيها ، وهم يتوهمون أنهم يمنحون الناس ، كل الناس ، الحياة نفسها ، وكل ما يبقي عليها ، وأن بيدهم انتزاعها متى شاؤوا ، ويعتقدون أن لهم الحق كل الحق في ذلك .

وهم يذكرون أنهم مؤتمنون على مصالح وقضايا ومصائر الناس والأوطان ، ولكنهم لاينطلقون في الممارسة من مبدأ احترام حق كل مواطن في أن يبدي رايا في المؤتمن وممارسته . ويتصرفون على أساس أن المواطنين أقنان في أقطاعية آلَ ملكها اليهم ، ويحل الشعب محل الله الواهب الغائب عن بصرهم ، وبالتالي فاسمه شعار، وحق، مهدَّر أيما إهدار .

ويأتي غياب الديمقراطية ليثبت اغتصاب السلطة ، والغياب والإغتصاب جرّا السياسي إلى الاقتناع التام بالحيازة الإقطاعية النموذجية: حيث يملك المالك الأرض ومن عليها .

وهكذا يعيدنا بعض الساسة إلى عهد القنانة باحتقارهم للإنسان ، وإلغائهم للحقوق والحريات .. فيجدون أنفسهم في مواجهة وصراع حادين مع الثقافة إجمالاً ، والأدب تخصيصاً ، لأن سلاح الكلمة يوقظ النائمين ، ويغرس الوعي في النفوس ، وينمي الإرادات ، ويستثير الشعور بالكرامة والمساواة ، وينفخ ريح الحرية، وبالتالي يفتح جبهة على السياسة / على السياسي لايريد أن تفتح ، هي جبهة الوعي الشعبي بماللشعب وما عليه ، وبما للحاكم وما عليه، ويحيل الوعي والحاكم الإقطاعي المالك إلى أجير عند الشعب، ومسؤولاً أمامه عما أوتمن عليه ، يحاسبه كعامل بأجر ، لاكمالك للدهر .

لهذا ـ كله ـ نرى حال الثقافة في الأنظمة الديكتاتورية /الطاغية/ حالاً بائسة ، ونقف على ابتكار في أساليب قمع الأدب، واضطهاد الأدباء والمثقفين ، والتضييق على الحريات ، وفي مقدمتها حرية التعبير . ونقف على المحاولات المتنوعة ـ ذكية وغبية ـ لتفريغ الأدب من محتواه النضالي والإنساني ، من القيمة وما يشكل القيمة، ومما هو بنيوي فاعل في تكوين الشخصية الثقافية للفرد والشعب وتثويرها وتحريضها على التغيير .

وفي ظل مثل تلك العلاقة تظهر أساليب المواجهة والمعاصرة من الساسة للأدب والأدباء باسم الشعب والقيم والحق ، وباسم القانون ، وتشتد وتائرُ الرقابة والمنع ومن ثم الملاحقة والعسف . وهنا ... يدخل الأدب ، تدخل الكلمة ساحة الصراع الماجد وتجد شجاعتها وسلاحها ، ومبررتغذيتها بالدم والتضحيات .»

وتتبع بعض السياسات أوبعض الساسة « وسائل أخرى أكثر لياقة ، وأشد خطراً وربما أكثر ذكاء لإبطال مفعول الكلمة ، وإلحاق العقم بفاعلية الأدب ، ومنع تأثير الثقافة ، ومن تلك الأساليب :

١ـ ترويج سوق العرض والطلب ، لتسقطَ أقلام وتشترى ، فتكتب حسب الطلب ، وتغرق بالمال فتغيّر طريقها ومقامها ، وتصبح تابعة أو بالعه . وهي على الوجهين لاتتمكن من أن تلفظ كلمة حق ، وينتصب ما يعلى عليها قوله ، خداعاً أو فزعاً ، في طريق الشعب والحق والحرية .

٢ـ التوجه إلى السطحية تحت ستار البساطة ، والى استهلاك المواطن ووقته وطاقته ، وامتصاص نقمته واحتجاجه ، بـاجراءات شكلية مفتعلة ، إلى تنفيس غضبه ، وتدجينه ، بدلاً من تفجير طاقة الغضب البناء لديه .

٣ـ تقديم ما يثير غرائز الإنسان ، أو يُعَيّشه في دوامة من الافتعالات، وانفعالات العشوائية ، بعيداً عن كل توظيف هادف ـ للأدب ـ لتعزيز فكرة ، أوتطوير بذرة موقف ، وعرض أشكال الثراء والشخوص المريضة النفوس ، وقيم المجتمعات الإستهلاكية ، عرضاً مجانياً لأغراض البنيوية الأخلاقية والثقافية والإجتماعية .

٤ـ افتعال واصطناع تيارات و«صراعات» شكلانية ، وإغراق الأدب في شكليات وفي إبهام أو إغلاق يميت تأثيره في الجماهير، حيث لايؤدي إلى إقناع أو إفهام أو إلهام ، بل يبعث على الإحجام عن التعامل معه ، والانصراف إلى سواه ، تخلصاً من حرج ، أو بحثاً عن شكل من أشكال الفرج .

وغالباً ما يجد الساسة طريقهم إلى ساحة الأدب والأدباء ، فوسائلهم كثيرة وإمكانات تأثيرهم عديدة .... ولكن الإحاطة بدنيا الكلمة ، وإخضاعها كلياً للأسر أو لإرادة من يريدها تابعة أو محجوبة التأثير عن الجماهير : من المستحيلات .

فالكلمة الموقف ، والكلمة السلاح ، والكلمة المنقذة الهادية المحررة ، تجد دائماً طريقها إلى النفوس ، فتنعشُ ميتها ، وتبعث إرادتها وكرامتها ، وهي تبقى عوناً للبشرية في نضالها المرير من أجل المعرفة والسعادة والحرية ، وتبقى مرشداً للسياسة ، ومناراً يهتدي به السياسي إذا أراد مناراً في ليل إغواء السلطة ، وهي بالتالي ، صانعة الوعي ، ومجددة الإحساس بمعنى الحياة ، وبمعنى الكينونة والصيرورة فيها ، على أرضية من حرية تصنع مجد الإنسان على الارض »

فإن وَجَدَتْ كلماتي الطريق إلى ضمائركم ، فحركت فيها قبساً من نور ، من خير أكون قد نجحت في أن أفي أخي وصديقي على عقلة عرسان حقه ، وحسبي هذا .

توطئة لتكريم :

يُسعدني أن ألتقي بهذه الوجوه النيرة ، في مناسبة عزيزة على قلوبنا، ومدْعاةٍ لفخرنا واعتزازنا ، هي حفل تكريم الشاعر المبدع عبد السلام محاميد ، الذي نالَ الجائزة التقديرية الثانية على مستوى الوطن العربي ، للعام ١٩٩٤ م، المقدمة من مؤسسة الأميرة الشاعرة سعاد الصباح ، لأفضل مجموعة شعرية ، وبعد :

«وفي الروح متسع للصهيل» هو عنوان المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة التقديرية الثانية التي نوَّهنا عنها ، للشاعر المحتفى به عبد السلام محاميد .

هزني النبأ .. وأسكرتني نشوة الفوز .. فهتفت فوراً لعبد السلام مهنئاً بالانتصار .. وغرقنا للحظات في دردشةٍ حميمة .. حلّقنا خلالها إلى شرفات دعةٍ ورديّة الرؤى ، معطرةِ الأجواء ، مخضلة الأديم .. انتهت بموعدٍ ، فلقاء .

جاءني عبدُ السلام بخفة طفلٍ أطارت هديَّة صبيحة العيد لُبَّهُ .. تركض الفرحةُ على وجهه .. وتورقُ الابتسامة على شفتيه .. وتومضُ عيناه ببريقٍ هائلٍ يُبشر بمواسم واعدةٍ ، ووكفٍ غزير ..

بريقٌ عميقٌ يوغل بعداً كلما أنعمت النظر في محجريهما المسكونين بأطياف الدهشة والاغتراب .. يحتضن مسوداتِ مجموعته الفائزة ، والتي لم تُطبع بعد .. لامن قبله . فهو لايكاد يحصل على قوت عياله إلاّ بشق الأنفس .. ولامن قبل أيّة مؤسسةٍ ثقافية أو اعلامية تأخذ بيد المبدعين .. نظراً لإنشغال تلك المؤسسات وعلى مدار الفصول ، بطباعة صور الفنّانات والمغنيات والراقصات ، اللّواتي يُشرّفن الوطن بقدومهن وقدودهن .. مضحياتٍ – مشكورات طبعاً – براحتهنَّ للترفيه عن العاملين ، والعاطلين ، من جماهير شعبنا الغفورة .. بارك الله جهود تلك المؤسسات على ماتبذله من جهود وجزاها عنا كل خير ..أكتب ياعبد السلام !!

وضعَ عبد السلام ، الشاعر الطفل . كنزه الثمين على مكتبي، بحنان ولهفةٍ منقطعتي النظير ، كأم رؤوم توسِّد وليدها سريرةً .. ورمقني بعينين ذا هلتين . تجمعت فيهما طفولة العالم كلّها .. أدركت مابعينيه من لهفةٍ .. إنه يوصيني برعايتها والسهر على راحتها .

طمأنته بأن مسَّدت بكفي شعرها الأسود الحزين .. وربتت يدي على خديها الشاحبين .. وجرفني بعد ذلك طوفان فرحه .. و لم يعصمني من الغرق إلاّ رنينُ المهتاف :

ألو ... أبو عصام .. تحياتي .. أنا أمّ نزار .. رجاءً أبلغ أبانزار .. البيت

يغصُّ بالضيوف .

حاضر .. تكرمي .. مسافة الطريق .

وغاب عني .. وتركني وجهاً لوجه ، مع مسودات كنزه الثمين .. أقلّبها ذات اليمين ، وذات الشمال .. أحدق بجملةٍ هنا ، وتستوقفني فاصلة هناك .. ووجدتني أتجول وسط غابةٍ من الأفكار المتدفقة المشتجرة .. أركض «على الحروف المشتعلة ، كأنني أركضُ على جسرٍ من أعواد الكبريت ، كلما لمست عوداً تفجر .. وفجر غيره .. وحين انتهى الليل ... وانتهيت من قراءتها ، شممتُ في حُجرتي .. وفي ثيابي ، رائحة غريبة » رائحة شاعر يحترق .

لا أكتمكم سراً ، خضت .. وخشيت الفضيحة فأنا المشبوه الأول في كل زمان .. لأن مهنتي إشعال الحرائق على دفاتر الكتاب ، في مفردات الشعراء ، في ضمائر العباد .. خشيت أن يكتشفوا في محترفي جثة الجمال .. أو أن يشموا رائحة جنازة العطر .. فعيونهم دائماً ورائي .. وكلابهم دائماً تقتفي حذائي . فوجدت لزاماً علي أن أخفي معالم الجريمة .. وأن أدرّئ الشبهات .. فتركت سنان قلمي يمارس العبادة على صفحات الورق ، ويغتصب بكارة السطور العذراء .. علني بذلك أداري خوفي ، وأهربُ من التهم الملصقة بي سلفاً ، وأقنع الشاعر ببراءتي على الأقل .. فماذا كتبت ؟!

«لأنثى التشكل والجلنار »

شعر : عبد السلام المحاميد

تدورين ياقبضة الموت ،..!

لاتشتهين دمي ..

مطلقٌ في الرحيلِ إليكِ .

تراودني بَحمةٌ ...

سقطت في مهب الجنون ،...

احتوتني ،

وراحت تُبعثر ماجمع القلبُ ..

من أمنياتٍ...

لهنّ اشتعالُ الغمامِ...

على مرفأ من نضارْ

إنّه القحطُ ،....يورق في رعشة القلب ،....

في كلّ ماحولنا من جلالٍ مهيبٍ ...

يراودنا ....

عن سماء تضللنا ،....
وأرض تكفننا
يغنّي القصيدة لحناً هزيلاً ،...
يغني ،...
ويرفو الحروف ....
بأنثى التوحد والانشطار
تدورين ...
إذ تصهلُ الريحُ فينا ،...
وحلم المساءِ يشيخُ على مرفقٍ ...
يحمل البحر نبضاً ،...
يهدهد كلّ الجراحات ،...
والأمنيات التي ...
وزعتها يداك ..
فكنت الأثيرة .....
حين انتبهت من الجرح
كان لوجهك هذا الحضور البهيّ ،..
البلادُ على ساعديكِ...
ابتداء المسافة بيني وبينك ..
يامن زرعت الطريق ..
خطى وانتظار
أنت يامن أبحت دمي ..!

وردةً ..
وردةً
وارتشفت الرحيق الجميل ....
على سفح أغنيتي ..
آن أن تحملي الطين ..
علىغفلة من دمي
نحو مايشبه الحبَ ،...
أو مايشبه الانتحار ...
لعينيكِ هذا الهديل .....
وماجمع القلبُ من أغنيات
سنقتسم الليل مابيننا ،...
ثم غضي إلى حانةٍ من فضاءٍ شهيٍ،...
نعمد ماضيعته يدانا
كأن الزمان زمانك ،...
لم أبلغِ الحلم ،...
كنتُ اشتعالك ...
حين ارتقيت القصيدة ..
أترعت كأسي ،...
فشكلني الحزن والأرجوان
كنتِ في البال لحناً شجياً ،...

فعمدّ تلكِ الحروفَ ،..

كان اشتعالي ..

نذير التوحد بين يديك ،..

و كنتِ الرهان

يا التي ضيعتني ،...

وراحت تساءل عني الفصول ..

سألتك أن ترجعي ..

كنتِ وهماً ،..

و كان الدخان رؤى ...

قلبُ أغنيتي الآن ينبض ،...

صاردمي مشعلاً ،

يحملُ الخصبَ ،..

يحشدُ كلّ البراري ،...

لأنثى التشكل والجلنار

تدورين ..

هامطر أخرس ينقر القلب ،..

لو أستطيعك حبّاً ،...

دلقتُ دمي ،..

واستعرت القصيدة ...

لكنني تهت في مطلقي ..

صرتُ غيماً ندياً...
رأيت اليباب ..
يداهم وجه المدينة ،..
يحثو الخراب على وجنتيها وبعضي ..
غبارٌ ،...
غبارٌ ،...
غبار ...
لكلِّ الجهات الغبارْ
يمتطي نجمة الوقت ،..
يدخلُ عبر الزمان الأخير إليك ،..
يعرّي الفصول ويهوي ..
ليمطرنا ...
غربةً وانكسار .

الغربة والانكسار في شعر

عبد السّلام محاميد

الغربةُ والإنكسارُ .. وترانِ مشدودان . مأزومان ، عبر مسيرة كلِّ القصائد الشعرية ، في ديوان عبد السلام محاميد .. يعزفُ عليهما مِزَق نفسهِ المغتربة ، نبضاتِ قلبه المكسور ..

ويحاولُ عبدُ السلام جاهداً في كلِّ مايكتبُ ... أن يبحث عن غربته في طيّاتِ اغترابه ، وعن انكساره في صدى هزائمه .. فلا الاغترابُ يَنفيه ويفنيه .. ولا الهزائم تُقصيه وتنهيه .

أبداً .. بل يظلُّ صامداً يرتشفُ شقاءه بيديه .. يظلُّ واقفاً يحمل نعشهُ على كتفيه .. كالأشجار مُنتصباً يستشهدُ عبدُ السلام .. بين شذى الكلمات ، وعطر الحروف ، وانتحار سنان قلمه في ضمير الورقِ . ولحم السطور .. لتضفر جميعها على هامته . وهامة شعره إكليلاً للإنتصار على الهزيمة ، على الاندثار ، على الفناء ، على الموت .. ويستمر متمرداً أقوى من سلطة الموت .

فما هَمّهُ من الموت ، وقد أعدَّ شعره لمعركة الحياة ؟! ولم يهتم بقبضة الموت ، التي لاتقوى حتى على اشتهاءِ دمه ؟!

أوليس هو قاهر الموت ، وصانع الحياة ، في كل حرفٍ يُطهر وجع الورق؟!

أو ليس هو مدبرُ مسيرة الأفلاك في مجرات قصائده ؟!

أو ليست أشواق يراعه تداعب النجوم .. وتفزع تهدداته أشعة الشمس ؟!

فليقتحم المطلق إذاً .. ولتسقط ، الأحلام في عصف الجنون رحيلاً إلى قبضة الفناء .. ولتبعثر ما ارتشح في قلبه من أمنيات جسام على دروب النجوم .. أمنيات وضيئة تشعل الآفاق شوقاً .. يطوي قلوعه في مرفأ من نورٍ ، هذا ماتهمسُ به وشوشاتُ الموسيقى في مطلع قصيدة أرادها الشاعر «لأنثى التشكل والجلنار» :

تدورين .. ياقبضة الموت !...

لاتشتهين دمي .

مُطلق في الرحيل إليك ..

تُراودني نجمةٌ ..

سقطتْ في مهبِّ الجنونِ .

واحتوتني ...

وراحت تبعثر ، ماجمع القلب

من أمنيات...

لهنَّ اشتعال الغمام،

على مرفأ من نضار..

فياهذه !! .. ويا أنت التي في البال !! ظلّي كما أنت [illegible]

مطولاً ، وأمنيةً لاتتحقق .

وأنت أيتها الرؤى العسجدية .. ياربيبة الروح [illegible]

ويابنت الخيال الكسيح .. ظلي كما أنت .. وعاندي .. وتأبي .. فما زلت وسأظل قادراً على النزال . اشتعلي أنتِ ، أيتها الأمنيات .. كما تشتعل الأشواق على سواحل الغروب .. كما يشتعل الغمام في مرافئ النور بألسنة من نضار ... فإنك غير قادرةٍ على أن تحرقي القحط الذي أخذ يُورق في رعشات القلوب في كل ماحولنا .. ذلك القحط الذي أنشب أظفاره في كل شيء جميل .. وحطم جميع الأماني العذاب التي تشرق في النفس وتضيء أعماق الروح .. ويحاول أن ينتزع إيماننا . ويقتلع سطح السماء النحاسي الذي يشوي جلودنا .. ويزلزل رحم الأرض العقيمة لتلتهم أجداثنا .. كل ذلك دون أن يرف له جفن ، أو أن تخفق فيه جارحةٌ ، فنَضِلَّ تائهين ، لاسماء حفظت ، ولا أرضاً ضيعت .

ذلكَ القحطُ الذي اجتاح كلّ ماهو خيّر وجميلٌ في حياتنا .. وسطا بجبن ونذالةٍ على أسرار النفس وخبايا الروح .. وأخذ يمزق أوصالِ القَصائد ، ويُعرِّيها من كلّ لحنٍ جميلٍ ، ويحيلها قاعاً صفصفاً مهلهلة النغم ، ممزقة الحروف ..

يشطرها إلى نصفين اثنين . كصخرة موسى بسيناء ، بعد أن كانت رمزاً للتماسك والجمال والتشكل والجلنار .. فلنستمع للشاعر حيث يقول :

إنهُ القحط ..!!

يُورقُ في رعشةِ القلبِ ،

في كلّ ماحولنا من جلالٍ مهيبٍ ..

يُراودُنا ..

عن سماءٍ تُضلّلنا

وأرضٍ تكفّننا ..

يُمنّي القصيدةَ ، لحناً هزيلاً ..

يُغني

ويرفو الحروفَ

بأنثى .. التوحّد والإنشطارْ ..

آه منكِ !! أيتها الـروح المستحمّة في دمـاء القصـائد المجرّحـةَ بالعذابِ !

آه منكِ !! أيّتها القصائد الهاربة مـن وجـع القلـب ، وجحيـم الروح !

افترشي أبجديتي المخرقةَ .. وحـروف كلمـاتي المرفـوة بمدامـع أُنثى التوحّدِ والانشطار .

افترشي صهيل الحلم في رياحِ قصائدي .. وأنت تدورين بـين أجـزاء النفـس الـتي تتماسـك حينـا ، وتنشـطر أكـثر الأحـايين .. واجتازي مساحات الدهشة والانبهار في مفـاصل حـروفي ، قبـل أن يشيخ المساءُ ويتكيء الحُلم على مرفقيه متثائباً فوق مياه الذاكرة.

هيّا اقـتربي قبـل أن يحمـل البحـرُ نبـضَ الدمـاء الغافيـات .. ويُغنّيهـا علـى شـفاه الجراحـات صهيـلاً ، يُولـدُ الإحسـاس بألوانك المدثـرة بأطيـاف الأمنيـات الغاليـات .. تلـك الـتي زرعتهـا يداكِ !!..

وحين استفاق صهيلُ الجرح .. كُنتِ الدواءَ حينَ عـزّ الـدواءُ .. وكنتِ الأثيرة حين فرَّ الأصدقاء .. فكان لوجهك هذا الحضور البهي .. وكنت العزاء ؛ يقول :

تدورين ...

إذ تصهل الريح فينا ،

وحلم المساء يشيخ على مرفقي..

يحمل البحرُ نبضاً ..

يُهدهد كلّ الجراحات ..

والأمنيات التي ؛

وزّعتها يداكِ ..

فكنت الأثيرة .. حين انتبهتُ من الجرح ..

كان لوجهك هذا الحضور البهيّ ..

أجل !! أنتِ أيتها الأمنيات الهاربات .. يامنْ حملتكِ في قسمات وجهي ، وفي اهتزازات صوتي ، وغابات الحزن في ليل عيوني ، وفي تجاعيد جبيني .. مالك تدورين إذْ تصهل الريحَ فينا ؟! أهذا هو ابتداء المسافة بيني وبينك ؟! وآسفاه !!

كيفَ ؟؟ كيفَ والبلادُ ظمأى على ساعديكِ ؟

كيفَ ؟؟؟ كيفَ وأنتِ التي امتصّتْ نُسْغَ الحياة من أبجديتي؟! .. وأحرقتِ كُلّ التلاوين والتصاوير في مقاصير كلماتي الثكلى ؟! وزرعتِ دروبي دهشة وانتظار .

أنت !! يامنْ ارتشفت رحيق الصبر من كلِ فاصلةٍ ، تنتظرُ دروها لتستريح بين كلمات قصائدي الراجفة على مسارب الزمن الرديء .. وتغلغلت كالخنجرِ في لحم مفرداتي التي تأبّت على الفناء .. فأينعت وردةَ هنا .. وثمرةَ هناك، وتساقطت مناً وسلوى على صحارى عمري الغافي على أعتاب الشقاء . يقول عبد السلام :

البلادُ على ساعديكِ..

ابتداءُ المسافةِ بيني وبينك

يامنْ زرعت الطريق

خُطىً وانتظار ...

أنت .. يامن أبحتِ دمي !!

وردةً....

وردةً...

وارتشفت الرحيقَ الجميلَ

على سفح أغنيتي ...

لقد حلّتِ اللحظات التي تستلينَ فيها بقايا الآدميَّة بي .. تستلبين أمني وطمأنينتي .. وتدفعين بي بين أشباح الموت انتحارا .. أو على دروب الحب ، أو مايشبه الحب انبهاراً ، لأعتنق مصيري ..

وها أنذا .. أجثو خاشعاً .. أمام معبد عينيكِ.. أرتلُ قصائدي، وكُلَّ ماوعته الذاكرةُ ، وماتلقفتهُ شباك الضّنى والوجد في قلبي من أغنيات .. أغنياتٌ كانتْ قد تسرَّبت عبر شقوق الذاكرة .. أوضاعتْ من بين أيدينا .. يومَ كانَ من الممكن ان نقتسم قطعان العذاب مابيننا .

هذا الزمان زمانك .. ياسيدة الضباب.. ياقسيم الليل والعذابْ.. فتعالي نقرأ على الدُنيا السلامَ .. ونُقمْ المعموديّة في حافة الصّبر على مفارقِ التشهي .. نَنْدُبُ ماضيَّعتهُ يدانا .. ومنْ يدنْنا يالكثرةِ ماضاعَ .. يقول :

آنَ أنْ تحملني الطينَ !!..

على غفلةٍ من دمي ،

نحو مايُشبهُ الحبَّ ،

أويُشبه الانتحار ..

لعينيكِ .. هذا الهديلْ.

وما جمعَ القلبُ من أغنيات ..

سنقتسمُ الليلَ مابيننا ،

ثم نمضي .. إلى حانةٍ من فضاءٍ شهيٍّ.

نُعمِّدُ ماضيَّعته يدانا ،

كأنَّ الزمانَ زمانكِ!!..

تعالى عمديني طفلاً على مدارجِ القصيدة . .. فانا لم أبلغ الحلْم بعدُ .. ولا داعبتْ أشواقي فكرةُ بلوغ الحلمِ يوماً .. فقد استْهوتني لُعبةُ الاحتراقِ في مطهَرِ حبكِ .. وماتمنّيتُ شيئاً . كما تمنيتُ أنْ أظلَّ طفلاً يشتعلُ علَى مجامر القصيْدة ، ليرقي إلى اشتعالك .. فنشتعل معاً ، ونحيل القصيدة إلى غابة كثيفة من القصائد المشتعلة .. فأرتشفُها حتى الثمالة .. وأتلاشى في فضائك الرحيب .

تعاليْ.. يامن كُنتِ في البال لحناً شجياً ، قبل أن تُشعليني ، فقد كُنتُ اشتعالك. تعاليْ.. فقد صاغني الحزنُ ، واختلط في بشريتي الأرجوانُ .. يوم فكّرت أن أرسمكِ على شرفات قصائدي ندىً وفيئاً .. وأزرعك في لحم الأبجدية عبر جحيم حروفي نشيداً ، يومها امتزجت بلكِ حروفي ، وامتزجتِ بها .. يومها فقط صرتُ

أكتبُ بك ، صرتِ لُغتي ، وهمْسي ، ودفق حروفي ..

يومها !! يومها فقط .. تغيَّرتْ قواعد اللّعبة ، فصرتِ اشتعالي .. صرت أنتِ اشتعالي .. وهذا هو الرّهان!!

والآن !! تعالي يا التي أعلنــتِ – في نهاية الشـوط – كسْبَ الرهان .. تعالي يا التي عسكرت في مساحات الضوء داخل كهوف ضميري .. وأعلنت العصيانَ المسلحَ في غابات شعوري .. وشكّلت ميليشياتٍ راعدةً في مجاهل أبجديتي .. تعالي .. كي أقدم لك الطاعة .. وأقسم بين يديك يمين الولاء .. لقد اغتصبتني .. وأصبحـتُ مـن حاشيتك من رعاياك .. كسبتِ الرهان .. بعد أن كنتِ الرهان ...
يقول عبد السلام :

لمْ أبلغ الحِلم ...

كنتُ اشتعالك ،

حين ارتضيت القصيدة .

أترعت كأسي ..

فشكلني الحزن والأرجوان ...

كنتِ في البال لحناً شجياً .

فعمدتك الحرفَ

كان اشتعالي ..

نذيرُ التوحُّد بين يديكِ..

وكنتِ الرُّهانْ..

مالفائدة ؟! ايتها الغائبــة الحـاضرة .. عنـد ماتسـائلين الطيـب عني ؟

مالفـائدة ؟! أيتهـا المستعبدة والمعبـودة .. أن تسـألي المواســم عني؟

فأنت .. أجل أنتِ التي كنت حُلمـاً ضباباً وهْمـاً .. وكنـتِ رؤى في دخان أغانيَّ المشتعلاتِ في دمي .. في مجاهل شراييني ...

مالفـائدة ؟؟ آه ... آه منــكِ... مالفـائدة وأنــت الــتي قــد أضاعتني ؟!

أه كم توسّلت أمام عرشك ، باسمي ، وباسـم رعايـاك .. أن ترجعي ؟! فهـل ترجعـين ؟! .. ارجعـي فأغـاني فيــك ترقــص في داخلي .. تورق في دمي .. تُشـعل في قلبي الحرائـق .. صـارَ دَمـي مشتعلاً .. قلــب أغنيـتي ينبـض هـو الآخـر ويشـتعل . قلبي وقلـبُ قصائدي أغــانيَّ .. يحمـلان الخصــبَ لعينيـك ... يحمـلان قطـرات النّدى ، وضـوع الأزاهيرِ الوحشيه في كل البراري .. لك وحدك !!

فيا أنثى الخصــب في مجـاهل موهبـتي .. وأدغـال شـعوري !! دعي سمائي ملبدةً بالحزن والدهشة .. مطرزةً بالورد والأرجـوان .. فلربما واتت الريح وأمطرت طموحاتٍ تمكنــني مـن تسـلق أهرامـات حُبكِ الغلاب .. الذي لم أستطعه ، يقول :

يالتي ضيعتني !!..

وراحتْ تُسائل عنّي الفصول ،

سألتك أنْ ترجعي .. كنتِ وهماً

وكان الدّخان رؤى ..

قلبُ أغنيتي الآن ينبض .

صار دمي مشتعلاً .

يحملُ الخصبَ

يحشدُ كُلأ البراري ،

لأنثى التشكل والجلنار .

وهماً كنت .. في جحيم الذاكرة ، ياصانعة البروق !!

ومطلقاً كنت .. حين استعرتُ تَشَكلَ قصائدي من أغمار الضياع والغربة في مجاهلك .. ياعازفةً لحنَ الرجوع .. أولحن التلاشي والاندثار .

عذت تدورين .. أما كفانا دُواراً ، ضياعاً ، شتاتاً ؟!

ماذا أصنع ؟... بل ماذا يرادُلي ؟ وسماءٌ نحاسيةٌ تسّاقط وجعاً صامتاً ينقر حباتِ القلب المجهد ، المشرَّع للشوق على مداه . سأصنع لك عباءةً من شرايين قصائدي .

آه !!..آه لو أستطيعُ انْ أنشرَ قلوع حبي في فضاء كونك الرحيب .. لجاهدتُ أن أجعلَ فيضَ نجيعي الأحمرِ بحراً تخفقُ رايات حبكِ فوق أشرعة السفن التي تسافر فيه ... ولشكّلتُ مِنْ قصائدي لحناً يغفو فوق تلك الأشرعة .. ولكنني وياللأسف تُهتُ ، ضعتُ ، غرقتُ في مهمه البيد ، أبحثُ عن ضياعي ، وانكساري .. حتى صرتُ روحاً ، صرت غيماً مُثقلاً بالندى ، فوق القحط الذي يُداهمُ وجه المدينة التي خلتْ منكِ .. فراح يلطم وجهها .. ويحفر أنفاقاً للدمار في ضميرها ... ويُحلل وجنتيها بالخراب ، ويتركها لمصيرها المشؤوم .. ويمضي .. يقول عبد السلام :

تدورين...

هامطر أخرسُ ينقر القلب ..

لو أستطيعكِ حباً .

دلقت دمي ،

واستعرت القصيدة

لكنني .. تهتُ في مُطلقي ..

صِرتُ غيماً ندياً ..

رايتُ اليباب

يُداهمُ وجهَ المدينة،

يحثو الخرابَ على وجنتيها وعضي ..

ضاع الأمل .. ياويلتي !! خاب الرجاء .. انتشر البلاء ، أنا لا أصدق ما أرى !! استشرى الخراب عمَّ اليباب .. وهُجِّرت المدائن من أصحابها .. كسف العذاب بوجهها ، تحثو الخراب .. وخيَّم ليلٌ طويل قاتم شديد العبوس .. ليلٌ عقيم يكنس الخصب ، وينشرُ الذعر على وجوه المدائن والقرى .. ويغمر الآفاق بسماوات من غبار ... تهمي غباراً لكلِ الجهات..

غبارٌ يلفُ الوجود غباراً .. غضب وقحطٌ يُسربل الوجود جحيماً .. يكتنفُ المكان ، يمتطي صَهوة الزَّمان .. يخلخل المسافات مابين الكائنات ،.. وَيخترق الزّمان الأخير من عمر الزمان .. ليصل إليك ... ياغربة الروح !!.... ويطوي كتابة الفصل الأخير من قصتنا .. هذا إذا كنا نشكل سطراً من عمر الزمان أو المكان .

قحطٌ .. خرابٌ .. غبارٌ يمحو الزّمانَ ..يُعرِّي فصول الزمانِ .. ويهوي بزمان الفصول ... ممتطياً صَهوةَ نجمةِ الوقت إليك .. يُغني الذهول ، يُغني الخراب .. وينعقد من فوقنا أقيانوساً منَ الغضبِ والإنشطار ... يُمطرنا ذلّة ، وغُربةً ، وانكساراً ، لنستمع لعبد السلام :

غبار ، ...

غبار ،...

غباراً ،...

لكل الجهات الغبارْ .

يمتطي لجمة الوقت ،

يدخلُ عبرَ الزمان الأخير إليك ...

يُعرّي الفصول .. ويهوي

ليُمطرنا ...

غُربةٌ ... وانكسارْ ...

فياغُربة عبد السلام !!! استمري ... ليستمر مطر عبد السلام علينا زمرداً وياقوتاً .. وانحسر أنتَ يا انكسار الموج عن شواطئ عبد السلام لنجمعَ الأصداف والمرجان .

« وفي الروح متسعٌ للصهيل »

شعر عبد السلام المحاميد

.. وآيتك ،...

والأرض متقلةٌ ،..

والمدى الرحبُ مشنقةٌ من فناءْ

فردي السلامَ ،

لأدخل ليلكِ ممتشقاً سيف ذلي

على غفلةٍ من دمي المستباح

لعينيك عري القصيدة ..

حين يباغتها الشعرُ سكرى ،..

على شرفةٍ من ضياءْ

لعينيكِ ما أهمل القلب من أمنياتٍ ،..

وما أنبت القهرُ من أغنيات ،..

لعينيك..

وجه القصيدة يقطر فلاً

فلاتجرحي الحلم ....
يا (أذرعات)
« أحثُ الخطى ،...
موغلاً في النزيف إلى وجهةٍ ..
ليس فيها سوى الحزن ، ..
أبكي وأرنو إلى أفقها الجارح العذب ...
مدّاخلاً في الرؤى الحالمات »
ولا شيء ...
لاشيء إلاّ الرماد ..
يطوقَ خصر المسافة مابيننا ،..
والرحيل الطويل
فهل تفضح الريحُ أسرارنا ..
بعدما عمدّتنا ..
بكل الخطايا الجميلة ؟؟
ياليتها الريح ..
لم تتكسر في خطانا ،..
ولم يعتنقها السؤال اللجوج ،..
بمايشعل الحلم ..
نرجسةً للرحيل
فماذا سيبقى من الحلم ..
إن عاودتني الرؤى ،

واشتعلت بأغنية من عويل ؟؟

سلاماً ...

سلاماً..

ورأسي على راحتي ..

فتات الموائد عامرةً ،..

سلعةٌ من ترابٍ رخيصٍ ،..

عواء،..

واشباح موتى ..

بعيدٌ هو الفجر ،..

ليلُ المدينة أعمى ،..

وثمة شمسٌ ،..

تحثُ الخطى نحو وجهكِ..

حاملةً ..

راية الحب للجائعين

فردي السلامَ ،..

لأدخل صبحك ،

أدعو الطيور الجريحة ..

من كلِّ فجٍ تجيء ..

سلاماً ..

سلاما...

فهل بعد في الروح متّسعٌ للصهيل ..؟؟

أنا الشاعرُ المستباحُ...

أتيتك والأرض مثقلةٌ ،..

فاحضنيني ،..

وكوني احتراقي إذا ما اشتعلتُ

وكوني يقيني ..

أنا العاشق المستباح ..

على يقظةٍ من دمي ،..

تستعيرُ القصيدةُ مني الصدى ،..

ثم تتركني في الذهول

أُطرز قلبي ..

بأغنيةٍ لاتجيء ،..

وحلمٍ جميل

فياليتها الريحُ ..

تطوي المسافة مابيننا من جديد ..

لتجمعنا في مداها ،..

وتنثرنا في اشتعال المدى ..

موجةً من أصيلْ

« وفي الروح متسع للصهيل »

« وفي الروح متسع للصهيلٍ » عنوان لقصيدة الشاعر المبدع عبد السلام محاميد .. جعلها عنواناً لمجموعته الشعرية الفائزة بالجائزة التقديرية الثانية على مستوى الوطن العربي .. المقدمة من الأميرة الشاعرة سعادالصباح للعام ١٩٩٤م .

والمجموعة الشعرية « وفي الروح متسع للصهيل » تظهر لنا موهبة الشاعر الحقة ، بعيدة عن مقص الرقيب ، وتبرز لنا قدراته الفنية على صياغة مأساته ، والتعبير عنها بأرشق عبارة ، وأصدق تعبير .. وفي خلق الأجواء النفسية الملائمة التي تدفع بالجملة الموسيقية لتكون ناضجة في أعماقه الجوانية ، قبل أن تخرج لتكوِّنَ مع زميلاتها سمفونية رائعة .. تصخب عندما يحاصره الغضب ويلفه الضياع ، ، وتخفت لحظة يستشري الحزن داخل دهاليز النفس ، وتسكن الكآبة عمق أعماق الروح .

وشعر عبد السلام حر ، نقي ، طاهر عندما ينطلق على سجينه ، بعيداً عن المؤثرات القسرية .. فالشاعر يميز بشكل واضح، وبصورة لاتقبل اللبس الفرق بين اللإلتزام والإلزام .. هو بطبعه ملتزم بقضية تهز أغصانه الوارفة ، وتشرش في جذوره العميقة ..

لحظتها تأتي قصيدته صادقة ، حية متحركة ، مقنعة وأما حين يلزم نفسه على قول الشعر أو نظمه ــ وهذه من سقطات الشاعر وكبواته ـ فتجيء منظومته باردة ، باهتة ميتة حتى قبل ولادتها .

الشعر العظيم أيها السادة « لايتعامل مع الطمأنينية أبداً .. وبكلمة أخرى ، إن الشعر العظيم لايتوخى سلامة من يقرؤونه .. بل يتأمر على سلامتهم ويضعهم في منطقة الخطر » الشعر العظيم أيها السادة خرج « من الموالاة إلى المعارضة .. واستقال من وظيفته القديمة ، كمغنٍ في جوقة الملك .. أو كسائسٍ لخيوله ، أو كمرفهٍ عن زوجاته »» ..

ولذلك أيها السادة يظل الشعر الحقيقي « منفياً خارج المدن التي ترفض أن تتغيَّر .. ويعيش الشاعر في حالة تصادم مستمر مع السلطة التي تريد أن تدجنه ، وتستأصل غدد الرفض فيه ، وتجعل منه صوتاً في كومبارس وزارات الإعلام » أو الأعلاف .

أيها السادة « كنت أحلم بشعر عربي .. تكون فيها مساحة الكلمة ، بمساحة الانفعال .. وحجم الصوت الشعري ، بحجم فم الشاعر .. وبحجم هواجسه .. الشعر هو خلاصة الخلاصة .. لذلك كان أعظم الشعراء هم أولئك الذين كتبوا بيت شعر واحدٍ .. وماتوا بعده مباشرة ».

اللعبة الشعرية أيها السادة « لعبة إشارات ضوئية .. واللاعب الكبير فيها هو الذي يحتفظ بالقدرة على الصمت .. ويعرف متى يلقي ورقة الدهشة .. في كتابة الشعر تؤدي اللفظة الشعرية ، عمل جهازِ الإضاءة ، الفلاش »في كاميرات التصوير .. ويُصبح الشعر إضاءةً سريعةً عمرها ثانية أو جزء من أجزاء الثانية».

إن الشعر الحقيقي لا ينتسب لأية رابطة أو جمعية من أي نوع كان « فأنا من المؤمنين أن أي انتماء ـ من هذا القبيل ـ مهما كان مثالياً وطاهراً .. من شأنه أن يربط عربة الشعر ، بحصان المغامرة الزمنية .. وينحرف بها عن خط سيرها الأصلي » لايلبث بعدها أن يسقط الشاعر وشعره معاً .

إذا كان بعض الشعراء ، أو بعض من يدعون أنهم شعراء ، الذين جندوا أنفسهم ، وكرسوا شعرهم ، لخدمة السلطان .. يدعون أنهم يتبعون مذهب التقية ، ليحموا أنفسهم ، ويسعوا إلى السترة .. فهاؤلاء منافقون قطعاً ، انتهازيون على أقل تقدير .. الشعر موقف ، كما الحياة موقف .. وعلى الشاعر الحق أن يرفض السترة إذا كانت تعني أن يكون واحداً من الأزلام .

« السترة ـ أيتها السادة ـ موقف لا موقف له .. ونقطة جبانة ومترددة .. لاتتخذ قراراً ، ولاتغضب أحداً .. إنها جسد يتعاطى المخدرات .

السترة سهلة جداً .. يكفي أن لا تفعل شيئاً لتكون مستوراً » فما الذي يرغم الشاعر على النباح ليكون مستوراً إذاً ؟ إنه بذلك يسقط أقنعته !!

نحن الآن مع تجربة شعرية فذة صادقة .. وما أكثرها عند عبد السلام ! الذي يعاني كل عوامل القهر والاستلاب .. ومن هذا المنطلق نجد الشاعر يبحث بلهفة إلى انتماء ، إلى نقطة ثابتة ، يقف عليها ، وينطلق منها .

فالانتماء عند عبد السلام مشكلة تهز ثمار أشجاره العجفاء من الداخل بعنف ..وكلما اشتدت أنواء القهر والاستلاب على الشاعر .. وازدادت زلازل الغربة والضياع في أعماقه .. ازداد شعوره بالحاجة إلى الانتماء ، إلى الانتساب ، إلى وطن حقيقي يغنيه أحلى قصائده ..

عبد السلام بحاجة ماسة للانتماء إلى أية أرضية صلبة لاتهتز تحت قدميه .. ليستنبت في ترابها في رحمها ، فقاقيع قصائده المتدفقة من مغاور الموهبة ، الفوارة من كوى الروح .. لذلك ابتدأ قصيدته بصرخة مجلجلة بملء حنجرته « ... وآتيك » اختارها لفظة من بين آلاف المفردات التي خلقها الله ، لتحمل أقصى طاقات التعبير عن بحثه المستمر .. ثم عن استشرافه للهدف الذي يسعى اليه .. فهو لا ينفخ في رماد .. ويعرف ما يريد ، والى أين ؟ .. رغم قيود الظلم ، والقهر ، وكثافة الضباب .

وقبل أن نتسكع على أبواب كاف المؤنثة المخاطبة في « .. وآتيك » ولكي لانحرث في البحر .. فإن المخاطبة هي أرضه، مستودع أسراره ، مستنبته الطبيعي حيث جذوره .. وبذوره .

« وآتيك »!! يذبحه الحنين اليها من الوريد إلى الوريد خارج مياه الذاكرة . هو واثق من الوصول اليها .. رغم المسافات المثقلة بالعذاب .. ورغم الفناء المزروع مشانق على امتداد المدى الرحيب .. يرجوها أن ترد السلام عليه ، أن تضمه إلى صدرها .. ليدخل ليلها ممتشقاً سيف ذله .. ويسقي ظمأها من دمه المستباح ، في غفلة من نواميس القدر .. وها هو ينشد :

.. وآتيك ،

والأرض مثقلة ..

والمدى الرحب .. مشنقة من فناء

فودي السلام ..

لأدخل ليلك ..ممتشقاً سيف ذلي ..

على غفلة ..

من دمي المستباح ..

فماذا يحمل اليها الشاعر ؟!

لعينها يهدي الشاعر ، عري قصيدته الحبلى بألف دنٍّ من السكر ، وألف ألف قطرة من ضياء .. حين يفاجئها الموج الشعري وهي سكرىَ عارية .

سيهدي الشاعر لعينيها كل ما نبت على جدران قلبه من أغاني القهر .. وكل ما أهمله ذلك القلب المفزع المروع من أمنيات.

سيهدي لعينيها ذوب قلبه شعراً ، يقطّره فُلاً على أديمها .. يرجوها أن تترفق به .. وألا تنفر روحه ، وألا تجرح هذا الحلم بالوصول اليها ..

وحتى الآن وقد برَّح به الشوق اليها ، والتوق للوصول لها ، لم نعرف من هي بالذات تلك التي انتحر شعره على صدرها ، ولابث نفسه على أبوابها.. إنها «أذرعات » . يقول حادياً :

لعينيك .. عري القصيدة ..

حين يباغتها الشعر سكرى

على شرفة من ضياء

لعينيك .. ما أهمل القلب من أمنيات ..

وما أنبت القهر من أغنيات

لعينيك ..

وجه القصيدة .. يقطر فلاً ..

فلا تجرحي الحلم ..

يا « أذرعات » .

أعرفتم من هي ؟!أيها السادة !! .. إنها « أذرعات »

إنها « ذرعاه » هو وحده ، وحي إلهامه ، ومهبط حلمه .. ولطالما انتمى واستقر ، ونما ، وأصبحت قصيدته غابة من القصائد .. فليضرب في فجاج الأرض .. متتبعاً نزيف مواجده الضالة إلى وجهة ليس فيها سوى الحزن .. يبكي ، والدمع يطفح من عينيه ليحرق طهر أفقها المتداخل في الرؤى الحالمات .. ذلك الأفق المتغلر الراعف بالمنى .. ينشد الشاعر :

« أحث الخطى ..

موغلاً في النزيف .. إلى وجهة ..

ليس فيها .. سوى الحزن ..

أبكي .. وأرنو إلى أفقها الجارح العذب ..

مدأخلاً في الرؤى الحالمات »..

بلغ الشاعر مبتغاه حين قطع نصف الطريق .. إذأصبح متأكداً من ولائه وانتمائه ..فالارض ثابتة تحت قدميه في أذرعات ..

والحزن الجارح يختلط بالحلم بحثاً عن المأمول .. فهل من قرار وسكون واطمئنان ؟

أبداً .. « إن أخطر ما يقع فيه الشاعر هو السقوط في صمخ الطمأنينة ، ومهادنة الأشياء التي تحيط به .. والشاعر الذي لايعرف قشعريرة الصدام مع العالم .. يتحول إلى حيوان أليف .. استئصلت منه غدد الرفض والمعارضة »

وعبد السلام رغم قطعة لنصف الطريق ، واختلاط حزنه في أفقها الجارح العذب ، بتداخل اليقظة بالحلم ، والحلم بالرؤى .. وجد نفسه لايلوي على شيء .. قبض الريح .. زعازع العدم .. حتى المسافات الواصلة بينه وبينها اجتاحتها الحرائق ..

ولم يبق غير الرماد يطوق خصرها .. لم يبق إلا الرحيل الطويل ... فيا رحيل عبد السلام أرجوك ألا تتوقف .. يقول الشاعر :

ولاشيئ ..

لاشيئ إلا الرماد ..

يطوق خصر المسافة بيننا ..

والرحيل الطويل ..

ثم يتساءل الشاعر بعد أن اكتشف أن كل ما كابده وعاناه لتحطيم اغترابه ، ليس إلا قبض الريح .. يحاول الآن أن يداري خيبته ، وأن يغلق الجرح على نصل الخنجر .. ليبقى متماسكاً ، متصالحاً مع نفسه .. فهل تفضح الرياح السافية تلك الأسرار ما بينهما .. وهي التي صلبتهما على أفقها الجارح .. وعمدتهما بكل الخاطايا الجميلة ؟!!

فيا أيتها الريح !!يا راسمة أقـدار الشـعراء .. شـقاء ونعيمـاً .. ليتك لم تضعي العقبات في دروبنا .. ياليتك لم تتكسـري في خطانـا .. ليـت تبـاريح الألم علـى عتبـات السـؤال اللحـوح لم تعلـق بـك وتعتنقك رسولا لايحقق الآمال بل يؤجج الشوق ويشعل الأحلام .. ويغريها بالرحيل

آه !! منك أيتها الرياح السافيات .. فلا أنت سترت أسـرارنا .. ولا أنت سهلت دروبنـا وأوقفـت طوفـان الرحيـل .. أأعـود إلى جحيم الرؤى ؟؟

مـاذا أفعـل إن هـاجمتني الـرؤى ؟؟ واشـعلت بداخلـي مأتمـاً ونواحاً وعويلاً ؟؟

فماذا سيبقى من الحلـم عندئـذ ؟؟ .. فـالوداع .. الـوداع !! يقول الشاعر :

فهل تفضح الريح أسرارنا ،

بعدما عمدتنا ،

بكل الخطايا الجميلة ؟؟..

ياليتها الريح !!

لم تتكسر في خطانا ..

ولم يعتنقها السؤال اللجوج ،

بما يشعل الحلم ،

نرجسة للرحيل ..

فماذا سيبقى من الحلم

إن عاودتني الرؤى

واشتعلت بأغنية من عويل ؟؟

سلاماً

سلاماً

إنها الحيرة التي تلتهم أيام الشاعر على أبواب الحلم الذي يحاول التشبث به ..لكنه حتى الحلم ، يتهارب منه ، يتسرب من بين يديه ، حينما تهاجمه أطياف الرؤى .. وهكذا يتشاءب ضياع الشاعر بين الحلم والرؤى .. بين الأمل والواقع ..فلا الحلم ينقذه .. ولا الواقع ينهيه .. وكأنه قدر محتوم عليه أن يظل نهبة للوحشة والغربة والضياع .

ورغم ذلك كلّه .. سيظلُّ الشوقُ إليها .. إلى مرابع صباه .. يهزّهُ من الأعماق لريِّها .. دونَ أن يتمكّنَ من اقتلاع وشمِها المحفورِ على جسدِهِ . وجسدِ قصائدِه .. وساعةَ يصلُ، في زمنٍ لاوصولَ فيه .. يتمنى عبدُ السلام أن تتجدَّدَ زوابعُ الاغتراب ، هنا على أرضه التي هي أيضاً تُشاركه اغترابَهُ .. وهكذا يُدخلُنا الشاعرُ مع اغترابه في اغتراب الأرضِ .. اغترابِ الوطنِ .. وطنُهُ أرضُهُ المغتربُ فيهما .. ويتمنى لو أنَّ الريحَ لم تتعثرْ في خطانا .. أجل في خطَانا .. هذه الـ «نا» الدالة على الفاعلين ، وغيرها «ما بيننا» و«أسرارنا» .. بدلاً من استعمال الضمائر المنفردة التي تدل على ضمير المتكلم والمخاطب .. آلا تدلُّ على أن الشاعرَ مُتورِّط مع الآخرين في مأساةٍ واحدة ، وضياع واحدٍ حتى أذنيه؟!

أجل .. لقد بلغ الشاعر محجّتَهُ .. ووجدَ ضياعهُ على أرضيَّة صلبة .. وعلى شُرفةٍ من ضياء ، قدَّمَ لها عُرىَ قصائدِهِ الراعفةِ

سكراً .. ولن ينتزعهُ الخواءُ منها .. حتى وإنْ كانَ الرمادُ قد طـوَّقَ خصرَ المسافاتِ بينهما .. فاندفعا في قافلةِ الرحيلِ الطويلْ ..

رائعةُ تلكَ الرحلةُ ، من الأنا ، إلى النحن ، في فضاء وطنـهِ .. ولكنْ هلْ تفضحُ الريحُ أسرارنا ؟.. على حدِّ قولِ الشاعرِ ؟ .. هي وإنْ لم تفضحْ ، فإنّها أصبحت أوضحْ.

صحيحٌ أنّها أصبحتْ أوضح ، دروبُ تلكَ الرحلةِ .. بعد أن ترسَّخت جُذورُ قصائده في أرضه ، في أرض وطنه ذرعاه .. فذلـكَ ليبدأَ رحلةً أخرى .. رحلةَ الاغتراب بين الأهلِ والعشـيرةِ .. رحلـةَ العذابِ السرمدية ، بين القوانين الضَّحلةِ ، وهذه التعاليم الذّليلـة .. فماذا يبقى من الحُلمِ عندئذٍ ؟! والفجرُ مازالَ بعيداً !!

ورأسي على راحتيْ

فتاتُ الموائد عامرةْ

سلعةٌ من ترابٍ رخيص ..

عُواءٌ ،

وأشباحُ موتى ،

بعيدٌ هو الفجرُ ..

وشقيةٌ أنت يا رحلة عبد السـلام !! شـقية يـا رحلـة العـذاب والسراب في ليل المدينة الأعمى بين أشباح الموتى وعـواء الشـهوات .. وبعيد أنت أيها الفجر لتكشف الضرَّ والآسى والعـذاب .. بعيـد عن بزوغ شمس تحث الخطى نحوك يامدينة الأشباح حاملة راية الحب والخلاص للحائعين إلى اعتناق مصـيرهم المشئوم .. ردِّي السـلام ، افتحي صدرك الحنون لأدخل صبحك المسكون بالرؤى والضيـاء .. وأدعو آلاف الغرباءَ المصردين ، وكلَّ الطيور الجريحة مـن كـل أفـق

وتحت أي سماء لننعم بدفئك بحبك ونرتل على دروبك أناشيد الفرحة والسلام .. فما زال في الروح متسع للصهيل.

ليل المدينة أعمى ..

وغة شمسٌ

تحت الخطى نحو وجهك

حاملةً ..

راية الحب للجائعين

فودي السلام

لأدخل صبحك

أدعو الطيور الجريحة

من كل فج .. تجيء

سلاماً

سلاماً

فهل بعد في الروح متسع للصهيل ..؟!

فيا أيها الشاعر المستباح .. في مدينة دنّسها السماسرةُ ، والمزورون والمهربون .. فما زالتْ تنتظرُ غيثَك وأناشيدكَ تهمي عليها، لتغسل آثامَ الزناة أعداءَ النهار .. فما زال في الروح متسع للصهيل ..

وعند هذا الحدّ من المواجهة بين مدينة الشاعر المهدَّدة بأعداءِ الحريّة والمحبة .. وبين مدينته كما هي في البال .. يصرخ من أغوارِ روحه المثقلة بالعذابِ يناجيها «أتيتكِ» .. ولكنهم ردُّوني عن

أسوارِكِ ، واستباحوا دمي ، واتّهموني بحبكِ بعشقكِ .. تصوّري!!
حبُّكِ أصبح تهمةً يُلاحقونني بها ، ويستبيحون قصائدي ..
فاحضُنيني ، ضُمّيني إلى صدركِ ، فأنا عاشقكِ المستباح .. وكوني
مجمرَ البخورِ لاحتراقي .. كوني موقدَ الحب إذا ما اشتعلت ..
كوني الحقَّ واليقينَ .. كوني العقيدةَ والخلاصَ .. كوني الجنة
والمآب :

أنا الشاعر المستباح ..

أتيتك .. والأرض مثقلةٌ ،

فاحضنيني ..

وكوني احتراقي إذا ما اشتعلتُ

وكوني يقيني ،

أنا العاشق المستباح ..

الشعر .. والعشق تهمتان تلاحقان الشاعر في مدينة الخفافيش
والظلام .. فهل يستسلم الشاعر ؟!

هل يستسلم .. وما زال هناك متسع للصهيل ؟

هل يقطع الشاعر حبال قيثاره ، وهناك لحن لم يعزفه بعد ؟

مستحيل «الموت الصامت هو وحده الموت .. أما الذين
يثقبون بأظافرهم رخامات قبورهم .. ويكتبون شعراً على خشب
توابيتهم .. فلا أحد يستطيع أن يهزمهم» فهؤلاء خارج سلطة
الموت والفناء.

أجل مستحيل !! ما دام الشاعر مصلوباً على كلمات قصائده
.. مادام يقين الشاعر ، ضمير الشاعر قادراً على أن يقول للحرف

كن ، فيكون .. ما دام الشـاعر يشـتعل ككـاهن بـوذي ، يتّحـدى الفناء ، والوجود ، باحتراقه على مجامر كلماته .. ما دامت الكلمـة على فم الشاعر مشنقةً يتأرجح عليها ، ويقامر برأسه كي يقولهـا .. سيظل هناك متسعٌ للصهيل ، وستظل القصائد تتفجر من قانئ دمه، وتستعير صوته والصـدى .. لتترك الشـاعر في دهشـة تطـرز العـالم حوله بالذهول .. ويُصوغ قلبه أغنيـة لاتجـيء ، وحلمـاً لايتحقـق ، ورؤى كالمستحيل .

على يقظة من دمي

تستعير القصيدة مني الصدى

ثم تتركني في الذهولْ

أطرّزُ قلبي

بأغنيّة لاتجيء

وحلمٍ جميل ..

ولكي تظل أشرعةُ الآمال مقلعةً .. وموانـئُ الرجـاء منـيرةً .. يلجأ الشاعر للحلم الذي في البال .. كـي تظـل الحيـاة تسـتحق أن تعـاش .. فيتمنـى لـو أن الريـح تَخْسُرُ المسـافات الـتي تفصلـه عـن مدينته، مستتبته .. ليتصالح مع نفسه ، مع صحبـه ، أهلـه وعشـيرته .. ويشتعلوا معاً كما اشتعل هو .. فتشرق الآفاق ، ويعـم الوئـام ، وينزرعون أعمـدة نـور تشـدخ الفضـاء وتزيـن الأصـائل بدفـق مـن ضياء.

فياليتها الريحُ .

تطوي المسافة ما بيننا من جديد ...

لتجمعنا في مداهل

وتنثرنا في اشتعالِ المدى

موجةً من أصيلْ .



أضواء على ديوان ألحانٍ من اليرموك
وأغراضه الشعريّة للشاعر عبد الكريم الحمصي

ألحانٌ من اليرموكِ ، باقـةٌ شعريَّةٌ ناضجةٌ ، دانيةُ القطوفِ ، أبدعتها ريشَةُ فنان مبدع ، مهنتهُ أصلاً مـزجُ الألوان والأصبغةِ .. وهندسةُ الحروفِ والأصواتِ في بنـاء «هرمونيكي» يَأسرُ القلوبَ ويخلبُ الألبـابَ .. ودغدغـةُ أوتـارِ العـودِ هـذهِ الآلـةِ الشرقيةِ التي تستبينا وتسحرنا وتذوِّبنا ، وتنشرُنا على حبالٍ من الشوقِ والضنى.

هـذه الأقـانيمُ الثلاثـةُ – الأصبغـةُ ، وهندسـةُ الأصـواتِ ، ودغدغةُ الأوتارِ – يرفدُها تضلُّعُ الشاعرِ باللُّغةِ العربيـةِ وأسـرارها ، ومعرفـةٌ عميقـةٌ في بعـضِ القـراءاتِ القرآنيـةِ ، وأحكـامِ التحويـدِ ، يضافُ إليها لسانٌ عربيٌ فصيحٌ ، وصوتٌ جهوريٌ موحٍ ، وعارضة شعريةٌ رائعةٌ ، هذه المقوماتُ كلُّها تجتمعُ لدى الشاعرِ عبـد الكريـم الحمصي ، صاحب ديوان ألحانٍ منَ اليرموكِ ، وهي مَقوِّماتٌ نادراً ما تجتمعُ لشاعرٍ واحدٍ.

وقد أسعدني أنْ أقدمَ لهذا الديوان بكلمـةٍ موجـزةٍ عـن امتيـازِ الكلمةِ ، التي أسرتني خلالَ قراءتي لمخطوطِ ديـوان الشـاعرِ ، وقـد طالبتُ القارئَ فيها أن يترفقَ بمواسـمِ الشـاعرِ ،لأنَّ أقلَّ زهـرةٍ تمـدُّ

رأسها من بين السطور ، قد كلّفت الشاعر عُزلة أشهر بين الأحلام والأقلام ، وقوارير اللّون ، وأوتار النّغم . والحجتُ ، وما زلتُ ألحّ على أنّ الكلمة الجميلة المعبرة هي الله ، فاللّهُ كلمةٌ ، فقد كان سبحانهُ وتعالى يستطيعُ أن يستعملَ سلطتهُ كربٌ فيقولُ لعبادهِ : كونوا ملائكةً ، أو شياطينَ ، فيكونوا ، ولكنهُ أبى أن يُعبِّرَ عن قدرتهِ إلاّ بالإيماءةِ المشرقةِ ، والإطارِ الأنيق ، بالأسلوبِ الجميلِ ، فلم يجد غيرَ الكلمةِ وسيلةً إلى ذلكَ فقال ليسوع الكلمة ، وقال لمحمدٍ العربي : إقرأ باسم ربِّكَ الذي خلقَ.

فباسمِ الّذي علّمَ بالقلمِ ، ثمَّ أقسمَ بالنونِ والقلمِ وما يسطرون ، وإنهُ لقسمٌ لو تعلمونَ عظيم ، فباسمه تعالى أوشّي أطرافَ هذه الأمسيةِ ، وأمسّي وجُوهكمْ الخيِّرة ، فأهلاً وسهلاً بكم في كرومِ ديوانِ ألحانٍ من اليرموكِ وظلالهِ الوارفات.

دعوني أيّها السادةُ أصحبكمْ عبرَ قصائدِ الديوان ، وعرائشها الحبلى بالمواسمِ الواعدةِ والمعاني المشرقةِ ، والألوان الزاهيةِ . ولكنْ حذارِ أن تستوقفكمْ وردةٌ هنا ، أو أنْ تتعلقَ بأذيالكمْ نجمةٌ هناكَ ، فأرضيَّةُ القصائد تختلطُ بسماءِ المعاني في مزيجٍ لا أحلى ولا أجمل من الموسيقى الهادرةِ والدّندنةِ المنغومةِ ، فتضلوا الدروبَ.

نزار قباني والتجديد والوطن في شعر عبد الكريم :

يطالعنا أوّلُ ما يُطالعنا عنوانُ القصيدةِ الأولى في الدّيْوان «رسالةُ حبٍّ إلى نزار قباني» أنشدها الشاعر في ثورةٍ عارمةٍ على من يَطعنون شعر نزار ، ومعنى أن يحب الشاعرُ نزارا ، ويبدأ ديوانه بقصيدة يدافع فيها عن شعر نزار له دلالةٌ كبيرةٌ ، لابدَّ من الوقوفِ عندها ، وإيفائها حقها من القول.

فأوّلُ دلالاتها : هي أنَّ الشاعرَ الحمصيَّ من سدنةِ الكلمةِ ، ومنَ الذّين يعبدون اللّهَ بروعةِ حرفٍ ، لأنّ نزاراً صاحبُ مدرسةٍ في هندسةِ الكلماتِ ونحتها وانتقاء حُروفها ، ودوزَنة تآلُفها في جرسٍ موسيقيٍ أخاذٍ ، يغالبُ النفسَ والسمعَ فيأسرهما،

والثانيةُ : هي أنَّ الشاعرَ الحمصيَّ مأخوذٌ بالجمالِ ، مفتونٌ بالتصاويرِ واللّوحاتِ ، غارقٌ حتّى أذنيهِ بالأصبغةِ ، وقواريرِ اللّونِ، وبكاء المَزاريبِ ، ووشوشةِ النوافيرِ . تستبيه الرطوبة والخضرة وأحلامُ العصافيرِ كما نزار.

والثالثةُ : هي أنَّ الشاعرَ الحمصيَّ ينتمي إلى جيل التذَوُّق والسّماعِ ، الذي سبقَ جيلَ المُهرجينَ واللاعبينَ على الحبالِ ، من الذّين خندقوا وراءَ أعمدةٍ مؤمَّمةٍ في منشوراتِ المُلوكِ والسَّلاطين ؛ يفتضّونَ بكارةَ الكلماتِ ، ويزنونَ بالحروفِ ، مُؤدِّينَ بذلك دوراً قذراً خذاً في حوقةِ النباحِ من المساء حتى الصباحِ ، ينهشونَ كلَّ كلمةٍ شريفةٍ جادةٍ تمسُّ سلطةَ القائدِ العظيمِ ، وجزمةَ البرسيمْ . يصولونَ ويجولونَ ، فيجدعونَ الأنوفَ ، ويبعجونَ البطونَ ، في مهاتراتِ دونكيشوتيَّةٍ ضدَّ طواحينِ الهواء ، ويخوّضونَ في الخيبةِ وقلةِ الرَّجاء. منحدرينَ بذلكَ إلى مُستنقَعاتٍ قَذرةٍ من مرذول القول ، وسخيفِ المعاني ، ساحبين معهم إلى أوحالِ الضحالةِ ما كان يُسمى بالأدبِ الثوري غيرَ مأسوفٍ عليه ، مشوِّهين بلَغوهِمْ هذا وذاكَ أذواقَ الناشئةِ ، مفسدين سلائقَ العبادِ . حتى شاهتِ اللغة ، ومُسختِ المعاني ، واختفتِ القصائدُ العصماءُ ، وتيبستِ القرائحُ ، وجفّتِ المواهبُ ، وانتشرتْ هذهِ الطروحُ العفنة التي تتقزّزُ منها نفوسُ أهلِ اللّغةِ والأدبِ ، يتحرَّقون حسرةً لما آلتْ إليه لُغتهُم وأدبهمْ وبعدُ ؛

يَستهلُّ الشاعرُ قصيدتَهُ الأولى بقولِهِ :

مِنْ ضِفافِ اليرموكِ،صوتٌ ينادي ... يـابلادي ، تنهَّـدي يـابلادي
واسمعي الصَّوتَ مـن نـزار يُغنّي ... ينفُـخُ الـروحَ في خلايـا الضّـادِ
يسكُبُ الفجـرَ في عُيونِـكِ نهـراً ... مُتْملـيُّ الضّيـاء والإنشـادِ

هكذا ينادي الشاعرُ من ضفافِ اليرموكِ بلادهُ بأعلى صوتِهِ ، أن تنفُثَ الهمَّ عـن نفسِـها ، وأنْ تتنهَّـدَ الأوف واللّيـاً ، وأنْ تسـعدَ لسماعها صوتَ نزارٍ يغنيها أحلى قصائدِهِ ، ويُهدهِدَ لُغتها الأصيلةَ، ويمنحها مزقاً من روحِـه ، ومعـانياً من عبقريَّته فيعيدَ إليهـا شبابها وصباها ، ويبعثُ فيها الحياةَ من حديدٍ ، ويسكُبَ الفجـرَ ضيـاءً في أوصالها ، وشلاّلاً من النورِ في عُيونها ، فتورقَ وتزهرَ وتسيلَ حُـداءً ونشيداً.

ولو أمعنَّا النظرَ في الأبياتِ السابقةِ ، لوقعنـا علىظاهرةٍ علـى غايةٍ من الأهميَّةِ ، هي ارتباطُ الشاعرِ بأرضهِ ووطنهِ . وهي ظـاهرةٌ ستظلُّ تلازمنا في معظمِ قصائدِ الديوانِ ، حتى الغزليَّةُ منها ، وإلاّ لما وقفنا عندها . فالشاعرُ من الوطنِ مـنَ الأرضِ يبـدأ دائمـاً ، يُغـرِّبُ ويُشرِّقُ ويذهبُ كلَّ مذهبٍ ، وإليهما يعودُ مثقلاً بالجنى.

ففي البيتِ الأوَّلِ يـردُ ذكـرُ الوطـنِ صريحاً في ثلاثـةِ مواضـعَ «ضفافِ اليرموك ، يابلادي ، يا بلادي»

وفي البيـتِ الثـاني يـأتي ذكـرُ بـلادِهِ في الضمـيرِ المتصـل «واسمعي» . وكذلكَ في البيتِ الثالثِ في لفظةِ «عيونكِ» . وهكذا يظلُّ الشاعرُ يعزفُ ألحانهُ العذبة على قيثارةِ الوطنِ ، ونـزارِ الجمـال الذي جدَّدَ الحُسنَ فعادَ أكثرَ نضـارةً ، وعـادت إشـراقاتهُ تضـاحكُ آمالَ الأجيالِ العربيةِ وأمجادها ، فيُوشّي كـلَّ شبرٍ من ثـرى وطننـا

الحبيبِ بروائع السجادِ ويزرعُ الوردَ في ضمير الصحارى والوهادِ، ويثيرُ روائحَ الغارِ والنعناعِ في كلِّ وادٍ منْ أوديةِ البلادِ ، فينبعث الحياةَ والدِّفْءَ والريُّ في عُروقِ الظامئين ماءً فراتاً.

ولا ينسى الشاعرُ الحمصيُّ أن يُشيرَ إلى العلاقةِ الحميمةِ بين شِعرِ نزار وبينَ النساء والتي اعتبرها الكثيرونَ من المُتورِّمينَ جنسياً ، مَغمزاً على نزارٍ وشعر نزار، في حينِ أنَّ النسَّاءَ اللَّواتي أحببنَ نزاراً، وأحبَّهن نزارُ يتخطَّرنَ بجلالٍ وروعةٍ على شواطئِ دواوينهِ كأشعَّةِ الشَّمسِ طهراً وبراءَةً . فقصائدُ نزار فجّرت في ديوانِ الشعرِ العربيِّ رائحةً لأنثى جديدةٍ لاعهد لنا بمثلها من قبلُ ، فاختلطَ عبيرها بعطرِ الوطنِ ، فما عُدنَا نعرفُ أينَ تبتدئُ رائحة الأنثى ، ولا أين ينتهي عطرُ الوطنِ .

ثُمَّ يحدِّثنا الشاعرُ بعد ذلك عن الثورة التي قادها نزار ضدَّ التخلُّفِ والتَّبعيةِ الأدبيةِ والفكريةِ . فأيقظ عقولاً سقيمةً كانت تغط في سباتٍ عميقٍ، وأشعلَ النيرانَ في موروثاتِ الأدبِ السلطاني لأمةٍ استحالتْ رماداً ، وأعادَ للبلاغةِ العربيةِ عزَّها وصباها ، وقصَّ كلَّ الزَّوائدِ الشحميَّةِ منها ، وقنبَ كلَّ الترهلاتِ البلاغيَّةِ التي علقتْ بها خلالَ عصورِ الإنحدار ، وما ألصقهُ بها جيلُ القرودِ والدَّجلِ واللَّعبِ على الحبالْ .. فأينعَتِ الأبجدية وبدتْ حُروفها أكبر مساحةً، وأكثرَ اتساعاً من قبلُ . فأصبحَ الكلامُ حيّاً بين السُّطورِ ، يُورقُ على الشِّفاه ، يُحِبُّ ويَعشقُ ويقرأُ النَّاسَ قبلَ أن يقرؤوه ، ويُنشدُهم قبلَ أن يلحّنوه ، فيحيا بهمْ ، ويتغنون بهِ ، ويجري على ألسنتهم كما النسغ يسري بأوصالِ الشجرِ .

ويُؤكِّدُ الشاعرُ الحمصيُّ مرَّةً أخرى ، أنَّ نزاراً شخَّصَ مواجعَ النَّاسِ في ليالي العذابِ والإرهاب ، وعرف حقيقة الداء والدواء . وسهاد الشاعر وقلقه لايختلفان عما يخبُّ به بقية عباد الله الصابرين

/ من خوف الحاضر ، وجهل المستقبل . ولكنّ الذّي يمضّه ويقضّ مضجعه ، هذا الصنف المتطفل من المتنفخين ورماً ، والمعوقين خلقاً وخُلقاً ، ممن يعادون نزاراً وكل داعية للخير والجمال . وينزه الشاعر الحمصي نزاراً عن دعاوى هؤلاء ، ويخاطبه قائلاً : أنت الحب بكل مافيه من ترفع وكبرياء . والحب لايمكن أن يعادي ، فترفع أيها الشاعر العبقري عن لغو الجاحدين ، وهذر المطبلين . وصياح الناعقين ، فالقافلة تسير بعين الله ، ولن يحصد زارعوا الشوك إلاّ الندامة .

الوطن في شعر عبد الكريم

ومن ثم ، يفرد الشاعر لوطنه قصيدة بحالها بعنوان «حوران» في الصفحة ١٧٠ من الديوان ، يحدثنا فيها على احساساته العميقة بالانتماء إلى الوطن إذ الوطن عند الشاعر الحمصي ، ليس مجموعة ولاءات يوزعها بين زيد وعبيد من الناس . ولابين فئة وفئة من كل ماهب ودب ، ولاسلعة لدى المرابين والمزاودين، ولاشعاراً أجوف يعرض في سوق النخاسة لمن يدفع أكثر .

الوطنُ في ديوان الشاعر أرضٌ وشعبٌ وسماءٌ ، وانتماء للتداب والماء والشمس والهواء، التي تكون شحمه وعظمه ولحمه ، وتصبغ دمه وجلده ولون عينيه ، وتعطيه ملامحه العربية الأصيلة ، الجسدية والنفسية والفكرية .

فهو من الوطن قلباً وقالباً ، والوطن فيه ينمو بداخله ، يسكنه، فيطبعه بطوابعه ويمنحه لون شعره وعينيه ، وسمرة بشرته ، وبحّة صوته ، وملامح وجهه ، ورعشة أصابعه المعتنقة صليب الحروف والكلمات قدراً .

الوطن في قصيدة الشاعر الحمصي حضارة وتاريخ وارتقاء بالإنسان إلى مرتبة تليق بكرامة الإنسان ، الوطن سهول خيرة ، وجبال شامخة ، وطئتها أقدام الرسل ، وتخطرت فوقها مواكب القادة العظام من هذه الأمة . الوطن عند الحمصي قلاع تتحدى الفناء بشموخها وهيبتها ، فيخر الزمان والمستحيل ساجدين أمامها رهبة واحتراماً . ومما يقوله :

على أعتابها وطئ الرسول	فأمرعت النّواحي والحقول
إذا ماجئت بُصرى، جئت صرحاً	عظيماً ، لايزال ، ولا يزول
كأنّ بناءها عجب عُجاب	أقامته السّواعِدُ والعقول
قلاع في صروح ، في بروج	يخرُّ أمامهن المستحيل

أرأيت !! كيف يتشكل التاريخ ، وتتكون الحقب على أرض وطنه الذي يغنيه ويكتب له بمدادٍ من دمه ووهج شرايينه ، إنه وطن الزّحوف بالفوارس والدارعين ، وطن عمر بن الخطاب الذي أعجز الزمن والأيام أن تأتي بمثله، وطن المشاعل والطبول تُودّع آخر فلول الروم في يوم النصر العظيم تجرّ ذيول الهزيمة والعار . ثم يلجأ إلى أسلوب التجريد ، فيستنطق الأوابد والجمادات ، لتروي للأجيال أساطير المجد والفخار ، ويستشهدها على مايقول عن عظمة وطنه وعراقة مدينته درعا :

قوافل لم تزل تهوي إليها	تُرافقها الفوارس والخيول
ويا عُمرُ تمرُّ بأذرعاتٍ	تلاقيك المشاعل والطبول
كأن المسجد العُمري فيها	يقولُ لكلّ جيل مايقول
جيوش الروم في اليرموك بادت	مقابرها البراري والسهول

ثم يحدثنا الشاعر عن غيل البواسل ، وعرين الشجعان في بطاح درعا وشعابها المجبولة بدماء الكماة من أبناء عشيرته وأمته ، فيقول :

يقول لهم: بأنّ ديار درعا	عرين في معاركنا وغيل
وأنّ سهول درعا ساحُ حرب	دماء الدّارعين بها تسيل
لكثرة ماتروّت من دماء	كأن ترابها خدٌّ أسيل

ويمجد الشاعر وطنه ويفتخر به ، بأعز وأغلى مايفتخر به العربي الكرم وإجارة الملهوف ، على اعتبار حورانه ملجأً للمعتفين، وملاذاً للأرامل واليتامى وطالبي المعروف ، ومنزلاً للأضياف حيث يجدون الترحيب والتكريم في ربوعه . يقول :

أرى حوران أمّاً لليتامى	ويكرم في منازلها النزّيل

ويتابع بعد ذلك افتخاره بوطنه بأبياتٍ مُتتابعة ينبئك فيها ، أنّ وطنه كان مصدراً للزحوف ، ومموّناً للفتوحات . وأنه كان القلعة الصامدة التي تصدُّ على مداخلها جحافل الغزاة ، فيرتد الدخيل مدحوراً مخذولاً ، يقول :

ومن أبوابها خرجت زحوف

وعن أبوابها دُحر الدّخيل

ولاينسى الشاعر الحمصي أن يستعرض أمامنا بقية معارفه التاريخية وبعوطنه ، فيذكر لنا أكابر الرحال ، وفطاحل الشعراء الذين أنجبتهم حورانه ، والذين مازالت ذكراهم تعطر صفحات

التاريخ والسير ، فتشهد لهم بالعبقرية والنبوغ ، اللذين سيظلان خالدين على مر الزمان ، وتعاقب الأعصر :

وللأعلام لمن أنجبتهم | معالم لاتحول ولاتزول

ويسدل الشاعر الستارة في آخر القصيدة ، ونحن مأخذون من روعة التصوير وجلال المشهد ، نتابع الحلم الجميل الذي وضعنا فيه بقدرة ساحر ، فنفرك عيوننا مذهولين لنتأكد من أننا في الحقيقة أم في الخيال ؟ ونستيقظ فلانجد غير عَبَق التاريخ وعبير الذكريات .

الغزل في ديوان عبد الكريم ...

الغزل همٌّ من هموم الإنسان على هذا الكوكب ، وكلّنا يتعلق بهذا الهمّ ويتمنى أنْ لاينجوَ من حبائله ، فالغزل لائطٌ في قلوب العباد منذ أن درجوا على هذه البسيطة ، وأنشد الإنسان في الشعر وهو بعد في المغارة ، وذلك حين اكتشف العلاقة الحلوة بين الوردة المتفتحة على الرابية ، وبين ثغر الأنثى التي تشاركه مغارته... حين اكتشف المشابهة بين ليله الطويل ، وبين الليل الطويل الطويل في عتمة جدائلٍ مستعبدته في كهفه المسكون ، ومن يومها أصبح الرجل شاعراً ، والمرأة مُلهمةً وموحيةً ، كل بطريقته الخاصة ، وأسلوبه المتميز .

والشعراء هم أكثر الناس موتاً في العشق ، لأن الشعر والعشق يتغذيان من لبان واحدٍ هو الإحساس ، ومَنْ أكثر من الشاعر إحساساً ؟! لذا كان قدراً عليه أن يعبر عما يحسُّ ويشعر ، وأن ينشد آهاته قوافيَ على امتداد ليالي الشوق والضنى .. فلاغرابةَ إذاً ،

إذا شكل الغزل في ديوان ألحان من اليرموك قرابة الثلث ! فما هو نوع هذا الغزل ؟ وماالحمته وسَداهُ ؟

في سبيلنا للأجابة لابد من أن نتبع الطريقة المدرسية تقريباً للأفهام فنقول : إنَّ الشعر الغزلي في ديوان الحمصي من النوع العذري العفُّ الذي لايتعدى ماتسمح به الشريعة ويجيزه المجتمع المحافظ . وهو يشتمل على باقة مونقةٍ من قصائد الغزل، يُطالعنا أوّل مايطالعنا منها قصيدةٌ على شكل رسالةٍ موجهةٍ إلى التي أحبها الشاعر ويحدثنا فيها عن وليفته التي يتمنى على الله أن تكون له فيئاً في الصيف . وشمساً في الشتاء ، لينعم بقربها ويكرع كؤوس الحبِّ حتى الثمالة . ثم يحدثنا كيف ظلّ يذوِّب حشاشته في الحبّ حتى تلاشى في ذات المحبوب ونسي نفسه ، فغدت محور إلهامه ، وموحية أشعاره ، والوتر الذي يعزف عليه نفسه الملحنة . إنها أمسه وحاضره وغدهُ ، فلاغرابة إذا لم يعد يشعر بغيرها من ساكني هذه المعمورة ، كلُّ ذلكَ في أقانيم صوفيةٍ بارعةٍ ، يقول :

إذا ماالصيف جاء تكون ظلي	وفي برد الشتاء تكون شمسي
أذبت حشاشتي في الحب حتى	ذكرتُ حبيبتي ونسيت نفسي
وصرتِ لدي إلهاماً وشعراً	وألحاناً لها يهتز رأسي
فيومي أنت أحيا فيه عمري	وأنت غدي وبعد غدي وأمسي

نلحظ من خلال غزل الشاعر بصورةٍ عامة . وغزله في هذه القصيدة بالذّات ، أنَّ الشاعر لايتبذل في غزله ، ولايسفُّ فهو ليس ذلك الشاعر العمري المأخوذ بالنساء ، الذي يستبيه الحبّ، ويجرجرهُ الهوى وتتعتعهُ الصّبابة ، وتكتسحهُ نضارة الجسد البض الجميل ، أو يسحره الخصر النحيلُ ، واللّحظ الكحيل ، والهدبُ

الطويل ، والخدّ الأسيل . ولاتنهش أيامه ولياليه ذكرى الزيارات الليلية لمرابع المحبوب ، أو مواعيده المشبوهة في حقاف عقنقل . ولاتلفت طرفه المحرَّمات الجسديّة التي تأباها ثقافته القرآنية ، وما تمثّله أعرافُ أسرته المحافظة ومُحيطه الصّارمُ اللذان لايتساهلان في مثل هذه الإنزلاقات العاطفيّة المحظورة . ومن أجل ذلك نصادف غزلاً جافاً لارواء فيه ، ولاتسيل من حواشيه رقة الحبّ، وحرارة العلاقة، ودفء القلب ، وشهد الرضاب . بل على العكس نجد الشاعر عفَّ اللّسان . نقيَّ السريرة ، يجاري الشعراء العذريين في طرائقهم ، ترفعاً وتعففاً ، وحرصاً على سُمعة المحبوب ، ونقاء للسّيرة ، وطيب الأحدوثة عنه ، بل ربّما كان أقلّ جرأة منهم ، فلنستمع إليه يتغزل بزوجه من قصيدةٍ طويلةٍ : يقول :

وأقولُ : يازوجي الحبيبة أنت لي

«عذريّتي » و«سكينتي» وعفافي

أرأيت كيف يُغلف غزله بغلالة صوفية تظل تجول في خياله ، حيث العشق الالهي بغير حدودٍ ، فتظهر بتعبير هنا ، واصطلاح هناك ، واسمِ لعلمٍ من أعلام الصوفية بين هذا وذاك ، كما مرّ معنا، ويظلّ الطهر والعفاف غموسه.

وإنْ أسْرفَ الشاعر في غزله – ولا أظن إسرافاً في الغزل – في غفلةٍ من ربة الشّعر وتمادى في وصف أعطاف المحبوب ، فإنه لاينأى بعيداً في طرائق الوصفِ المادّي حيث الضّلالة ، وإن أحوجهُ ذلك ولجأ إليه ، فبالرّمز حيناً ، وبالايحاء والتلميح أحياناً أخرى ، ولكِنْ على ألسنة الطير في بعض الأحايين ، كقوله :

زوجان من أهل الهديل تعانقا

وتطوقا بالإلف والإيلاف

أرأيت ؟ كيف يأبى أنّ يصرّح أمامنا بعناقه لزوجه وهي حلاله ، كي لايخلش عرق الحياء الراجف فيه ، فجاء بمعناه المراد عن أورقين يتنا وحان بالالف والايلاف . وإنّه ليوغل في العفة حتى يبزّ العذريينَ ويُخلفهم وراءه إنّ قصّر عن محاكاتهم .

وتظل الأخلاق العربية الأصيلة هاجسة وحاديه ، يتوكأ عليها، ويستهدي سبيلها ، وحتّى وإنْ لم تكن موجودةً على أرض الواقع ، فإنه يفترض وجودها ، بل لابدّ له من أن يقررها ويلزم قارئه باعتناقها ، كقوله على لسان زوجه :

لك صاحيت بأن أكون أميرةً	عربية الأخلاق والأعراف
إنْ أنت غبت وأن حضرت فأنت	في نفسي وفي قلبي وفي أعطافي

وتمر قصائد الغزل الكثيرة على هذا المنوال ، كقصيدة «لقاء حرج» و «حلم عاشق» و » « كل إناء بالذي فيه ينضح» وفي هذه القصيدة يبدأ بمقدمةٍ وصفية يخلص منها إلى موضوعه الأصلي وهو الغزل ، حيث يبدأه بحواريةٍ : وقال لها ، وقالت له ، منها :

فقدت لساني حين جئت مُكلماً	فخاطبها رمش وجفن مقرّح
وقال لها : آن الأوان فأقبلي	سامنحك القلب الذي ليس يجنح
فقالت له : دعْني ، فإني مسافر	إلى روضةٍ أخرى ، أغنّي وأمرح

وهكذا تمضي القصيدة بين القال والقيل . وحين نصل إلى قصيدة «كيف ذلك» نجد أنّ الشاعر ينحو فيها منحى عمود الشعر؛ حيث يبدأ القصيدة بالوقوف على الأطلال ، ثم يشكو النصب والبعد والهجر ، ويتذكر أيام الوصل والقرب ، وماكان يتخللّها من لقاءات الصّبا البريئة وألعابه المحببة ، وكيف كانا يرسمان

في هواهما على نقا الرمل بغير أقلام وغير مداد ، حتى يحين الوقت فيدخل إلى غرضه الرئيسي، وهو العودة إلى أيام الحبّ الأولى حيث الإشعال والإشتعال ، والعتب والإعتاب بين الحبيبين ، كقول :

وعلى الحصى والرمل نرسم حبنا ... من غير ما قلم وغير مداد
أو لم يئن يا قلب عودتنا إلى ... دنيا الطفولة فوق ألف جواد
ولقد أصبت ومهجتي مشغولة ... والمقلتان ، بنجمك الوقاد

ثم تمر قصائد أخرى كثيرة كقصيدة «كيف تختارين» و «الحب المستحيل » و «مثلما وافق شن طبقه » حيث تتجسّد شاعرية الشاعر التي يحاكي بها نزاراً ، حتى الألفاظ والصور ، فإنّها تصبُّ في بحيرة نزارٍ ، كقوله في مطلع القصيدة :

إنّ إعلانات حبي ملصقة ... فلماذا تحرقين الورقة ؟
إنّ من يهوى حريراً خالصاً ... فهو مشتاق لموت الشرنقة
أشرق الأشعار من أجفانها ... وأخي في الفؤاد السرقة
فيكم ما أشتهي من منظر ... وجمال جلّ من قد خلقه

وتستمر القصيدة ترقص أمام عينيك بأثوابها الزاهية ، وحللها القشيبة ، وعطرها المتدفق الذي يصحبك طوال رحلتك عبر أفياء القصيدة وحتى خروجك من أجوائها والعروج إلى أبراج غيرها من القصائد، كقصيدة «قبلة من رحيق» ثم قصيدة «أوتار عودي» وتطالعك في هذه القصيدة «نأمة مغايرة » تشم منها رائحة المتنبي من حيث السبك المتين ، والقافية الدالية ذاتها ، وإن اختلف الوزن. يخاطب فيها الحبيبة التي خفرت الذمام ، وخانت العهود ، وأخلفت الوعود ، ككلّ بنات جنسها . فيشكو همة الناصب ، وهجره

اللاغب ، ومرّ الصبر وقلة الصاحب ، ويطالبها بالعودة إلى الحمى :

هجرتـــني دون ذنـــبٍ ... عـــودي إلى الحـــيّ عـــودي
خفـــرت في كـــلّ وعـــدٍ ... ومـــا خفرتُ وعـــودي
في الحـــبّ زاد قيـــامي ... وقـــلّ عنـــه قعـــودي
وكنـــت درءَ نحوســـي ... وكنـــت فيـــض ســـعودي

ثم نمر على قصيدة بعنوان « دون نذير» حيث يمتزج الحبّ بالطبيعة على طريقة الرومانسيين ، ولكن دون الاستغراق في بحار الرومانسية الكئيبة ، لا بل يظل الفرح يطفر أمام عينيك على شفاه الحروف ، كقوله :

هجمَ الربيعُ عليّ دون نذير ... فاستسلم العصفور للعصفور
الخضر عيناها ، ربيع دائمٌ ... رحلت إليه ، بلابلي وطيوري
فكأنما هي جنّة تمشي على ... وجه الغمام ، بعالم مسحور
فرأيت منك الحسن دون تجمل ... وشممت منك الطيب دون عطور

ونتنقل بعدها إلى قصيدة «اللذة في ألم الحب » وقصيدة «بعض ردودي» إذ تزدهي اللغة في هذه القصيدة وتزهر ، وترفل المعاني بزينةٍ باذخةٍ من زخرف النظم ، وتتقطر الحروف شهداً على شفتيك ، وتتدفق شلالات الورد والعطور ، فتسد طريقك ، وتحتجزك في أيكةٍ نشوى من العندلة و التغريد ، يقول :

مرّت «رباب» تجر ثوب العيد ... ونجوم لؤلؤها بنحر الجيد
كسحابةٍ بيضاء من أعطافها ... هبّ النسيم ، فهز روح العود

سيلٌ من الورد الطريّ كأنها	فوق الطريق الواسع الممدود
وكأنها سرب الطيور تقاطرت	لجماته نشوى من التغريد

وتطالعنا بعد ذلك قصيدة «من أنت» وهي ذات نكهة خاصةٍ ومذاق جاس، لأنها تفيض بالشكوى ، وتضج بالاكتواء بنار الهوى، لأنَّ «أمنية» محبوبته قتلته بحبّها ، وصيرته فحماً متوقداً ، فلا الأيام ترحمه وتنسيه ، ولا الأصبحة تلملم الظلام المرعن أجفانه يستغيث بحبيبته أمينة هذه فلا مغيث ، ويستصرخها فتزداد إمعاناً في ذبحه ، وتجعل عظامه أنابيب تصفر فيها رياح الضنى ، فيقول :

عطفاً «أمينة» فالجوى أضناني	وغدوت عوداً دائم الرّجفان
عطفاً «أمينة» إنّ حبك قاتلي	وعجيب قتلك ، أنّه أحياني
وحرقت فيك ونار حبك عوّدت	قلبي ليعشق موقد النيران
قد صرت فحماً أسوداً متوقداً	وبياض ثغرك دائم اللمعان
ليلٌ أنا والصبح أنت فلملمي	هذا الظلام المرّ عن أجفاني

ثم يتوسل إليها أن تطلق سراحه ، وتفك قيود يديه ليسطر في حبها أسفاراً خالدةً عبر الزمن ، وليقول فيها قصائد ترتل بقدسيةٍ وتهجدٍ على أعتاب هيكل حبها ، يقول :

فكي قيودي من يدي وهات لي	قلماً لأكتب مايسرّ جناني
لأقول فيك قصائداً قدسيةً	مغموسةً بعواطفي وحناني

ثم يسألها : من أنت ؟ وهو عليم بمن تكون ، فهي في الشّرف الأعلى من قيمة في الحياة ، وهي كلّ ما في دنياه ؛ وهي أعز الرؤى

في عيونه ، وهي مهجته التي تمنحه الحياة ، ولسانه المسبّح بحمدها . إنها تمتزج بروحه وعقيدته ، حتى أنه تلمّسها وادعة هانئة بسورة الرحمن ، فالله يشهد أنها مطهرةٌ نقيةٌ خالدةٌ في فكره وقلبه ، وماعداها فزائل فانٍ إنها زوجته أم أولاده . يقول :

من أنت؟أنت شهامتي و كرامتي ... وعزيمتي ، وشكيمتي ، وسناني
من أنت؟أنت الروح تجري في دمي ... والعين أنت ، ومهجتي ولساني

إني رأيتك بالكتاب ونصّه ... بين الخيام ، بسورة الرحمن
شهد الإله ، وكل شيء شاهدٌ ... أنت الخلود ، وكل شيء فان .

ثم نقع على القصيدة الغزلية قبل الأخيرة بعنوان «الحب يهدم الأسوار» وقد أرادها الشاعر ، ولأول مرةٍ في الديوان ، مُتعدِّدة القوافي ، دونما نظام ؛ فمرةً مفردةً ، ومرةً مزدوجةً ، ومرةً غير هذا وذاك .

وأمّا القصيدة الأخيرة فهي بعنوان «الحب الصامت» وفيها يشرح الشاعر مذهبه في الحب ويبين لنا صلابة المبدأ في الوفاء الذي لايحيد عنه ، ولايتقلّب فيه مهما تقلبت أحوال الدنيا والناس ، ويدلل على ثباته في الحب بأمثلةٍ كثيرة ثابتةٍ كوجود الشمس في هذا الكون ويصدق في حبّه حتّى وإنّ كذب فيه جميع النّاس ، يقول :

تتقلب الدنيا ولا أتقلب ... فالحبُّ عندي في المذاهب مذهب
كم تغرب الشمس الأصيلة إنما ... شمسُ الهوى في خاطري لاتغرب
ولقد صدقت الحبّ رغم تمزقي ... فيه ، وكل الناس فيه تكذبُ

ويشير الشاعر إلى تقوّل بعض الناس أنّ قصائد الشاعر في حبّها قليلة ، فيرد عليهم بأنّ الحب الحقيقي هو الحبّ الذي يسمو على المقاطع التي ترددها الشفاه ، فهو إنْ نطق به فإن نفسه تذهب معه وتتلاشى ، لذا فإنّ حبه صامتٌ مختفٍ بين أضلعه وفي أعماق روحه ، يقول :

قالوا : القصائد في هواك قليلة	فهل الهوى: شِعرٌ يُقال ويكتب؟
الحبُ عندي صامتٌ فلو أنّه	نطق الكلام ، فإن نفسي تذهب
الحبُ صمتٌ مختفٍ في أضلعي	ومجاله روحي ، أعزُ وأرحبُ

الإخوانيات في ديوان الشاعر

الإخوانيات غرض شعري بارز في ديوان ألحان من اليرموك . وهو من الأغراض الشعرية المستحدثة في الأعصر العباسية المتأخرة . وماتلاها من أعصر . وهو غرض شعري مستحب ، لمافيه من عاطفة جميمة ، وصدق في التعبير ، واتجاه إنساني جديد في الشعر ، يجعل منه معرضاً للعواطف الإنسانية الحية النابضة ، ومستنبتاً لقيم أخلاقية جديدة ، تتناسب مع المتغيرات التي طرأت على البنى الاجتماعية . ستنمو مع الأيام وتؤتي أو كلها .

وتنتقل بالشّاعر نقلة حضارية حينما ينتقل بانتماءاته وارتباطاته إلى هذا المستوى الرفيع من الأخوة : كأخوة الأدب ، وأخوة العلم وغيرهما ، فتصبح الرابطة أو القرابة فكرية واختيارية بمحض إرادة الكاتب أو الشاعر الحرة . بعيداً عن الانتماءات السابقة العصبية ، كالقبلية ، والعرقية ، والقومية ، والدينية ، والمذهبية ، والسياسية . والاقليمية وغيرها .

أولى قصائد هذا الغرض في الديوان «رسالة شكوى إلى أبي عصام» وأبو عصام هذا كاتب وناقد من أصدقاء الشّاعر ومعاصريه اسمه عليّ المصريّ ، يفيء إليه هو وأصحابه كلما اشتدت الخطوب. وقد استهزأ أحدهم من الشاعر قائلاً : «دعك من الشعر ، فالشعراء مجانين» أغضبَ الشاعرَ صيغةُ الخطابِ ، لا بل ضربَ الغضبُ كزلزالِ عُمقَ أعماقِ الشاعر وهزّ كيانه .. فهو يرفض مقولة: الشّعراءَ مجانين . فقد أُتهم قبله الأنبياء والمرسلون بالتهمة ذاتها .. أوليست الرّسالتان إلهاماً؟؟ أوليسوا هم أعقلَ العقلاء ، يقول :

لاشكّ أنّ الشّعر فيضُ جنون	ومن الجنون تُصاغ كلّ فنوني
إنّ الجنون ضرورة في حينه	وكذا التّعقّل قد يضرّ بحين
مجنونُ ليلى ظلّ من عقلائهم	أعلى ، ومازلتم بأسفل دون

ويصفُ الجنونَ بعد ذلك بأنّه حالة ذكاء ونباهة مفرطة عند الخلائق التي تشرب كلّها من نهره . ويؤيّد رأيه هذا بما نعت به الأنبياء والرّسل من قبل أعدائهم المعاصرين لهم. حتى إنّه لم يبق عبقريّ في هذه المعمورة إلاّ وصفوه بالجنون ... ومن أجل ذلك لايضره أن يوصف بالجنون ، لأنّ هذا دليل تفوقه على شانئيه ، يقول :

في كلّ إنسان ذكي نابه	بعض الجنون،وليس في المسكين
والعشقُ نوعٌ من جنون جامح	من ليس ذا عشق ، فلا يعنيني
والأنبياءُ على المدى وُصِفوا به	ممّن يعاديهم عداء الدّين
لم يبق إنسانٌ عظيمٌ في الدّنا	إلاّ وقد وصفوه بالجنون
فإذا وصفتُ به فليس بضائري	أبداً سأبقى فوق من وصفوني

ثم يعرض الشاعر أمامنا آراء كثيرة تؤيدّ ما ذهب إليه ، وتعزّز موقفه ، فيضرب الأمثلة المتعددة ، ويسوق الشواهد المؤيدة ، إلى أن يصل إلى صديقه أبي عصام ، يشكو إليه أمّةً لا بَصَرَ لدى بعضها ولا بصيرة إلاّ الصفوة المختارة من أهل الفضل منهم ، ويحترمهم الشاعر ويجلهم ويدين لهم .

ثم يستنجد بصديقه الذي يعرفه حق المعرفة ، ويقدر موهبته الشعرية حق قدرها ، ويدافع عنه ويعينه ويسعفه ما وسعه ذلك . ثم يختم قصيدته التي يهب حروفها وهج النجيع الأحمر في عروقه ، ويعاهد نفسه أن يدافع عن قدسيّة الحرف فيها بحد سيفه الصقيل ... فيقول :

أأبا عصام جئتُ أشكو أمّةً	من غير أفئدةٍ وغير عيون
والفضلُ يعرفه الفضيل سجيّةً	إني لأهل الفضل جدُّ مدين
أأبا عصام أنتَ تعرفُ من أنا	وأنا عرفتكَ مسعفي ومعيني
مازلتُ أعطي الحرف سيلاً من دمي	وأذُبُّ عنهُ بسيفي المسنون

ثم أعقبها برسائل كثيرة ، منها رسالة من زوجته ، ورسالة شكر إلى أبي مؤيد ، ورسالة عتاب بعنوان أيها المتشائمون ، ورسالة إلى ولده ، وأخرى إلى الشاعر محمد عياش ، وغيرها ...

الرثاء غرض من أغراض الشاعر ...

الرثاء غرض من الأغراض الشعرية السامية في الشعر العربي ، إذا كان الباعث عليه العاطفة الصادقة ، والوفاء الحق ... ويعتبر الرثاء من صميم الشعر الوجداني الذي يبكي فيه صاحبه شخصاً مفقوداً عزيزاً ، ثم ينتقل إلى ذكر مآثره وفضائله .. وقد طفح

الشعر العربي بهذا النوع من الشعر .. وعـدّوه غرضاً مـن أغـراض الشاعر التي ينبغي أن يجيدها . حتى إن سائلاً سأل أعرابياً : مابال مراثيكم أشرف أشعاركم؟

فأجاب : لأننا نقولها وقلوبنا محترقة !..

وفي هذه الكلمة وضع الأعرابـي دستوراً لشـعر الرثـاء الجيـد الذي ينبغي ألاّ يخرج إلا عن عاطفة صادقة .. ولاشك أن ما ذهـب إليه هذا الأعرابي حقيق بالنظر وجدير بالاعتبار . لأن الوقوف أمام الموت يبعث الرهبة ، ويشيع الأسى واللوعة. وليس في الموت عبـث لعابث ولا هزل لهازل .

وسئل البحتري عن شعر الرثاء فقال : «أنما ينبغـي أن يكـون الرثاء أجود من المديح ؛ لأن الرثاء صفة للوفاء ، ولأن المديح يبتغـى به العطاء ، فيمكن أن يكون جيـداً ، ويمكـن أن يكـون رديئاً لأنـه صدر عـن حاجـة . وأمـا الرثـاء الحق فهـو الـذي يعبر عـن الوفـاء والاخلاص ».

وفي ديوان ألحان من اليرموك ثلاث مراثٍ ، لثلاثـة مـن خـيرة رجال العصر . لكنه لم يتبع برثائه مناهج الأقدمين ، وإن أتـى على كثير من قيم الرثاء القديمة الثابتة كالشجاعة والنجدة وغيرها ... بل كان مجدداً في مراثيه ، وركز جل اهتمامه على الصفة الـتي تفوقـت بها تلك الشخصية المرثية ، وجعلها وكْدَهُ.

ففي مرثيته «سـيف مـن اليرموك .. إلى روح المجاهد الشيخ مصطفى الخليلي» الذي كان علماً من أعلام الثورة السّورية ، إبّـان الاحتلال الفرنسي ، بل آخر من وضع السلاح من الثّوار .. والذي لم يأخذ حظه وما كان يستحقه من التقدير ، من قبل أولئك الذيـن خوّلوا لأنفسهم كتابة التـاريخ على هواهـم .. فغيّروا وبدّلـوا مـا

شاءت أهواؤهم وما زالوا يزورون .. ركّز الشّاعر على شجاعة المجاهد المتصلة بشجاعة السّلف الصالح ، والراسخة في أرض حوران .. ثم عرّج على خلة أخرى هي النجدة ونصرته للعرب والعروبة بحد السيف يقطر بالدّم القاني ، لا بالأقوال المنمقة :

ياشيخنا ياخليلي، ياابنَ حوران   هذي البطولاتُ منْ أبناء غَسّان
أرضُ العروبةِ تمسُ الضيْمُ ساحتها   فرُحت تتلو «بلادُ العربِ أوطاني»
كأنَّ ملحمةَ الطّاني التي كُتبتْ   السيفُ أصدقُ أنباءً لذي شان
كتبتها مرةً أخرى بلا قلم   وإنّما بسيوفٍ منْ دم قان

ثم يربط تاريخياً بين ملاحم البطولة في اليرموك أيام الفتح ، وبين بطولات الشّيخ المجاهد الحديثة ضد قوى الشّر .. بيزنطة بالأمس ، وفرنسا اليوم :

أخذتَ سيفاً من اليرموكِ مُنْصلتاً   طوى «بزنطة» منْ أبناء رُومان
عادتْ «بزنطا» فرنسا فانبعثت لهم   جناً وهَلْ قدروا يوماً على الجانِ؟

ثم راح يصف تخطّفه بحد سيفه لجنود الأعداء وفتكه بهم ، بجنود النّبي سليمان وجنّة ، لا بل يصفه بأنّه كان جيشاً لوحده ، ومن أجل ذلك لم يشمله العفو الذي أصدرته فرنسا عن الثوّار ، بل أحرقت بيته تحت سمع الناس وبصرهم :

ورُحْتَ تخطفُهم خطفاً يُروّعُهم   كأنّما أنتَ منْ دُنيا سُليمان
عفَتْ فرنسا عن الثوار أجمَعِهم   إلاّكَ يا مَنْ تُعادي كُلَّ عُدوان
قد كُنْتَ وحدكَ جيشاً لانصيرَ لهُ   إلاّ هواكَ لأرض مالَها ثان

وحين وضعت الثورة أوزارها ، عاد من منفاه في الأردن يجر مطارف الظّفر اختيالا ، ليبقى المثل الأعلى لكلّ المجاهدين بحوران

على مر الأجيال وتعاقب الأعصر ، وصخرة صلبة تتكسر على أقدامها أحلام الغزاة والطامعين :

حتى إذا الحربُ أوزاراً لها وَضَعَتْ ... وغدتَ عودةَ منفيٍ لأوطان
وغدتَ ترفلُ بالنّصرِ الذي صَنَعَتْ ... يَداكَ يا صخرةً في سهلِ حوران
حورانُ تفخرُ بالصنديدِ ثائرها ... وبالميامين مِنْ نجدٍ لتطوان

ولهذا حقيق بحوران أن تفتخر بهذا المجاهد العظيم الذي سطّر أروعَ ملاحم البطولة على سفوح روابيها وضفاف وديانها ، مثلما تفخر بكل العرب الميامن في شرق البلاد وغربها ، من تطوانها إلى نجدها.

هذا نموذج من نماذج الرّثاء في ديوان ألحان من اليرموك . وهناك مرثية أخرى بعنوان «الوتر الخالد» ينعى بها موسيقار العرب الأول الاستاذ المرحوم محمد عبد الوهاب هذا الوتر الخالد الذي خلّد على الزمن مجد الموسيقى العربيّة .. والشّاعر كما قلنا يركز في مراثيه على صفات رئيسية في المرثي ، ثم يفتق فنون القول حولها . وهنا تتمحور المرثيةحول الصّوت المعجز ، والموسيقى الخالدة ، يقول في مطلع القصيدة :

أيّها الصّوتُ الذّي ليس يُعادْ ... رَقَّ حتّى كادَ أنْ يُحيي الجمادْ
سَكَبَ الألحانَ نهراً خالداً ... شفَّ منه كُلُّ غِرّيدٍ وشادْ

ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن أثر هذا الصّوت في نفوس العباد وكيف جمع شتات هذه الأمّة بموسيقاه . وعن مكانته في تاريخ مصر الحديث ، ويشبهه بالنيل فيضاً وعطاء.

ثم ينتقل بنا إلى مرثية ثالثة بعنوان «النورس العربي» وقد أهداها إلى روح الشاعر عمر أبو ريشة ، نهج بها طرائق الأقدمين ، مترسماً خطى أبي تمام في رثائه لمحمد بن حميد الطوسي ، بتهويل الخطب وجعله أعظم من أن يحدّ ، وأكبر من أن يوصف فالمصاب بأبي ريشة كارثة دهياء حلت بالقوافي والأدب . وليس لهذه الكارثة دواءً أو عزاء ، يقول :

جاء النعيُ ، وليته ما جاءا	حمل اليراعة آلة حدباءا
عمرٌ وكارثةٌ ألقوا في صمتها	ارى لكارثة الأديب رثاء

ثم ينعي الوطن الكبير فيه ، وينعي الأبجدية التي نمت على يديه وشبت على قوافيه ، فأرضعها من ألفها إلى يائها نسغ الحياة وإباء العنفوان . ويكبر بعد ذلك مكانه الشعراء والأدباء في حياة الأمم والشعوب من آدم حتى يوم الناس هذا . ومما يقوله :

يا أبجدية أمّة علّمتها	ألفَ الإباء أصيلةً والياءا
هم روحٌ هذا الكون قبل نشوره	كانوا له الإصباح والإمساءا
قد صار آدم شاعراً متمكناً	لمّا تعلّم أدمُ الأسماءا

والقصيدة طويلة تقارب الأربعين بيتاً ، يتقلب فيها الشاعر بين المعاني الرائعة ، والقيم الموحية الجديدة ، وتستحق الوقفة أمام جلال هذه القصيدة أمسية كاملة ، أرجو أن تكون ، وإن غداً لناظره قريب .

الأغراض الشعرية الأخرى:

«مع أبي تمام بعد ألف عام» مطّولة شعرية تقارب المئة

والعشرين بيتاً من البحر البسيط ، وعلى القافية البائية المكسورة التي بنى أبو تمام عليها ملحمته الرائعة في مدح المعتصم يوم فتح عمورية « السيف اصدق أنباءً من الكتب » .. والتي لايجوز بأية حال من الأحوال لدارس الأدب العربي إلاّ أن يمر عليها ، وإلاّ اعتبرت معرفته ناقصة .

أظن كذلك أنه ليس في مكنة دارس للشعر العربي في أرجاء حوران ، أن تتم له مثل هذه الدراسة دون أن يطلع على هذه القصيدة الرائعة ، ويلم بكل ماجاء فيها ، لأنها سفر التكوين في شعر حوران الحديث .. بل وأعتبرها قمة ماقيل في الشّعر العربي بحوران ، ثم تتدرج دونها القصائد والمقطعات .

ولاظن أن الوقت يتسع لسماع هذه القصيدة الملحمة ، ناهيك عن الوقوف أمام زحوف معانيها الغزيرة ، وأوابداها التي ستخلد كشقيقتها على مرّ الزمان ، ويكفيني أن أحيلكم أيها السّادة إلى ديوان الشاعر «ألحان من اليرموك» لتنعموا بمعانيها كما نعمت، وتستظلوا دوحها كما أقلت .

وهناك مطولة أخرى بعنوان «عكاظ عبر الزمن» شدا بها الشاعر الحمصي بعد خروجه من بيت صديقه الكاتب علي المصري، ملتقى الأدباء والشعراء على مدار الفصول - إذ وجد ندوة أدبية تتدارس شعره في غيابه ، وقبل أن يضمه ديوان بين دفتيه . فخرج وقد فرخ في روعه شيطان الشعر ، وقد أرضت هذه البادرة كبرياء الشاعر الجريحة ، وهيجت كوامن أشجانه ، وأشعلت النيران في غابات قريحته الشعرية ، فنفثها من روحه ، وأودعها ماكان يسكن بنفسه ويتحرك في خاطره ، وما كان يسافر في مجاهل أبجديته المشتعلة .. ولا أريد أن أطيل عليكم ، ولكن أرجوكم أن

تعودوا إلى تلك القصيدة الجنة ، حيث الثمار يانعة ، والأعتاب دانية القطوف ، تسر الناظرين .

وفي الديوان لون جديد من الشّعر نسميه الشّعر الإنساني ، الذي يتخطى حدود الذات ، ويتجاوز أبعاد المكان ليشارك الإنسانية أينما كانت في نضالها ضد قوى الظلام والطغيان ، ويواسيها في احتمال كوارث الطبيعة والشّيطان .. من هذه القصائد «رسالة إلى نلسن مانديلا» و «زائرة من الصين » و «جدار برلين».

ولايخلو الديوان من الحكمة ، حيث يصبّ الشاعر فيها خلاصة فكره ، وعصارة تجاربه في هذه الحياة ، وربما صاغ بعض هذه القصائد على شكل قصة شعرية كما في قصيدته «أهل الحرف» وربما جعلها قصة رمزية على لسان بعض الحيوان ، لينجو من مقص الرقيب .

كما صنع في قصيدته «الجرادة والغراب» . وربما أرسلها على رَسْلها كما صنع في قصيدته « كيف تختارين» . أو يضمنها تشاؤمه وخيبة أمله كما في قصيدته «خيبة أمل » وغير ذلك من الأغراض المتناثرة في الديوان على امتداد مئتين وسبع وسبعين صفحة.

اللهم لقد اجتهدت ، فإن أصبتْ فهذه غايتي ، وإلاّ فحسبي الله ونعم الوكيل ، أنت مولانا ، فسدد خطانا ، وانصرنا على القوم الظالمين .

صُوَرْ

وحيداً ...

وغابَ القمر ...

وأطبَقَ صَمْتٌ

وماتَ الخَفيفُ

سَرَحْتُ .

وَعادتْ ألوف الصُّورْ

شَريطُ الزّمان يعود

بشكلٍ كثيف

يَقُصُّ الحكاية ، تلو الحكاية ،

بلاربطٍ لايُداري .

يقص بشكلٍ سَخيفْ

ويرمز بالشكل يروي العِبر....

بكاءُ الخليفةِ
– بعد الصلاة –
بقصر الجواري
ضياعُ الممالك منْ غير حربٍ
ومُرّ الفراق
وبُعدُ العراقِ
وطول الأسى والضجر ...
***
وحيداً ....
أمامي شَمعه.
بقلبي نارٌ
بعينيَ دمعةْ
أعيناي للدّودِ ؟!!
ياللقدر !!
وقلبي نسغ شهيٌ
تفتشُ عنهُ جذورُ الشَّجر ...؟
رأيتْ بعينيَ وجهَ الحبيبة ،
وأسكَنْتُ قلبيَ أرضاً سَليبةْ
وقربَ الحدود اجتمعنا ،
وسرْنا معاً لانبالي

همومَ البشر ...

وسِرنا معاً لانبالي ..

لِنَرسمَ بالحبر خدَّ القَمَر ...

ونُشكل بالورد شعر القمر ..

وعدنا ...

إلى عالم ليس فيه سوانا يبوح

لطيف عَبَرْ ...

ويَشرحُ للوردِ سِرَّ الذُبولِ

وسرَّ النّماءِ

وغدر الخليفة بالناس

ضَعفَ البَشَر ..

تُرى .. هَلْ تموتُ الطيوفُ العذابُ وتفنى ؟

وتفنى عِذابُ الصُوَرْ ..؟

***

وحيداً ...

أمامِيَ كُلُّ الخليقةْ

نُرِيءُ تجشئاً تخمةْ

ويَلعَنُ غدر الإله

فقير يُفتش لقمة

ويحمد خير الإله

مسُجون تغص بأسرى

يرون الحياة خيال

وسّجان ضاق القميص عليه ،

يخاف الضحى والزّوال

وكلّ يؤرّق قبل المنام

يلوح لعينه طيف المحال

يلوبُ يُفتشُ في كل ركنٍ

ويخنقهُ الأسى والألم

ويسأل يامنْ حَصَدتمْ هشيماً !!

إلى أين نمشي ؟

وكيف الخلاصُ ؟

وأين المفرّ؟

***

وحيداً ... أُخاطب أهلَ المقابرْ

تُرى تسمعون؟

ترى تشعرون بما نحن فيه ؟

بقلبيَ جرحٌ عميقْ

بصدريَ بركان نارٍ يفيق ..

لأشعل كلّ العيون بريق ..

لأشحذ كل السّيوف

وكلّ الفؤوس ..

لاصهر كلّ العقول

وكلُّ النفوس ...

أفيقوا ... أفيقوا

وحيداً أنادي

ألا تسمعون ؟

ألاتشعرون ؟

أأبقى وحيداً ؟

بغير لسان

بغير عيون .

كَشَعبيَ أنتم نيامٌ

كَشَعبيَ من صيحةٍ تهمدونْ

أرانبُ من طلقةٍ تهربون

كَشَعبي عَنْ وحدةٍ تحجمون ؟

الأغتـــراب
والرحيل عن الذات

في شعر يوسف الصيّاصنة

«لم يكن تعريج الشعر على الفروسية ، خرقاً للسـنن .. كما يتوهم من يعجزون عن الحكمة .

فالشعر ؛ نزعة تصوّف ، واغـتراب رؤى . يترجمها الفرسان الشعراء مواقف ، أقلها مشقةُ سيفٍ .

والفروسية ؛ نزعة حنين ، لامتلاك مُثل .. إن قصُر باع الشعر عن إدراكها بشكة رُمح .. لم يفته منالها بكلمـةٍ ، هي أنفذ من سنٍّ ذاكَ .

فكلاهما – الشّعر والفروسية – في البدء .. رحيل عن الأنا ، إلى أخرى في البال .

وكلاهما في المنحى ... استدراج لتركيع محال» ....وبَعْدُ:

الإغتراب نزعةٌ عميقةٌ في زمننا السائب هـذا . يتقاسمها شعراؤنا كلٌّ حسب قدرته علىالإحساس بهذه الغربة ، وتبعاً

لتغلغلها بأركانه الجوانية .. وكلما زاد الشاعر حساسيةً ووعياً ، زاد حدة ، وتوحداً ، واغتراباً .

وليسَ السببُ في الاغتراب هذه الحساسية فحسب .... بل السبب هو هذا التناقض الكبير ، بين مانقوله ، ومانفعله .. بين مانحس به ، ومانُعبِّر عنه ... بين مانعتقده ، ونفصح عن غيره .

السببُ هو عدمُ التقنين في لُغتنا .. والإسراف في مفرداتنا ... والتعهر في عواطفنا .. والمغالاة في أفراحنا ... والدّجل والرقص على الحبال في أحزاننا .

فلاغرو ، والحالة هكذا ، إذا أنشدنا الشاعر يوسف الصياصنة، توحّده واغترابه ، من خلال إحساسه الدّامي بتوحده ذاك ، وشعوره المأساوي باغترابه . التوحّدُ ، والاغترابُ هما اللذان أرهفا أحاسيسه ، وسرقا طمأنينته واتئناسه ، وجعلاه لقمةً سائغةً ، لإحساسه بتوحده واغترابه عن كلّ مايحيطِ به ... ولنستمع إلى مطلع قصيدته «صور» يجأر بالشكوى المريرة التي يُعانيها ، فيقول:

وحيداً...

وغابَ القمر

وأطبق صمتٌ

وماتَ الحفيف ...

كُلّنا يعرفُ أنّ القمر سيغيب ، ولكن فرط إحساسِ الشاعر جعله يضخم غياب القمر وأن يعتبر هذا الغياب موجها ضدّه ، ليشمله وحدهُ .. وهكذا يختلط إحساس الشاعر المرهف باغترابه ، يتوالد بعضهما من بعض ، فلانعود نعرف أيّهما سابقٌ على الآخر . وممّا أرهف أحاسيس الشاعر وشدّ وتائرها ، شعوره بالصمت

يُطبق عليه من كل جانب ، ويمسك بخناقه ، فحتى نأمة الهواء التي تحرك أوراق الشجر ، حتى هذا الخفيف مات ليمعن في تصعيد إحساس الشاعر بتوحده واغترابه .

إذا كان كل مايحيط بالشاعر ، غائب ، صامت ، ميت ، فمعنى ذلك أنّ الموت يزحف نحو الشاعر ويحيط به من كل جانبٍ، فالسكون موتٌ ، والحركة حياةٌ ، والشاعر يحبُّ الحياة ، ورسالته أن يجعلها أجمل ، وأسعد ، وتستحق أن تعاش ... فما عليه والحالة هذه إلاّ أن يجسر هذا الزمن الخسيس ، ليمر فوق الحاضر المتردّي ، إلى آخر في البال ، يسعى إليه ، ويتمنى تحقيقه إن أمكن ... أو أن ينقلب على نفسه إلى الداخل ، يُفتش في أعماقها ، عما يخرجه من مأزقه الذي وجد نفسه متورطاً فيه ، أن ينتشله من توحّده واغترابه .... وهذا بالفعل ماصنعه الشاعر فقال :

سرَحْتُ....
وعادتْ ، ألوفُ الصوَرِ
شريطُ الزّمان يعود
بشكلٍ كثيفٍ ....
يقصُ الحكاية .. تلو الحكاية
بلارابطٍ... لايداري
يقصُ ؛ بشكلٍ سخيفٍ...

ذاك اليأس القاتل . هو الذي أجبر الشاعر إلى هذا الإرتداد إلى الحلم كملجأ أخير يخلصهُ من ورطته ... هذا الارتداد إذاً هو صمّامُ الأمان لدى الشّاعر كي يبقى مُتّزناً ومتماسكاً .. هو الميناء

الأخير الذي يحتمي به الشاعر من قسوة الحياة ، ويخلصهُ من وحدته القاتلة واغترابه ....

أجل .. إنَّ هذا الارتداد ، هو التعويض عن كلِّ فرصِ النجاة، من مخالب الواقع المتردّي ، والحاضر الموحل ، والغدِ المجهول...

وعلى الرغم من عدم ترابط مفاصل هذا الارتداد .. ومن سخافة عرضه كما يقولُ الشاعر .. إلاّ أنّه يتبقى المخرج الوحيدِ للخروج من المأزق الذي وقع الشاعر فيه ، أوْوجد نفسه ضائعاً فيه..

فهلْ حقق الشاعر بهذا الارتداد مايريد ؟

أبداً .. وللأسف ، فقد وجد نفسه ، كالمستجير من الرمضاء بالنار .. لأنّ الارتداد إلى الحُلم إلى مايجب أن يكون، جَرّهُ وبالتداعي إلى ماكان ... وماكان اندلع شريطهُ يقصُّ «الحكايا بلارابط ... لأيُداري» أعاد الشاعر إلى ماضٍ ليس بأقلّ سوءً من الحاضر ... ماض بكلّ تبعاته وسقطاته ، بأوضَاره وأحجاره ، بكلِّ مصائبهِ ومآسيهِ .. ذكرهُ بضياع الممالك شبراً شبراً ، وبدون حربٍ أو قتال ... والسلطانُ غارقٌ بمباذلهِ بين الجواري والإماء . بعد أن قطع الرحم وفصم عرى القرابة وسار في الاتجاه المعاكس .. وهاهو يبكي أو يتباكى لدى سماعه نبأ الهزائم . وهل بقي لديه غير البُكاء، وغير الصلاة في أحضان الجواري . يقول الشاعر :

بكاء الخليفة – بعد الصلاة –

بقصر الجواري

* ضياعُ الممالك من غير حربٍ

ومرُّ الفراق

وبعد العراق

وطولُ الأسى والضجر.

ثم يوغل الشاعر في ارتداده إلى الداخـل ، وبـالتداعي والحلـم يغدو هذا الداخل وكأنه حاضرٌ ، أو يتمثله الشاعر حاضراً بديلاً .. وما أنْ يصل إلىهذا المركب المزدوج من – الماضي والحاضر – حتى يجد نفســه مـرة أخـرى نُهبَةً للأسـى ، ومرتعـاً للتوحـد والشـقاء ، فتندلع النيران في قلبه ، وتطفح عيناه بالدموع .. على الرغم من أنّه لم يفقـد تفاؤلـه الـذي رمـز إليـه بالشـمعة ، منــارة تضــيء أمامــه الدروب، فيقول :

وحيداً..

أمامي شمعه

بقلبي نارٌ

بعيني دمعه ...

إذاً فما دام هذا هـو مصـيره المحتـوم ... حتّى في ارتـداده إلى الذات الداخليّة ، فقد توضّحت لهُ النهاية المأساوية ، التي يعبّرُ عنها بطريقةٍ رومانسية إلى حدٍ مـا ... وإنْ كـانَ يعـني بهـا الطمـوحَ إلى المشاركةِ ، مشاركةُ أرضه لـهُ .. أرضـهُ الـتي منهـا تخلّق وتكوّن ، وعلى عِشقها تربّى وأدمن ، وعلـى صدرهـا نمـا وترعـرع ، وإليهـا سيعود ويهجع ، معبّراً لنا عنْ مصيره وحيرتـه ، بصيغـة سؤالٍ هـو بحدّ ذاته فجيعة ، حيث يقول :

أعيناي للدود ؟!

يالَلمقدّر !

وقلبي نسغٌ شهيٌ

تفتشُ عنه ، جذور الشجر؟!

..

شعوره هذا ، ليس شعوراً بالعبثية ، ولا استسلاماً للعدمية والضلالة بعيداً عن شواطئ الهدى ، أبداً ، لكنّه الإحساس بوجع الواقع ، بخزي الحاضر المقرور .. ومادام مصير عينيه للدّود ، وقلبه سيغدو نسغاً يغذي جذور الشجر ، فالأمر سهلٌ ومقبول جداً .. فهو ليسَ وحيداً ، ولافضلةً . وليس عبثاً ، بل هو مُتتم ، له موقعٌ يخندق فيه ..: وهكذا يكتشف الشاعر نفسهُ من جديدٍ ، ويجد ذاته من جديدٍ منتمياً إلى أرضٍ ، يفقد عليْها غربتهُ وضياعهُ من خلال موقعه ذاك، أو خندقه الّذي وجد نفسه فيه ، فالانتماء يكون للأرض ، لالزيدٍ ولالعبيدٍ .. ومن ذلك الموقع على الأرض الثابتة تحت قدميه سيتخذ بعد الآن موقفاً يُفسر شكل رؤيته الجديدة للحياة .. مؤمناً إيماناً لا يتسرب إليه الشكُّ ، بأنّ أي انتماء لغير الأرض «فربما كان مثالياً وطاهراً ، من شأنه أنّ يربط عربة الشعر – والشّاعر – بحصان المغامرة الزمنية ، وينحرف بها عن خط سيرها الأصليّ » فيسقط الشاعر وشعره حتماً بعد ذلك بقليل .

وهاهو الشاعر يوسف صياصنه يُعيد اكتشاف نفسه من جديدٍ ؛ فإذا به صاحبُ أرضٍ وعرضٍ ، وبالتالي صاحبُ قضيةٍ . يقول :

رأيتُ بعينيّ ... وجهَ الحبيبه

وأسكنتُ قلبي .. أرضاً سليبةْ

وقرب الحدود ... اجتمعنا

وسرنا معاً لانبالي

هموم البشر ...

ومرْنا معاً لانبالي

لنرسم بالخير خدّ القمرْ..

ونَشكل بالورد ... شَعْرَ القمر ...

هكذا وجدَ هذا الضائع نفسه على أرضه ... ثم اكتشف نفسه بين أحبته وذويه ، فليفرّ منْ ذاته هذا المتوحِّدُ المتكلِّمُ بضمير المفرد المتكلّم «رأيت ، أسكنت» إلى ضمير الجماعة ، جماعته على حدود الوطن ، وعبر الحدود ... وارتحل فعلاً عن الذات إلى النحن «اجتمعنا ، سِرنا ، لانبالي» . فقضيّته ماعادت شخصيّةً أبداً ، فهي «هموم البشر»... والحلّ ماعاد موكولاً به وحدهُ ، بل للجميع «لنرسم ، ونشكل ».

وبعد ذلك سيظلُّ الشاعر يوسف الصياصنة ملتزماً بالأرض والنحن واعياً لأبعاد امتداداته الشعرية ... يحسُّ وَجَعَ الجماعةِ ، قضيّة الوطن ،، هموم الناس ، ويعيشها ، ويعاني معهم منها مثلما يُعانون ... وحين ينتهي من لعق مداك الصبر ، وتحترقُ أصابعهُ في جمر البحث عن الحقيقية ، عَن الأفضل والأكمل .. يعودُ إلينا محملاً بالبشرِ والهدايا ، وأضاميم الأوراد نشكل بها شعر القمر .

إن هذا العالم الرمزي الرومانسي الذي يدخلنا الشاعر في أجوائه ، ويسربلنا بضبابه، ليس خدعة فنية ، ولاحسنَ صنعةٍ واتقان مهنةٍ... أبداً ، إنما هو الحبُّ الذي يمور في قلب الشاعر ،

فيوسف يحبُّ الناس . ويحترم من حوله ... ويشفق من أن يجعلهم هدفاً لشواظ نار اغترابه ، وجمرِ لغته ، وجحيم مفرداته ... وإذا كان لابدّ من ذلك ، فليكن برداً وسلاماً على إبراهيم ، فيلطف من ذاك الشواظ ، ويطفىء حدّة جمر لغته وجحيم مفرداته ... وهذا هو السبب في مزجه العسل مع العلقم ، ولنستمع إليه لنرى كيفَ يعبر عن ذلك في هذا المقطع الشعري ، حيث يقول :

وَعدنا .....

إلى عالمٍ ..... ليس فيه سوانا يبوح

لطيف عَبَرْ ....

ويشرحُ للوردِ ، سِرَّ الذبولِ

وسر النماء

وغدرَ الخليفة بالناس

ضعفَ البشر ..

ترى؟!!

هل تموت الطيوف العذابْ ... وتَفنى ؟

وتفنى عذاب الصور ؟!...

أنا شخصياً لن أجاوبَ على سؤالَيّ الشاعر ... وسأترك لكم الإجابة عليهما .

ترى ؟!

هل تموت الطيوف العذاب ... وتفنى ؟

وتفنى عذاب الصور ؟!

لن أجاوب ... لأني أحترمكم ، وأحبكم ... لأنكم الوجه الآخر للأدب ... فالشاعر والفنان ، والكاتب هم أحُد وجهي الأدب ... والقارئ أو السامع أو الرائي ، يشكل الوجه الآخر .

أما إذا أوضح الكاتب أو الشاعر أو الفنان في نتاجه كلّ شيء، فماذا يتبقى من أدوار للآخرين ؟... أليس ذلك اغتصاباً لأدوارهم ، تعدياً على حقوقهم ؟

أنا لا أحترم الأدب المستريح . الأدب المكشوف .. ولا الأدب المقرفص على أعمدة صحف السلطان .. ولامع الأدب المقنن حسب المنهج الرسمي ... ولامع الأدب الذي يلقن الجماهير الولاء بالملاعق الكبيرة .

أنا مع الأدب الحرِ في البراري ... أنا مع الشعر «مادام الشعر مزروعاً في الشاعر حربة من البرونز المشتعل » لأنه عندئذٍ يصعب علينا «أن نكتشف الحدود الحقيقة للحربة ، والحدود الحقيقية للطعنة ... لأن اللحم والحربة أصبحا شيئاً واحداً » ... أنا مع الحريّة أينما كانت . لأنني أريد أن أتنفس على بياض الورق ، أن أخلع جميع أرديتي وأستلقي عارياً .. فلقد مللت الأثواب الجاهزة ، والعباءات المقصّبة ، والعيون التي تكتب وهي معصّبة .. أريد أن أكتب بقلمي أنا ، وبعيوني أنا ... أريد أتنفس من رئتي أنا ... أريد أن أستحم في عيون حبيبتي ، لافي عيون حبيبات أصحاب السيادة والجلالة والإمارة ، وجميع أسماء التعجب والإشارة .

*

«الأنا» عند الشاعر يوسف الصياصنة ، محطة انتظار لقطارٍ عابرٍ ، إلى النحن الأوسع والأجمل والأكمل .

«الأنا» عند الشاعر رحيلٌ دائمٌ إلى النحن ... فإذا ماتوقف قليلاً أثناء الرحلة ، فليحطّ الرحال في محطة النحن القادمة حتماً ، ويقيم هناك إلى الأبد ... وهو وإن أرغمته تركيبات اللغة أن يتسربل بالأنا حيناً ، فليتجاوز صيغ اللغة ، وليكلّف نفسه عناء ساعات الانتظار ، ولحظات الملل ، ويجمع بذوقٍ بديع أضاميم من الورد ، وردةً وردةً ، ليقدمها بالنهاية للنحن.

وتعالوا نُسافر الآن معاً ، عبر المقطع التالي . لنرى كيف تتمّ عملية الخلق والابداع في الانتقال من الأنا المتعدّدة ، إلى النحن ، يقول :

وحيداً...

أمامي كل الخليقة :

ثري تجشأ تخمة ... ويلعن غدر الإله

فقير يفتش عن لقمة ... ويحمد خير الإله

سجون تغص بأسرى ... يرون الحياة خيال

وسجانٌ ضاق القميص عليه ...

يخافُ الضحى والزوال .

وبقفزةٍ واحدة ينتقل بنا :

«و كلٌ» ... هذا الكّل ... « يؤرق قبل المنام »

يلوحُ لعينيه طيف المحال

يلوب .. يفتش في كل ركنٍ

ويخنقه الأسى والألم

ويسأل : يامن حصدتم هشيماً

إلى أين نمشي؟

وكيف الخلاص؟

وأين المفر ...؟

لو أردنا أن نتجول بين معاني هذا المقطع ، لوجدنا فيه سبراً عميقاً للشرائح الاجتماعية المختلفة كما يراها الشاعر ، ويلخصها تحت عنوانين اثنين ، هما : الفقر .. والحرية .

فالفقير : غريب في وطنه ، بين أهله وذويه . الفقير لاوطن له، ولا أهل ومن لاحرية له : لامعنى لحياته أصلاً . لأنّ الحريّة هي التي ترتفع بآدميته إلى أفق إنسانيته الرائعة . وبدون الحريّة تنتفي عنه انسانيته . والمسجون والسجان معاً كلاهما مُستلبُ الحريّة ، ولافارق بينهما سوى شبكة من الحديد ، أحدهما أمامها ، والثاني خلفها ... يندبان إنسانيتهما المستهلكة .

وكذلك الغنيُّ الذي يكنز الذهب والفضة .. غريب في وطنه، بعيد عن مواطنيه .. يُرهقه الخوفُ على ثروته المغتصبة من جوع الآخرين ، فيرى الناس وحوشاً تتربص به الفرص ... ولذا فهو فقير من الأهل ، غريب عن الأحبة .

هذا الخليط المتناقض : الثري والفقير ، المسجون والسجان .. يشتركون كلهم في الأرق قبل المنام ... وهكذا وبكلمةٍ واحدةٍ يهدم الشاعر كل الحواجز المصطنعة التي أقامها المنتفعون بشقاء الإنسان ، والمتّحرون بكرامته ، والوائدون لحريته ، ويجعلهم كلّهم متساوين أمام سطوة ملك الأرق قبل المنام ... الغني والفقير ، السجين والسجان ... انهدمت الفوارق بينهم ، وتحطمت الحواجز، فتكافأت الفرص أمام هذا الأرق .

أو ليس هذا حلماً ؟... حلمٌ يتمنى الشاعر الصياصنة لو أنّه يتحقق .... حلم المساواة وتكافؤ الفرص ولو بالشّقاء ...لابل يسعى إليه بدون كللٍ أو مللٍ .. ألايذكرنا هذا بالشطحات الجيرانية في مطلع هذا القرن ؟

أو ليس هذا هو الموقف الذي اتخذه الشاعر من خندقه في الموقع الذي تمترس فيه . والذي فسّر شكل رؤيته للحياة . وللنحن، وللناس أجمعين ؟.

أنتم وحدكم المعنيون بالبحث عن الجواب ، بل مكلّفون به .

وبعد ؛

يحاول الشاعر يوسف الصياصنة ، بمبضع الجراح الخبير أن ينتزع ذاك الجسم الخبيث من جسد النحن من هذا الأرق .. أقول يحاول ، ولا أقول انتزع .

هذه المحاولة ؛ تبتدئ بتوضيح الرؤيا ، كي لايخبّ الإنسان في الظلام ، كي لا نحرث في البحر .. على الرغم من أنّها – الرؤيا – أطيافٌ ، وأنها محالٌ .

ولكن الشاعر رغم الأسى ، ورغم الألم ، ورغم غصص الشقاء ، ورغم كلّ هذا بلغ محجته ، ويوصلنا معه حينما يسأل «يامن حصدتم هشيماً » ... إذاً هذا هو السرطانُ .. هذا هو الجسمُ الخبيث «حصدتم هشيماً» حطامٌ ، قبض الريح ، خواءٌ ، لاشيء .. الحربُ إنشاءٌ ، والسّلم إنشاءٌ . الانتصارات إنشاءٌ ، والهزيمة إنشاءُ . السياسة إنشاء ، والإقتصادُ إنشاءٌ . والحياة كلّها إنشاء بإنشاء .. .. وقديماً قالوا : من يزرع الشوك لايحصد إلاّ الندامة .. ونحن زرعنا شوكاً وماحصدنا إلا الهشيم والندامة .. حتى زراعة الشوك نفسها ، ملّتنا ، تقيّأتنا و لم يعد هناك مانحصده اللهم إلاّ الخيبة والفشل والهزائم المتلاحقة .

هذه الخيبة ، وذاك الهشيم اللذان قذفهما الشاعر في وجوهنا ، عزَّ عليه أن يتركنا مُتسكِّعين حول أسوار محنّته .. إلاّ أنه لم يفجعنا بحلٍ مُراهق يتراوح بين حرق المراحل وقفزات مُهرجي السلطان واللّعب على الحبال وأصحاب مواهب الإنشاء .. أبداً ..بلْ يقفُ مع الناس صفا واحدا ، ولايمارس عليهم الأستاذية والتنظير ، بل يشاركهم في البحث عن الحل بصيغةِ اسئلةٍ ثلاثة يطرحها ، والكلّ معني بالبحث عن أجوبةٍ لها ، فيقول :

إلى أين غشي ؟

و كيف الخلاص ؟

وأين المفر..؟

أرأيتم ؟! إنّه يتلمس الحل كالآخرين ، مع الآخرين ، وللآخرين .... وتساؤلاته هذه إشارة إلى المفاتيح التي بواسطتها تشرعُ بوابات الحياة وتنفتحْ على كل ما هو خير وحب وجلال .. وهذا أمر لا بد منه ، إذ لا مفر من مواجهة الحياة .

ولو أردنا أن نتغلغل في جزئيات الصور المتلاحقة في هذا المقطع من قصيدة يوسف ، بدلاً من الطواف حول أسوار كُلّياتها ، لما أعجزنا الكلام ، ولقلنا :

انظروا : إلى صورة الغني الذي أنهكته التخمة ، ومع ذلك لايشبع .

وإلى صورة الفقير الذي يبحث عمّا يسدُّ به رمقه ، ومع ذلك يظلُّ حامداً شاكراً قانعاً بما هو مقسومٌ له .

وإلى صورة السجين الذي يرى الحياة حُلماً ممطولاً ، وخيالاً لا يتحقق .

وإلى صورة السجان الذي لايقلُّ عن السجين قهراً ، فكرهتـه حتى قمصانه ، ويرعُبه رأدُ الضحى ، وزوال السلطان .

هذه جولةٌ متواضعةٌ قصيرةٌ بين أجزاء الصـورة في المقطـع قبـل الأخير من القصيدة ، والذي بسـطته أمـامكم – علـى مـا أعتقـد – بأمانةٍ واختصارٍ وتواضعٍ ، فهل وفقت ؟! .

*

إذا كان كلُّ هذا الخطاب موجهاً للأحياء ، أو ممّن يظنُّ أنّهـم أحياء ممّن يُحيطون بالشاعر ... وصادف عند هؤلاء بحراً لاتحـرّكُ سطحه الأنواء .. فلاعتب إذا وجدناهُ عندئذٍ يلجأ إلى جبلٍ يعصمـهُ منَ الماءِ .. منَ الغباءِ !!

إذا كانَ هـذا الخطـابُ لايستنبت الزنـابق في قلـوب النـاس ، ولايشـعل الحرائق في ثيـابهم ، ولايـورثُ الصـداع في رؤسـهم ، ولايثيرُ همم الخلائق ويُثوّرهمْ .. إذا خصي الرجال وأعقـم الحـدثُ النساء ، ودُجنتِ الخلائق ، فما هي الجدوى ؟

إذا كان هذا كله ... فهل يحبس الشاعر لهاثه ، كلماته داخل قفصٍ من الخوف والرعب ، ويفرض عليها الإقامة الجبرية ؟! ... أم يطلقها للشمس للريح .. تتنسّم الحريّـة ، وتتغرغـر بالضّيـاء ، على الأقل !!

الحقيقةُ ، لاهذا ، ولاذاكَ .

بل سيتجاوز المهمشين المخصيينَ ... ويُوجّهُ خطابـهُ إلى أهـل المقـابر مباشـرةً ، وبضمـير المُخـاطبِ ، إمعانـاً في الزرايـة والألم والسخرية ، لعلّهم يسمعونَ ... أوْ المهمشون بهم يتعظون .. ونراه

بعد مراحل النضال كلّها ... بعد القول كلّه .. بعد الخطاب ورجع الصّدى .. يجد نفسه وحيداً من جديدٍ ، مغترباً من جديد ، يحملُ صليبهُ على ظهرهُ ، ويقولُ للناس : اصلبوني ... فلنْ أتوب!! فيقول:

وحيداً....

أخاطِبُ أهل المقابر

تُرى تسمعون ؟

تُرى تشعرونَ بما نحن فيه ؟

تُرى !! .. أيّةُ أزمةٍ خانقةٍ ، هذه التي يحاول يوسف أن يجتازها ؟ بعد أنْ فقد آخر بصيص من الأمل بالأحياء الذين علكتهم الحياة ، وبصقتهم معالف السلطان ، والتهمهم بريق دريهماته .. فانصرفوا لعبادته ، لايسبحونَ إلاّ بحمده بكرةً وعشياً ، ولايسمعون إلاّ مايريدهم أنْ يسمعوا ، ولايرون إلاّ جلال مواكبه وسلطانه ، ولايردّدون إلاّ صدى نرجسيّته وشهواته وغرائزه ، ولايفرحون إلاّ بالحمل به ، والوحام به على نيّة الشفاء . إلاّ بميلاده، وختانه ، وطلوع أسنانه . ونجاحه في الابتدائية والإعدادية ، وزواجه ، وجلوسه ، وقيامه وقعوده ، وصلاته في المناسبات وسجوده ، وإفطاره وصيامه .. ولاهمّ لهؤلاء المستزلمين :

«غير أنْ يأخذوا للحلاّق زوجة الأمير

أو كلبة الأمير

– وأن يضرعوا إلى العليّ العليم .

أن يديم القائد العظيم .. وحزمة البرسيم»

فماذا يقول الشاعر بعدَ ماقيلَ ومايقالُ ؟

وبعد أنْ أحرق فكرهُ وعقلهُ في مجامر موهبتهِ الشعريّة ؟

بعد أنْ فرشَ أهدابهُ على دروب ضلالهِ وهدايتهِ ، ألَمِهَ وأملِهِ؟

هل يستَسْلمُ الشاعرُ بعدَ هذا كلّه، ويُلقي بأسلحته أمام الحدثِ ؟

هلْ ينحني للعاصفة ، ويطأطئ رأسه كبقية النُصبِ والأزلامِ؟

الحقُّ أقولُ لكمْ : أبداً ... أبداً !!

فالشاعر ملتزمٌ بموقفه ، ثابتٌ بموقعه ... مؤمنٌ بوطنهِ ، وفيٌّ لشعبهِ ... مخلصٌ لموهبتهِ ... أيسايرُ هذه الموهبةَ فينفضحُ ، أم يكبتها فينستر ؟

أبداً ... أبداً «فالسّترة موقف لاموقف لهُ .. ونقطة جبانةٌ مترددةٌ لاتتخذُ قراراً ، ولاتغضبُ أحداً ...

إنّها جسدٌ يتعاطى المخدّرات ...

السّترة سهلةٌ جداً ، يكفي أنْ لاتفعل شيئاً لتكون مستوراً ...

كلُّ فعلٍ إنساني يحملُ مُشكلةً ، أو يؤدي إلى مشكلةٍ... والموتُ وحدهُ هو الذي لامشْكلةَ فيه ، كما يقول زوربا اليوناني .

والإنسان بمجرد كونهِ يتحرك ، ويتكلّمُ ، ويبدي رأياً .. فهو متورِّطٌ .. والكتابةُ هي أعلى دَرجاتِ التورُّط ... هي فضيحةٌ مكتوبةٌ بحبر صيني غامق »

قُلنا إنَّ الشاعر يحملُ صليبه على ظهره ، ويقول للناس اصلبوني ... الشاعر ثائرٌ على الواقع المتهافت تحت دواليب عربات السماسرة والمزاودين .. إذاً فلاسُترةَ بإذن الله ، ومرحباً بالفضيحةِ.

الشاعر رغم الخنجر المغروس في أعلى الخاصرة ... برغم النار التي تندلع كالبركان من قلبه .. برغم الجرح العميق الذي يتمطى في أعماقه ... برغم كلّ هذا يُعلنُ نفسه «بروثموسيوس» جديداً ... ولكنْ بدلاً من أنْ يشعل نار السماء ، يُشغل بإشعال الحرائق في ثياب النّاس ، في عيون الناس كلّ الناس وكلّ العيون ... «يشحذ كلّ السيوف . وكلّ الفؤوس ، ويصهرُ كلّ العقول ، وكلّ النفوس» يقول الشاعر :

بقلبي جرحٌ عميقْ

بصدريَ بركانُ نارٍ يفيق

لأشعلَ كلَّ العُيون بريقْ

لأشحذ كل السيوف ... وكلّ الفؤوس

لأصهر كل العقول .. وكلّ النفوسْ...

وهكذا .. وبعد أن استنفذ الشاعر كلّ الصيغ اللغوية ؛ من خبر وإنشاء ، من استفهام ونداء .. وانتقل من ضمير المتكلّم إلى المخاطب ، ومن الغائب إلى الحاضر ، ومن ضمير المفرد إلى الجمع .. نراهُ ينتقل إلى صيغة الأمر ، فيصرخ بملء فيه :

أفيقوا .... أفيقوا

وحيداً أنادي

ثمّ ينتقل في خطابه الذي يتقطر حزناً وأسىً ولوعةً .. متردداً في صيغة اللغويّة بين الحضّ ،والعرض ، والاستفهام .. يستثير الهمم في الرمم ، والأوثان والنصب والأزلام .. مرّةً بصيغة المخاطب ، وأخرى بصيغة المتكلم ، فيقول :

ألا تسمعون ؟!

ألاتشعرون؟!

أأبقى وحيداً .. بغير لسان ؟

بغير عيون ؟

أليسَ هذا التقلب بين كلِّ هذه الصيغ اللغوية ، دليل همٍ عازبٍ ، وغربةٍ لاتنتهي ، وألمٍ مقيم ؟

أوليس هذا الخطابُ للأموات ذروةَ اليأس والقنوط من الأحياء الذين لايحيون ؟ إذاً فأولئك الأموات الراقدون : نيامٍ كشعبه المسكينِ المستكين ، الذين تهدمهم صيحةٌ ، وترهبهم طلقة ، وتفرقهم عصاً .. فينفضون عن أملهم ، عن وحدتهم ، عند أوّلِ تلويحه عصا ، فيستسلمون ولايدافعون ، يقول :

كشعبي أنتم نيام

كشعبي .. من صحيةٍ تهمدون

أرانب من طلقةٍ تهربون

كشعبي ... عن وحدةٍ تحجمون ...

إنّها صرخةفي وادٍ ، يُطلقها الشاعر كالطير يركض مذبوحاً من الألم .. إنها إشارة خفية إلى انفصال الوحدة بين مصر وسوريا في مطلع ستينات هذا القرن ، حين لم تجد رجالاً يدافعون عنها ، عن حقهم في العيش تحت خيمةٍ واحدةٍ ، في وحدة تجمع شملهم ، وتوحّد جهدهم .. رحم الله تلك الأيام التي لن تعود .

اللهم أعني على ما اجتهدت ، وشرحت .. فإن أصبت فـأنت المجزي ، وأنـت المعـين .. وأن أخطـأت فـاغفر لي ، ولاتجعلـني مـن الخطائين ... إنك أنت مولانا ، فنعم المولى ونعم النصير .

يوم كان الله في الغابة

يوم كان الله في الغابة
في ركنٍ قصيٍ وارف الأفنان ،
يسترخي باحضان السكينة ،
يَتَشَهّى ،
مُرهق الأعصابِ
يستعطي فكاكاً ،
فينادي صفوة السُّمار والسّاقي
ليلتموا ، ويأتوه بأحلى خمرةٍ بكرٍ
كلون الشمس والعَسَل المصفى
هي سِرُّ الروح ، في الروح ،
وروح للسّكينة

***

يومها عزّ جلالُ الخالق
النّشوان باللّون وبالصّحبة واللّمس
وأطياب العذارى ،
يومها !!

أبدع من نشواه أنثى

أبدعت فينوس من ترف الصبابات ،

ومن أحلام عنقودٍ ،

بخيطِ النّور والإفياء والغفوة

في عبِّ الخوابي ،

خُلقت عشقاً ، شراعاً

ينثني والموج ،

من رهج الصّباحات

لتبقى كلّ حينٍ

بين سرِّ البحر والعشق

رهينة

هي ، والنورس ، والبحر

تلاوين ، صبابات

وعشق أزلي

صبوة الخلق ،

وسرُّ البدء ، في البدء

عذابات النهاية

***

من ترى يرجع من عمق الغيابات

ليأتينا بأسرار البدايات

وأسرار النهاية

***

صيحة النورس للشاطئ للبحر

انتماء ...

كانتماء القتل للمقتول

عشق وانتهاء ...

يذهب العشاق للشمس فراشاتٍ

وعضون ،

ويبقى العشق والبحر وفينوس

بداية

أزلاً كانوا ،

ويبقون مع الأيام ،

للآتي بداية،

***

نُدمن النعمى ،

نداوي جرحها الآتي بالغادي ،

فَسر الخلق ، أن تستبق الآتي

خصباً وارتواء

عالقٌ من ينتمي للصمت ،

فالصمت انتهاء وفناء

يملك الأسرار
من يستأنف المشوار
مشدوداً إلى خيط ضياءِ
للبداية
دائماً يَنْشَدُّ للبدء
بداية
يومَ كان الله في الغابة
يستوضح عن أشيائه الصغرى
وعن حال النّدامى ،
ودنانُ الرّاح في أقبية الرّهبان
تزدادُ نحولاً
تشتهي تقوى
وحاماً
روحها ؟
ضوء يشفُّ
فلا تحس له ازدحاما
في الكون فوق له ازدحاماً
دفقة من نور عاشقة
معتقة اللمى ،
والريق،

تزداد اشتعالاً
كلّما أبليت عاما
***
كانت التقوى
ولازالت
كسرُ العشق ، والصّهباء
للعاشق والناسك برداً وسلاماً
هي و العشق ،
وروح الخمرة المسكون بالرعشات
سرُّ الكون
إن غابت
فهل تُعطي كروم العاشقين
مواسم التّفاح
والبلح المنقى
والخزاما ؟
وهل السّاقي يدير الكأس
للنُسّاك
حول العرش
مشتعلاً على شفة النّدامى ؟
ياحبيب الروح !!

كان العشق في البدء
وجاء الله من بعد انسجاما
***
نبدأ الخطوة والرَّشفةَ من ريقين ،
بالسحر والترتيب !!
ايقاع وخطوه ،
ثم نتلوها بخطوة ،
وانحناء وانثناء
وسُكُونٌ ومسير
رشفةٌ عجلى ..
وموسيقى
بها التبويب والأنغام
من هَمْس السّواقي ،
وحفيف الغصن من بحة ناي
يتسامى
نغمٌ يصفو ،
ولحنٌ نازفٌ الإيقاع والأوتار
سُهداً وهياماً
ومن اللّحنين والرشفين
والعشق المدمى ،
وخوابي الراح ،
والنُعمى ،
صلاةً وصياماً

وحدة الوجود في شعر يوسف الصياصنة

«يوم كان الله في الغابة» عنوان قصيدة للشاعر يوسف الصياصنة ، هو بحد ذاته قصيدةٌ كاملةٌ . رمزٌ أو ترميزٌ لقصيدةٍ كاملةٍ .

وليس بالضرورة والحالة هذه ، أن يتطابق تفسيرنا لهذا الرمز ، مع رؤية الشاعر ، ساعة التلقين المبدع ، لأنه آنئذ كان مشغولاً بإطفاء أصابعه المحترقة بصلصال عملية الخلق والإبداع ... فعلى الشاعر أن ينصهرِ ، وعلينا نحن معاشرِ النقاد ، أن نفسِّر ذلك الانصهار ، وأن نعلله .. فقد نخطئ وقد نصيب .

«يوم كان الله في الغابة » مدرسةٌ قديمةٌ قدم المسيح عليه السلام ، وأقنوم من الأقانيم التي قامت عليه الكنيسة في يوم من الأيام بل تقود جذورها إلى البوذية والكونفوشيوسية القديمة ... وتبعها في ذلك مفكر ون وأدباء كبار ، يؤمنون بوحدة الوجود – الله والطبيعة والإنسان – كتولوستوي ونعيمه ، وجبران وغيرهم .

فالمخلوقات كلّها من روح واحدٍ ، وهذه الأرواح «لاتبلغ مرتقىً ، لأنها هي المرتقى في الصميم ، هي الوسيلة والهدف .. وهي لاتثوي بثواء الجسد ، ولا تهجع بهجوعه ، فهي ليست ظلاً له معطل التصميم الإرادي ... وفي الغاب لايعض الإنسان ولا يجزأ، بل هو متفاعل متحاوب ، فالروح والجسد توأمان لاينفصلان» وحين نظن أنهما انفصلا ، يكونان قد اتّحدا با لله بالطبيعة الأمّ، في قطيرات المطر التي لا تلبث أن تتبخر وتتغلغل في كل شيءٍ .

ربّما كان الشاعر الصياصنة يعني ذلك ، أقول ربما ، وربّما

كان يعني الله الحقيقي ، الذي كانَ يتألق في بديـع صُنعه لمخلوقاتـه من كلِّ صنف ولون ، وكلها تسبح بحمده ، وتتوكل عليـه ، تغـدو خماصاً ، وتعـود بطأناً ، ربّنـا أعطنـا خبزنـا كفافـاً اليـوم .. سخر المخلوقات لبعضها على عينيـه ، لا جشع ولا غـرور ولا هيمنـة .. تأكل حيوانات الغابة كلّها – من دابةٍ وطـيرٍ – مـن طعـامٍ واحـدٍ ، كلٌّ على مقداره وشبع بطنه ... ماتبقى حـقٌ لغيره .. يومّهـا كـان الله في الغابة ، فعلاً وقولاً !...

ثم جاء الإنسان كبقيـة المخلوقـات ، آنئـذٍ فقـط بـدأ الجشـع والطمعُ والسـيطرة ، بـدأ هـذا المخلـوق العجيـب ، يزحـف رويـدا رويداً على حقوق شركائه من بقية المخلوقات ، من مملكـتي النبـات والحيوان .. فأصبح يختزن الغلال ، بعد أن كـان مشـاعاً للجميـع . ثم راح يخزن اللّبن والجبن ، ويقدّدُ اللحم ، ليخص بهـا نفسـه دون غيره من بقية المخلوقات... وتطور بعد ذلك كل شيء !! ، ثم بـدا السطو على حقوق غيره ، كحق له ، لهذا المخلوق الأناني الشّره .. يومها فقط غضب الله مـن صنعـه وظلمـه ذاك ، وفـرَّ مـن الغابـة . ليبقى رباً رحيماً عادلاً للجميع .

ونحن إذ نتكلّم اليوم .. لانتكلّم عن النهايات المخزية ، وغـير المشرّفة ، لمسيرة الإنسان على مدارج هذا الكوكب ... إنما نتكلـم عندما كان الله في الغابة يعمر قلوب مخلوقاته ويسكنها . عن ذلـك الزّمن يقولُ الشاعرُ :

يوم كان الله في الغابة

في ركنٍ قصيّ

وارف الأفنان

يسترخي بأحضان السكينة

يتشهى؛

مرهق الأعصاب

يستعطي فكاكاً...

فينادي صفوة السمار والسّاقي

ليلتموا .. ويأتوه بأحلى خمرةٍ بكرٍ

كلون الشمس والعسل المصفّى

هي سرّ الروح ... في الرّوح

وروح للسكينة...

الآن توضحت الصورةُ ، وفُكتْ رموز الخاتم المسحور على أسوار الغابة المرصودة ، حيث كان الله جل جلاله مريحاً مستريحا من شرور أحبِّ المخلوقات إليه ، الذين خلقهم على صورته وفي أحس تقويم «يسترخي باحضان السكينة» لايؤرقه شيء .. ومن جراء ذلك راح «يتشهى » ولكن كيف ؟! .. «يتشهى مرهق الأعصاب» ، ولطالما هو مرهق الأعصاب ، فلابدَّ له أن «يستعطي فكاكاً» من هذا الكابوس الثقيل الذي يسترخي بأحضان السكينة..

إذاً فالله لايريدنا أن نكون عاطلين بالوراثة ؛ نسترخي ، نتشهى ، نستعطي ، أبداً لأنّ ذلك مدعاة للسأم والملل وإرهاق الأعصاب ، كما لايريد لذاته .. بل يريدنا أن نضرب في فجاج الأرض ، نلتقي ، نتعاون على الخير والبر ... نجمع صفوة السمار حولنا ونستقدم الساقي ... فلا خلاف في شرعته وخلقه ، خادمٌ ومخدومٌ ، ساق ومسقي ، هذه سنته في خلقه ، ولن تجد لسنّة الخلق تبديلا ، لأنها ألقانون الطبيعيّ والناموس الأبديّ الذي ينتظم الحياة ويموسقها ، وبغيرها ينفرط عقد الحياة ، فتنتشر الفوضى ، ويعم الخراب ... إذاً ؛ يناديهم ليلتموا ليجتمعوا ، ففي لمتهم واجتماعهم

تتويج لرغبته في نشر المحبة والوئام ... لحظتها ينتشي الرب «بأحلى خمرةٍ بكرٍ كلون الشمس ، والعسلِ المصفى» فتختلط أسرار الخلق ، بأسرار الرّوح ، بروح السّكينة الإلهية ، التي تتسم بالهيمنة والربوبية في هذا الوجود .

*

بعد مطلع القصيدة هذا ، وقد رأينا فيه ما رأينا ، وسمعنا ما سمعنا ، بعدهُ يبدأ الرمزُ ، ويبدأُ الإسراءُ ، ليتّخذا مساراً يوغلُ في اكتشافِ سرٍّ لعبة الخلقِ المبدعةِ ، حيثُ تتوالدُ الأشياءُ من بعضها ، وتتداخلُ في خلقها ، فإذا الوجودُ بأكمله يتناسلُ من صبوةِ المبدعِ تشوقاً لإبداعهِ ، وتشهياً لهتكِ الستر عن الأسرارِ السرمديةِ في تشابكِ عناصرِ هذا الكون ببعضها : هذا ما يقوله الشاعر :

يومها عزَّ جلالُ الخالقِ النّشوانِ ؛
باللّونِ ، وبالصحبةِ ، واللّمسِ
وأطيابِ العذارى ..

أجل إنّها نشوةُ الإبداعِ والخلقِ ، التي لاتعاد لها نشوةٌ ، أو شهوةٌ ، أو انتصارٌ ، أو سعادةٌ في هذا الوجود .. إذ ينفتح قلبُ اللّه على غاباتِ الأشواقِ المغمّسةِ بالصحبةِ واللونِ ، واللّمس ، وأطياب العذارى.

ومن يومها كرج الإبداعُ والخلقُ على مدارجِ الوجودِ . فاختلطت الأضواءُ بالظّلال .. والأشواقُ بأشرعةِ الموجِ المتكسرةِ عند أقدامِ الروابي .. وأحلامُ العناقيدِ الغافيةِ على رهجِ الصباحاتِ

المتدحرجةِ فوق بيادرِ الألقِ والشوق .. وفرحةُ النـوارسِ باكتشـافِ سرِّ البحرِ والعشق .. وارتهانُ تلاوينِ الصبابات في صبـوةِ الخلـق .. وسرِّ البدءِ حينَ كان البدء : اقرأ باسم ربِّكَ الـذي خلـقْ .. يومَهـا بدأ العدُّ التنازليُّ لعذاباتِ النهاية . فلنسمع للشاعر يقول :

يومها
أبدعَ من نشواهُ أنثى
أبدَعتْ فينوسُ منْ ترفِ الصباباتِ
ومن أحلامِ عُنقودِ
بخيطِ النُّورِ ، والأفياءِ ، والغفوةِ
في عُبِّ الخوابي
خُلقتْ ؛ عِشقاً ، شِراعاً
ينثنِي والموجُ
من رهجِ الصباحاتِ
لتبقى كلَّ حينٍ ؛
بينَ سِرِّ البحرِ .. والعشقِ
رهينةْ ..
هيَ .. والنورَسُ .. والبحرُ ؛
تلاوينٌ
صباباتٌ
وعشقٌ أزليّ

صبوةُ الخلقِ
وسرُّ البدءِ .. في البدءِ
عذاباتُ النهايةْ

إذاً .. فعذاباتُ النهايةِ .. هيَ المصدرُ الأزليُّ لقلقِ المخلوقاتِ كلِّها عبر مسيرةِ الخلقِ والإبداعِ والحياةِ .. وإذا ما توصَّلَتِ الخلائقُ إلى اكتشافِ سرِّ هذه النهاياتِ المفجعةِ ، إذاً لاجتازتِ النّرفانا ، وبلغت محجَّتها ، وهجعَتْ روحها ، واستقرتْ نفسها ، وانتهى القلقُ ، والوجودُ ، والحياةُ معها .

فهلْ للحياةِ طعمٌ بدونِ هذا القلقِ ؟
وهلْ منْ غايةٍ للعمرِ ، إذا كان العمرُ غايةً ؟
وهل للوجودِ معنىً بدونِ البحثِ عن النّهايةِ ؟

إذاً .. سأبدأُ قلقي من جديدٍ .. وسأبحثُ عنهُ ؛ لأنّي أريدُ أن يكونَ لحياتي طعمٌ ولعمري معنىً ، ولمسعايَ غايةٌ ..

ولا أريدُ عبورَ النرفانا ، أو الوصولَ إلى المحجَّةِ .. وإنّي وإن كنتُ أسعى إليهما ، فلأنيٍّ بشوق إلى البحثِ عن ألوان جديدةٍ من القلقِ .. توقفني على حدُودِ بداياتِ البدءِ توقاً لسبرِ أسرارِ النهايةِ ، التي استعصت على الدهورِ . يقول الشاعرُ :

من تُرى ،
يرجعُ من عُمقِ الغياباتِ ،

ليأتينا بأسرارِ البداياتِ
وأسرارِ النهايةِ ؟!!

أبداً .. ستظلُّ الحيرةُ تمزقُ نفوسَ الخلقِ في هذه المرحلة من تطوُّر الحياةِ على هذا الكوكبِ .

وسيظل القلق مصاحباً لمسيرة المخاليق بين أفراح البداية وأحزان النهاية أبداً .. فلا قبلَ البدءِ بدءٌ .. ولابعدَ النهايةِ بعدٌ .

وسيظلُّ هذا المجهولُ يعذّبُ الإنسانَ ، طالما الإنسانُ إنساناً ، له بدءٌ ، وله نهايةٌ.

قد يعرفُ البدءَ لا لأنه بدأ ، وإنما لأنّهُ وعى .. ولكنّهُ لن يعرفَ النهاية ، لأنَّ ما يصلُ إليهِ ربَّما يكونُ بدايةَ لبدايةٍ ، وليس بالضّرورةِ نهايةً .. ولطالما لم يرجع إلينا أحدٌ بعد غيابه - فيما سميناه نهايةً - ليميطَ لنا اللّثام عن أسرار غيبته ، أسرارِ النّهايةِ ، ولربَّما عرف هناك أسرار البدايةِ .. وهكذا فلا يحقُّ لنا إلاّ أن نظل جاهلين بأسرار البداياتِ ، وأسرارِ النهايةِ .. وهذا أمرُ الله ، بل سرُّهُ في خلقه الذي يتأبّى على الأفهامِ ويستعصي على الكشفِ .

*

الخلقُ كلُّهم عيالُ اللّهِ ، لا انفصامَ لعرى الوشائجِ التي تربطُ بينهم من جهةٍ وبينهم وبين خالقهم من جهةٍ أخرى .. ففي كلِّ مخلوق سرٌّ من أسرار الخالق ، تدلُّ على بديع صُنعهِ .. وفي الخالقِ جهدٌ ، تعبٌ ، شيءٌ ، سرٌّ من المخلوق .. فالخالقُ والمخلوقاتِ إذاً متداخلة متشابكة ، في الجهد والإبداعِ وفي كل خلق ، شيء من

المخلوقات كلِّها ، وانتماءٌ يربط فيما بينها ، كالعلاقةِ مابين الشمس وضوئها ، والفلك ومدارهِ ، والبحر ونوارسه ، والفراشاتِ والضوء الذي يحرقُها ، والقتل والمقتولِ ، والظلمِ والمظلومِ .. ما بين الجمال والعشق ، والوردة والعطر ، والقلم والورقة ، والغصن والعصفور .. مابين البدايةِ والنهايةِ، والماضي والحاضرِ ، والحاضرِ والمستقبلِ .. ما بين كانوا وما سيكونونَ .. لنسمع إلى الشاعرِ يقولُ :

صيحةُ النورسِ .. للشاطئِ .. للبحرِ
انتماءٌ ..
كانتماءِ القتلِ للمقتولِ
عشقٌ وانتهاءٌ ..
يذهبُ العُشَّاقُ للشمسِ فراشاتٍ
.. ويمضونَ .
ويبقى العشقُ .. والبحرُ .. وفينوسُ
بدايةٌ ...
أزلاً كانوا ،
ويبقون مع الأيَّام ، للآتي بداية..

هـذا الخلقُ المتشابكُ ، هـو النـاموسُ الإلهـيُّ الأزليُّ في مملكـةِ الربِّ .. وسُنَّةُ خلقِ مملكتـهِ تكمـنُ في تلبُّسـهِ لخلقـهِ ، وسرٌّ تشرُّبهِ لتحسينِ صناعتهِ في هذا الخلقِ وهكذا .. أوليستْ هذه رتابـةٌ مُمِلـةٌ قاتلةٌ ؟!

أوليسَ هـذا إدمـانٌ للسُّنَّةِ للنـاموسِ ، للاستكانةِ والركـودِ ، فالتعفُّنِ ، فالاختناقِ ، فالموتِ؟!

أولَسنا نداوي بالتي كانتْ هي الداءُ؟

«في الحقيقِ ، إنَّ أخطرَ ما يقعُ فيه الإنسانُ ، وبالأصح الشاعرُ الخالقُ المبدعُ ؛ هو السقوطُ في صُمغ الطمأنينـةِ ، ومهادنـةِ الأشياء التي تحيطُ بهِ .. الشاعرُ الذي لايعرفُ قشعريرة الصِّدامِ مع العـالَمِ – الذي يواجهُـهُ – يتحـوَّلُ إلى حيـوان أليـفٍ ، استُـصلت منـه غُـددُ الرَّفض والمعارضة» وزالت منه أسرارُ لعبةِ الخلقِ والأبداعِ واستحالَ إلى رمادٍ .

وحتى على فرضٍ «إذا كُنا سوف نُبعـثُ مِـن الرَّمـادِ .. فإنَّ ذلكَ سيقتضي منا أن نمرَّ بنارٍ في كلِّ مكانٍ .. حتى نصلَ إلى النَّقـاءِ والطَّهارةِ ».

«ومن هنا يكتسبُ قول دورنغاتِ – إنَّ الشعرَ هـو اغتصـابُ العالَمِ بالكلماتِ – أهميةً خاصةً .. فبدونِ اغتصابٍ لايُوجدُ شعرٌ»

والاغتصابُ هنا يعني تمزيق الغشاء الـذي تنسـجه المفـردات ، والأفكار ، والعواطف حول نفسها مع تقادم الزمن .

الاغتصاب هنا ـ أيُّها السادةُ يعني ـ إخـراجَ الشـعرِ مـن مملكـةِ العادةِ والإدمانِ .. إلى مملكةِ الدهشةِ.

وعظمةُ الشاعرِ – أيُّها السادةُ – تقاسُ بقدرتـهِ علـى إحـداثِ الدَّهشةِ.

والدهشةُ لاتكونُ بالاستسلامِ للأنموذجِ الشعريِّ العام ، الذي يكتسبُ مـع الوقـتِ ، صفـةَ القـانونِ السـرمديِّ .. لكـن تكـونُ ، بالتمرُّدِ عليه .. ورفضه.. وتخطِّيه.

الشعرُ – أيُّها السادةُ – ليس انتظار ما هو منتظرٌ .. وإنَّما هو انتظارُ ما لاينتظرُ .

إنّهُ – أيُّها السادةُ – موعدٌ مع المجيءِ الـذي لايجـيءُ ، والآتـي الذي لايأتي»

أيُّها الشعراءُ !! هكذا يريدُكم الشاعرُ يوسف الصياصنة :

أن ترفضوا إدمانَ نُعمى التبخيرِ والتّسخيرِ والتأجيرِ .

أن ترفضوا إدمان لعبةِ الأخذِ والعطاءِ في سوقِ البغاء.

أن ترفضوا لعبة مداواةِ الآتي بسموم الغادي والزائلِ.

يريدُكمْ أن تكتشفوا سرَّ الخلقِ في كلِّ يومٍ .

يريدكم ألاّ تنتظروا المنتظرَ ، بل أن تسبقوا الآتي وغير المنتظر.

يريدكم ألاّ تكونوا شهداءَ زورٍ على زمنكم، بل أن تقولوا الحقيقة .. ومن يصمتْ عن ذلك فهو عاقٌّ ، ولا يستحقُّ إلاّ الفناءَ.

أمّا الذين يقولونَ الحقيقة ، فيمتلكونَ أسرارَ الكـونِ ، ويحـقُّ لهم أن يستأنفوا المشوار في عمليةِ الخلقِ والإبـداعِ ، تشـدُّهم دروبُ الهدى للحقِّ للعدلِ بخيطِ ضياءٍ ، خصباً وارتواء .. حيثُ يكونُ البدُ الصحيحُ للبدايةِ .. عندئذٍ فقـَط تستحقون أن تتشـامخوا ، وتكتبـوا قصائدكمْ ، بوهج صدقِ قرائحكـمْ علـى جُـدرانِ جحيـمِ الإبـداعِ والتوقِ للأكرمِ والأمثلِ والأخلدِ .. دقّقوا لنسمعَ مَا قاله الشاعرُ :

ندمنُ النُعمى ..

نداوي جُرحها الآتي .. بالغادي

فسِرُّ الخَلقِ : أنْ تستبِقَ الآتيَ

خصباً وارتواء ..

عاقٌّ من ينتمي للصَّمتِ

فالصّمتُ .. انتهاءٌ .. وفناءْ ..

يملكُ الأسرار

من يستأنفُ المشوارَ

مشدوداً إلى خيطِ ضياءْ ..

للبدايةِ ..

دائماً ينشدُ للبدءِ

بدايةْ ..

*

سيظلُّ الإنسانُ قلقاً ، مادامَ حياً ويفكرُ في وجودهِ ، في حياته ومعاشـهِ .. وسيظلُّ مصيرهُ يؤرقـهُ مادامَ يجهـلُ بدايتـهُ ونهايتـهُ .. وستبقى حيرتهُ تمزِّقهُ ، تبعـثرهُ ، مادامت هنـاكَ آلافُ الأسئلةِ التي تواجههُ ، ولايستطيعُ إيجادَ الأجوبةِ عليها.

فمنذُ أن كان اللّهُ في الغابة ، كـان القلـقُ ، والأرقُ ، والحيرةُ .. فكـانتْ هـذه وتلـكَ جزءاً من تركيب هـذا الخـالق ، أو هـذا المخلوق العجيبِ ، الذي يبحثُ عن المتاعبِ والإشكالياتِ والشقاء بنفسه ولنفسه ، ويفني ذاتهُ في البحثِ عنها .. ومتـى وصـلَ بأبحاثـهَ إلى مصادر الحيرةِ والأرقِ والقلق .. حيرتـهِ وأرقـهِ وقلقـهِ .. شـوى نفسهُ على جحيمهـا ، وتدفأ برمـادِ تلـكِ النفسِ المحترقـةِ ، وأعـادَ الكرَّةَ من جديدٍ .. فإذا كان سوف يبعثُ من الرمادِ ، كمـا تقـولُ الأسطورةُ ، فإنَّ ذلك سيقتضيه أن يمرَّ بنيران في كلِّ مكـان ، حتى يصـلَ إلى النقـاءِ والطهـارةِ .. وكأنـهُ في سعيهِ الحثيـثِ للوصـولِ ، يسعى جاهداً ألاّ يصلَ ، أو بالأصحِّ لاوصولَ لوصوله .. لأنه كلّما وصلَ ، أو خيِّل إليه أنه وصلَ ، ظنَّ أنه بلغ مرقـاة الوصـولِ ، فـإذا

الوصولُ ، وصولاً للاّوصولْ .. وهكذا تتكرَّرُ اللُّعبةُ ، ويستمرُّ السؤال عنِ أشيائه الصغرى ، وعن الرَّاح ، فلا راحةَ للراح لأنَّهُ يزدادُ نحولاً عاماً بعد عامٍ .. وإذا ما ظننتَ ظنَّ - أنكَ أهرقتهُ ، تبدَّى لك في نوعٍ آخر ، ولونٍ آخرَ ، وآخرَ من آخرَ ، من دفقةٍ ، من نورٍ عاشقٍ ، أو عاشقةٍ ترشرشُ الكونَ بخمرةِ الرِّيقِ واللُّمى المعتقةِ .. وبدلاً من أن تبتردَ الخلائقُ من جحيم القلقِ والحيرةِ والأرق وترتوي .. تزدادُ أشتعالاً ، آنا بعد آن ، وعاماً بعدَ عامٍ .. ويعودُ الظمأ من جديدٍ ، والسؤالُ مِن جديدٍ .. فلا الريُّ يرويْ ، ولا الجوابُ يشفي ، وتستمرُّ اللُّعبةُ من جديدٍ .. فتتجدَّدُ الحيرةُ والقلقُ والأرقُ .. هاكمْ ما قالهُ الشاعرُ :

يومَ كان اللهُ في الغابةِ

يستوضحُ عن أشيائه الصُغرى

وعن حالِ الندامى ..

ودنانِ الرَّاحِ في أقبيةِ الرُّهبانِ

تزدادُ نحولاً

تشتهي

تقوى وحاما ..

رُوحها !!

ضوءٌ يَشِفُّ

فلا تحسُّ له ازدحاما ..

دفقةٌ .. من نُورِ عاشِقةٍ

معتَّقةِ اللُّمى .. والرِّيقِ

تزدادُ اشتعالاً

كلّما أبليتُ عاما ..

تتعدَّدُ دروبُ الوصول .. إلى الوصولِ ، أو اللاّوصولِ ، ما دامَ السّاعي – خالقٌ ومخلوقٌ ، عاشقٌ ومعشوقٌ ، قاتلٌ ومقتولٌ ، خبيثٌ ونقيٌ ، كافرٌ وتقيٌ – مرتقياً دروبَ مقاماتِ الصُّعودِ.

فالدروبُ متعدِّدَةٌ ، ولكنَّ الهدفَ واحدٌ ، والواصلَ واحدٌ ، والموصولَ إليه وبهِ واحدٌ .. أوليسَ الوجودُ ، والواجدُ ، والموجودُ واحدٌ ؟!

إذاً .. فما دامتِ الغايةُ واحدةٌ ، هي الوصولُ أو اللاّوصول ، والدروبُ متعدِّدةٌ إليها ، ومفروضةٌ علينا .. فلنزين هذه الدروبَ ولنجمّلها خلال رحلةِ توقنا ، لنجعلَ منها دُروباً تستحقُّ المسيرَ ، مسكونةً بسرِّ الكون ، بالعشقِ ، بروحِ الخمرةِ الراجفةِ على شفاهِ النّدامى .. أوليس هذه هي التقوى ، كما كانت ، ولازالت سرا كسرِّ العشقِ ، كسرِّ التألقِ الولهان ، كسرِّ الناسكِ الظمآن ، كسرِّ الصهباءِ ؟ برداً وسلاماً على كُلِّ القاصدين ؟!.

والخمرةُ هذه ، أو الصهباءُ كما سمَّاها هنا ، أو التّوقُ ، إن غابت ، أوِ لا تشحنُ أرواح الظامئين بنصيبٍ من مواسم التفاح ، والبلح المنقى ، والخزامى ، لحظة الوصول؟

أولا تندى بفيضها كروم العاشقين لامحالة .. روحاً وعشقاً وانسجاماً؟!

ولابدَّ للساقي آنئذ .. من أن يدير الكأس مشعة [illegible]

الندامى ؛ من العشاق ، والنساك ، والقاصدين ، والواصلين ، وغير الواصلين ، إلى ملكوت الله ، في حضرته ، حول عرشه .. عِندئذٍ فقط يتّحد كلُّ العشاقِ في الدنيا ، كلُّ النسَّاكِ ، كلُّ الندامى ، كلُّ المنتشين بمقاماتِ الوصول .. في نشيدٍ واحدٍ يتعالى ويتعالى : ياحبيب الرُّوح .. في البدء كانَ العشقُ .. ومن ثمَّ جاء السرُّ .. جاءَ الخلقُ والإبداعُ .. جاءَ اللّهُ ، من بعدُ انسجاما.

أرجوكم .. دقّقوا معي في هذا الغيثِ الرائعِ ، من فيضِ هذا المقطعِ ، من قصيدةِ يوسفَ من مزامير يُوسف :

كانتِ التقوى .. ولازالتْ

كسرُ العشقِ ، والصهباءِ

للعاشقِ .. والناسكِ

برداً وسلاما ..

هي .. والعشقُ

وروحُ الخمرةِ .. المسكونِ بالرَّعشاتِ

سرُّ الكونِ

إن غابتْ

فهل تُعطي كرومُ العاشقينَ

مواسم التفاحِ .. والملح المنقى

والخزامى ؟..

وهلِ الساقي .. يديرُ الكأسَ

للنساكِ

حول العرشِ .. مُشتعِلاً

على شفةِ النَدامى ؟..

يا حبيبَ الروحْ !!

كانَ العشقُ .. في البدءِ

وجاءَ اللهُ .. من بعدُ انسجاما ..

أرأيتم كيفَ حلّقَ بنا الشاعرُ في مقـام مـن المقامـاتِ الصُوفيَّـةِ الموغلةِ في الشـفافيةِ والتـوقِ والوجـدِ والامـتزاجِ ، الـتي قلّمـا يصـلُ مرتقاها منهم ، إلاّ من أوتيَ من الكشفِ شيئاً كثيراً ؟! آنـذاكَ يتـمُّ الوصولُ ، فيمتزجونَ في الله ، ويمتزجُ اللّهُ بهم ، ويصرخُ معبراً عـن ذلك رائدهم الحسينُ الحلاّجُ، أو أستاذهُ البسطامي :

أنَا مَنْ أهْوى ، ومَنْ أهْوى أنَا

نَحْـنُ رُوحانِ حَلَلْنَا بَدَنـا

ربَّما .. أقولُ رُبَّما بلغَ الشاعرُ يوسفُ الصياصنـةُ مرحلـةً مـن الشفافيةِ والتوقِ إلى الوصول – ساعةَ التلقين المُبدعِ – مـالا تُدانيهـا مراحلُ مقاماتِ الوصولِ عندَ أولئكَ .. لأنَّ الشاعرَ خلعَ الأنـا منذُ زمنٍ بعيدٍ ، وذابَ في النحنُ ، فكان مقامُ العشقِ للنحنُ ، وهو مقامُ الوصول في البدْءِ .. بشرى يزفُها لحبيبِ الروحِ .. ثمَّ جاء السـرُّ .. جاء الخلقُ والإبدَاعُ .. جاء اللّهُ بعـد هـذا المقـامِ وذاكَ .. انسـجاماً وتناغماً .. وتأكيداً لأسبقيةِ السرِّ وقدسيَّتهِ .

*

مؤكدٌ أنّه سيأتي دارسون بعدي ، أقدرُ منّي وأجدرُ منـي ،

وسيأتي لاهوتيون أكثر معرفةً مني ... فتلمسون عقيدة وحدة الوجود في هذه الملحمة اليوسفية الرائعة ، كما لَمْ يتلمسوهُ عِند أوغسطين ، وليوتولستوي ، وميخائيل نعيمة ، وجبران خليل جبران، بمثل هذا الوضوح... ولا أبالغ ، أو أذيع سراً إذا قلت إنّ دراسة هذه القصيدة قدْ استغرقتني ثلاثة أشهر ونيّف ، وعشرات الأسفار .. أقول عشراتٌ تواضعا ، لأنها في الحَقيقة أكثر .. ومع ذلك أشعر أنّي مازلت مقصّراً عن بلوغ شأوها ، وفكّ رموزها ، وسبر معانيها ومراميها .. وقد اعتذرت لكم منذ البداية وقلت : ليس بالضرورة أن يتطابق تفسيرنا لهذا الرمز مع رؤية الشاعر، إذ على الشاعر أن يقول ، وعلينا نحن معاشر النقاد أن نفسر ، فقد نخطىء وقد نصيب .. انتهى قولي ... فاللهم !! لاتجعلني من الخطائين .

سَنَتوقف معكمُ سيداتي سادتي ، أمامَ المقطع الأخير من هذه الرّحلة اليوسفية في ملكوتِ السماوات والأرض ، كما يطيبُ لي أن أسمّيها ... راجياً ألاّ تملّو ، لأنَّ القصيدة سحيقة الغَور بمعانيها ، وموضوع وحدة الوجود ربّما غريبٌ على البعض منكم .. داعياً إلى الله العليّ القدير أن يُيسّر لَنا مِن أمرنا رشدا ... وبعد ؛

يعتبر يوسفُ الصياصنة .. أيَّ خلق إبداعي يقومُ به المخلوقُ مخلصاً ، جاداً هونوعٌ من العبادةِ ، نسكٌ وتصوّفٌ ووصولاً .. فكلُّ لحنٍ يسمعهُ ويتصبّاه ، وكلّ رشفةٍ يحْسوها ويستطيبها ، وكلُّ عشقٍ مدمّىً ينصهر في جحيمه ، وكلُّ خمرةٍ يتهجى طعمها ، وكلُّ نعمةٍ يستقرئ فيضها .. هي قربانٌ إلى ذاته العليّة ... إلى خالقهِ وعاجنهِ وناحته ومُسويهِ ... هيَ عقيقةٌ على مذبح الخلقِ والابداع .. هي صيامٌ و صلاةٌ أبديّة .

يبدأ الشاعر مقطعَ قصيدته الأخيرَ . بتنسيقٍ رائعٍ لمسيرةِ الأحياءِ على دروب الوصول ، بكلمةٍ ، نبدأ.

ونبدأ كلمةٌ .

وفي البدء كانَ الكَلِمَةُ .

وكانتِ الكلمةُ الرّمزُ .. اقرأ باسم ربك الذّي خلق .

فباسم الذي علّم بالقلمِ .. وعلمَ الانسان ما لم يعلمْ

وباسْم الذي أقسم بالنّون ، والقلم ، ومايسطرونْ.

وباسم الذي أنطقَ نبيَّه قائلاً : وقل ربيّ زدني علْماً .. أقول:

قالَ يوسفُ : نبدأ !!

فكيف نبدأ ؟؟ ... وبماذا نبدأ ...؟؟

نبدأ بالخطوة .. والخطوة حركةٌ ، والحركةُ حياةٌ .

ثمَّ نُثنيٌ بالرشفةِ .. ولكنّها ليستْ كالرّشفات .. إنها رشفةٌ من ريقينِ اثنينِ امتزجا .. وتعانقا في إيقاعٍ مُنسجم .. فياللسّحر والترتيبَ !!

خطوةٌ ... وإيقاع رَشفةٍ .. ثم نتلوها بخطوةٍ ... يقول :

نَبدأ الخطوة .. والرّشفة من ريقين

ياللسِّحرِ .. والترتيب !!

إيقاعٌ ... وخطوة

ثمّ نتلوها بخطوةْ...

أرأيتم كيف أأتمُّ بالنّصّ ، لا أستطيع أن أبتعد عنه بوصةً واحدةً، خشيةَ أنْ أضلَّ فأضلَّ .. أترسَّمُ أنغامَ التّفعيلات والحركاتِ والسكناتِ .. وأتوسَّدُ القوافيَ صُوى أهتدي بها في مهمه القصيدة...

نبدأ بخطوةٍ .. ثم نتلوها بخطوةٍ . وبين الخطوتين مابينهما !!
ثم يبدأ الإسراء ؛ بانثناء وانحناء، وسُكون ومسير . أو ليست هذه دربُ الوصول : خطوةٌ ، ثم نتلوها بخطوةِ عزمٍ وشبابٍ ، ثم تثقل الخُطا ، ويبدو الإنحناء والاحديدابُ ، ثم يعقبهُ التعب فالراحة ، لاستئناف المسيرِ ...

هذه هي خُلاصةُ مسيرة الخلائق على دُروب الوصول . واحدةٌ مهما تغيرتِ الدروبُ وتعدّدت المقاصدُ ؛ طفولةٌ ، فيفاعٌ ، ففتونٌ وهوىً ، فرجولةٌ واكتمالٌ ، فشيخوخةٌ واحد يدابٌ ، فتعبٌ وهويناءُ.

هذه المسيرةُ الطويلةُ الطويلةُ على دروب الخلاص ، وما يعتورُها من حيرةٍ وقلقٍ وأرقٍ ، وعذاباتٍ تتوالدُ منْ عذاباتٍ .. هي رشفةٌ عجلى منْ عمرِ الزّمن ... ونحنُ واحسرتاه!! لانعرفُ شيئاً عن الزّمنْ إلاّ ماتواضعنا عليه من تقسيمات لهُ من اختراعنا .. لنخفف من قلقنا وحيرتنا على دروب الريادة للوصولْ.

فمنْ يستطيعُ أنْ يجزمَ ، أوْ يؤكد أنَّ القرونَ والسنينَ والأشهرَ والأسابيعَ والأيّامَ والساعاتِ والدقائق والثواني .. هي الزّمن ؟! من يستطيع ؟

كُلُّ هذه المسميات ليست من الزّمن في شيءٍ ، إنما هي أسماءٌ سميْتموها أنتم وآباؤكم .. أينَ آدم وحوّاء ؟

أينَ نوحٌ وإبراهيمُ ؟

أين بلقيس وأدونيس ؟

بل أين ثمودُ وعادُ ؟

أين ، وأين، وأين ؟ .. كلّها أينَ؟!

أجل إنّها رشفةٌ عجلى .. فليتّعظ الغافلون !!

الرشفةُ صوتٌ ، والصوت لحنٌ ، واللحنُ موسيقى ، والتقاءُ الشفتين بالشفتين مدرجٌ للموسيقى .. بلْ صوتٌ التقاء الشفتين بالشفتين أوّلُ لحنٍ موسيقي عزفه الإنسانُ على أوتارِ نفسه .. ثمَّ موْسقهُ ودوزنهُ على كيفِهِ وهواهُ ، حتى أصبحَ غابةً من الألحان .

مدرجاً موسيقياً ، نُوطةً موسيقيةً ، تُكتبُ وتُسجَّلُ بأبجديتها – أبجدية الشّفتين – بقية الأنغام التي تنزلت علينا ، وتعربشت بقلوبنا من خرير السواقي ، وحفيف الأغصان ، وبُحَّةِ النايات ، ورندحةِ المزاهر ، ونقر الدفوف ، وهسهسة الحُلي في معاصم العذارى .. لترتفع بمستوى المتلقي إلى أفاقٍ جدٌ سامية ، تليقُ بإنسانيته وإبداعه .

وحينما يرتقي الإنسان صعيداً عالياً في إدراكهِ للموسيقى ، والإحساس بها يُصبحُ هونفسهُ نَغَماً في غابة الألحان الكونية ، وفي منتهى الإنسجام .. فيصفو النغمُ ، ويخلو من النشاز ، وينساب مع بقية الأنغام .. وتصبح الموسيقى بعد ذلك هماً منْ هموم الانسان الكثيرة على دروب الوصول ، مادام على أديم هذا الكوكب الحزين .. وتغدو الألحان النازفة من إيقاعات الأوتار ، حبالاً من السّهدِ والهيام ، يُعلّقُ الإنسان القاصدُ نفسه وروحهُ على ذبذباتها .. ويطولُ تعليقُه وعذاباته... ويتمنى لتلكَ العذابات أنْ تطولَ ، ولاتنتهي ، يقول الشاعر :

ثمَّ نتلوها بخطوةْ

وبإنحناء ، وانثناءْ

وسكونٍ ، ومسيرْ ..

رشفةٌ عجلى .. وموسيقى

بها التّبويبُ والأنغامُ ؛

من همْسِ السّواقي ..

وحفيف الغُصنِ .. من بُحة نايٍ

يتسامى ....

نَغَمٌ يصفو ..

ولحنٌ نازفُ الإيقاع والأوتارِ

سُهداً .. وهياما

وهُنا يتجاوز الإنسان كُلَّ مقاماتِ الوصول ، ويستوي القاصد والمقصود ، ويمتزجان معاً .. تتحوَّل المُتع كلُّها إلى طقوس عبادةٍ .. موسقى الشفتين والأوتار ، والرشفين ، والعشق المدّمى . وخوابي الراح ، وكلّ النعمياتِ .. تصبحُ صلاةًوصياماً ، يقول :

ومن اللحنين .. والرشفينِ

والعشق المدّمى

وخوابي الراح ... والنّعمى

صلاةً وصياماً ...

اللهمَّ إنيِّ اجتهدتُ ، فإنْ أصبتُ فأنتَ القصدُ ، وإلاّ فاغفر لي ، واحشرني مع الصديقين .

هوامش على ديوان جُمة الريحان

للشاعر الشعبي أحمد قداح «أبو عرب»

جمةُ الريحان ، ديوان شعر شعبي رقيقٌ ، ليس ككلِّ الدّواوين، فهو ما ألِّفَ ليطبع ويُنشر ويُقرأ ، أبـداً ، لأنَّ هـذا غـضٌّ مـن قيمـة الديوان . إنما ألِّف ليغنىً وينشد .

وجمّةُ الريحان لشـاعر حـوران الشـعبي «أبـو عـرب » قصـائدٌ شوقٍ مكدّسـة ، صاغهـا لهـاث الشـاعر المعمـود ، لتغنـى وتنشـد ، ويترنّم بها بتهجدٍ وتنهدٍ وتعبّـدٍ . فقبـل أن تعشـقها ، بعـد سمـاعك جرسها ، تكون قد طارت بـك في أحـواز الفضـاء بلغتهـا الرشيقة العذبة ، لتعلّقكَ على حبالٍ من الوجـد والضنـى ، والأوف والّليـا . مشدودة بين جبال من النور ، ووهـادٍ مـن الظـلال ، وسـهول مـن الريحان والعنبر ، وكروم تختال بشقائق النعمان زاهيةٍ بلونها الأحْمـر. وتتركك على أرضيةٍ الدّهشة والتوقعات ، وتفرغ في قلبـك وخيـالك وفكرك أطيافاً هائلةً مـن الشـحنات العاطفيـة ، الـتي تحجـب عنـك الزمن ، وتريك مالايمكن ان يُرى ، وتسـمعك مـا لم يكـن يُسـمع ، وتـتركك في حالـة عائمـة هـي أشبه بحالـة انعـدام الـوزن ، فتشـمّ الصدى ، وتستنشق الضوءَ ، وتتغرغـر بـالظلال ، وتسـمع الألـوان صادحة وراء مدى الظن والانبهار .

وجمة الريحان في الأصل شلالٌ من الموسيقى الهادرة في بيادر الأبجدية الرخصة وسواقي اللغة الناعمة الرطبة ، التي تحمل في موكبها وشوشات الطبيعة ، وعندلة الأطيار ، وهديل الحمائم ، ونزيب الظباء ، وبحّة الحساسين ، في جوقةٍ غنائيةٍ صادحة على أرضية القصيدة العذبة ، حيث يصلّي على أديمها الضوء والعبير والعنبر .

الأرض والوطن في ديوان الشاعر

ولو حاولنا أن نتجول مع شاعرنا عبر رحاب قصائد ديوانه ومعانيها ومقاصدها . لوجدناها تتمحور حول عبادة الوطن والتهجد على أرضه المقدسة ، فأبو عرب الشاعر في رحم الأرض تخلّق وتكوّن ، ومن أديمها تشكّل وتلوّن ، وعلى ثراها درجَ وعرجَ، وامتزجت به وانعجنَ بها ، فاختلطت مع كل خلية من خلاياه ، ولوّنت كلَّ شعرةً نبتت على أهدابه ، وعلى، كل سنتيمتر من إهابه وزواياه . وراحتُ تهزج وتغني مع كلّ نبضةٍ من نبضات قلبه الملوّح بحبّها ، وتغني مع كل كرّيةٍ من كرياته وتتلون بأصباغها، تعيش بداخله ، وتحيا في عقله ، وتعربش خضرةً وفرحةً بقلبه ، وتُعرّش ياسميناً وليلاباً على كل عصبٍ من أعصابه ، وتمايل حبقاً وزيزفوناً مع كلِّ دفقةٍ من دفقات النجيع الأحمر في شرايينه وأوردته اللاهثة .

فلاغروَ ، والحالة هذه ، إذا قضى العُمر يُغنيها أحلى قصائده، ويهدهدها بأجمل ترانيمه ، فتتحرك في خاطره ، وتتراءى مع الأضواء والظلال المرتسمة في أحداقه .

والأرض عند الشاعر أحمد قداح ليست تلك الجمادات

والأوابد فحسبْ ، بل هي الظبيّ السانح ، والغـزال البـارح ، والقطيع السارح ، والطير السابح ، هي السهلُ والغدير ، وانطلاقه الجداول والخرير ، والماء والخضرة والخير العميم . هـي الأرض بسكانها وإنسانها ، بأسراب الجنّايات يملأن الكون ألحاناً وأنغامـاً ، هي الحرّاث وراء محراثه ، والراعي يقودُ قطعانه بألحانه . هـي الأرض بوعرها ورجومها ، بصيرها ورسومها ، بهضابها وكهوفها، بسمائها وكواكبها ونجومها ، بقمرها وشمسها ، بنسيمها ونعيمها .

عجيبٌ إحساس الشـاعر بـالأرض والطبيعة من حوله بكلِّ مافيهمـا ! وكيف يثير الحيـاة نابضـة في دقائقهـا ، لابـل في أدقِّ أجزائهـا ، وأرقِّ نباتاتهـا ، فتنتشر ورقـاً ونـدىً ، وتتطـايرُ حمائمـاً وحفيف أجنحةٍ ، ووشوشة هوىً ، في «سمفونية» رائعـة الإيقـاع ، آسرة الترانيم ، آخاذةِ التلاوين ؟.

ففي أولى قصائد الديوان «ميلاد البعث» مثلاً ، تتـألق صـورة الوطن الأرض ببريق يبهر الأبصار ، وتلقينا على أرضيه مخملية رائعة من الدّهشة والانبهار ، فنحس الحـروفَ وهـي تتوالـدِ بـين أيدينـا ، وترتعش في أسماعنـا ، وتتغلغـل في خواطرنـا ، وهـي تُسجِّل ميـلاد الحدث الكبير بصورة حيّة ، كما تتشكل في أوصـال الجنـين ، دون طموح في جسر الزمن ، أو اصطناع التحـاوزات في قفـزات نوعيـة تشوه عملية الخلق ، ودونما حاجة لمراهقـات فكريـة تحـرق المراحـلِ ... لا ، لا بل تتخلّقُ الحياة ببساطة وهدوءٍ واطمئنان ، كما النسـغ يسري في عروق الشجر ، وكما الألوان تصبّغ أكمام الزّهرُ ، علـى أنغام هادئةٍ تواكب عملية اكتمال الخلق بجلال وروعة ، وبلا إغفال لأيِّ مرحلة من مراحل النضال ، حتـى مع أدقِّ التفـاصيل وأخـصِّ الخصوصيات ، وليت القارئ يتابع معنا إيقاعـات القصيـدة ، وهـي

طويلة جداً كقوله :

كِبْر العَدَدْ

بشارتك يُمهْ إلي ، جانا ولد

سميه إنت يا بلد ..

سَميهْ اسم من ريحة النّوارْ

من الفجر ، من شمس الشرق

من الغار

من قلب شال الهمّ ليل نهار ..

من صُرّةِ امرابع ،

ماليها رغيف

من مشنقةْ عامل ،

ملقّح ع الرّصيف ..

من خابيةْ تعربش عليها العنكبوتْ

من صوت طفل عَ صِدر أمّو بموت ..

من الضيمْ .. من الكرباج

مِنْ سنين القَهرْ

من عود كان اخضرْ

يبسُّو الدهر

من سرج فرغ من صاحبو وأصبح ورث

من صرخة الفلاح ، وكروم الشّعير

منْ طَعْنِةِ المظلومْ ،

طَعْنةْ ظَالمةْ ...

من الآه ،

من الونّات ،

من عتمة سجن

بشارتك يُمةْ

جاني ولد ،

سَمَيْهْ إنت يابلد ..

وهكذا يبقى الشاعرُ متفائلاً حتى وهو يرسمُ أدقَّ تفاصيل القهر والعذاب . بصور وفلاشات متلاحقة ، تجعل السماءَ حولنا تُمطر حزناً وهماً وغماً ، إلاّ أنّه في آخر كلِّ مقطع من مقاطع القصيدة الطويلة ، يعود بنا إلىالتفاؤل والأمل ، ويبشرنا بميلاد البعث الجديد . وهذا وكد الشاعر وديدنهُ دائماً ، لأنه يحبُّ الحياةَ، ويعشق الإنسان .

والشاعر رغم السّربال العاطفيِّ الشفاف الذي يُغلف به قصائده ، ورغم تمسكه الشديد بالوطن والأرض ، وتغلغله عبر مسارب الطبيعة وبثها شكواه ، فإنّه لا يُوقعنا في مغاور الرومانسية وضبابها القاتم . فالطريق أمام الشاعر واضحة جلية ، والرؤية مشرقة مضيئة ، وهو يسير في بناء قصيدته على أرضية صلبة ، وإن كان يُزيِّنها بنتفٍ من قلبه ، ومزق من روحه ، ويزرع لنا البسمة عند كل منعطفٍ وعلى كل بيدر ، لنستمع إليه يقول :

زَمْجر رَعدْ نيسانْ

حرّك معو البركان

ثارت فروخ الجان
ماهو تبع
برقو لمع
نادت ع غيمة مارّة سوده
سوده بسواد الليل
نادت بقوة حيل
روحي .. أجتك الخيل
ارجال مثل السّيل
ابني اتولد ، عند الفجر
والفجر يمحي الليل ...
يوم الخبابي راح
يللا ارحلي ياجراح
ثوري يافرسان الأمل
وادفقي يارياح ...
اليومْ يومكْ يابَلدْ
فَتّحْ وردْ نيسانْ
يَللاّ ارحلي ياحزان
وتعربشي ياخيوط
مليانهْ أملْ
ع السّجن ،عَ الطرقانْ

* * *

هـذا هـو الشـاعر ، دأبـه الأرض والوطـن ، وزراعــة الأمــل والثقة. منهما يبدأ ، وإليهما يعود . يغارُ في كل مقطع من مقـاطع القصيدة على معجمه اللغوي ، فيحول ويصـول ، يتمـزق ويحـزن ، تسودُّ الدنيـا ، وتعتـم الـدروب ، لكـن لابـدّ لـه في النهايـة مـن أن يكنس جيوش الظّلام ، وجحافل اليأس ، فينقشع الضّباب ، ويورق الرّجاء ، ويعود الشاعر – كما راينا في نهاية المقطع ، والذي سبقه، والذي يليه – ليزرع الأمل من جديد .

أوليستْ هذه هي مهمة الشاعر الرئيسة ، التي عليه أنْ يعتنقها كقـدرٍ ، كصليـبٍ يحملـه على كتفيـه ؟! أجـل إنّ مهمـة الشــاعر والأديبِ والفنان ، أن يجعل الحياة رخصةً هَنيّةً ناعمـة ، تسـتحقّ أنْ تعاش . مهمّته أن يزرع البسمة على كلّ الشفاه ، والفرحة في كـلّ العيون ، والأمل في القلوب ، والأرض بالرجال المخلصين .

والشاعر يظل ابن بيئته يؤثر فيها ، كما تؤثر فيه :

يؤثر فيها ؛ حينما ينقلهـا لنـا لوحـاتٍ حيّـةً خـالدةً على مـرّ الزمن، تفنى الدهور وتظل الصور والمعاني في القصيدة حيّـةً ، طالما وجدت مُنشداً ينشـدها ، أو قارئـاً يرددهـا ، وطالمـا ظلّـت قامـات بنات العشيرة مشرّعةً كالرّماح الردينية على دروب العـين ، وطالما ظلّت حناجر أبناء القبيلة متوهجة تردّد أبيـت العتابـا والميجنـا على ذرى الرّوابي وامتداد السهول الفيح ، فيعمّق تعلقنا بها ويزيد تشبثنا فيها . وستظل هذه اللوحات محفـورةً في أذهـان النّـاس طالمـا ظلّـت أهـدابُ الشّـويحية وشـراباتها تعـزف علـى خصـور جنايـات الفطـر والعكوب ألحان الشوق والفرحة ، وطالما ظلت مضارب بـني طـيء على ربى حوران تستقطب الأضيـاف علـى صـوت مهـابيج القهـوةً المرّة، ومواقد الشّيح والبلان .

– وتؤثر فيه ؛ حين تنغرس خنجراً في أعلى الخاصرة ، فلايستطيع منها فكاكاً ، ولا يقدر أن يفارقها ، أو ينزح عنها ، أو ينتزعها من خاصرته ، لأنها عندئذٍ ستغدو نزيفاً لايرقأ وموتاً مؤكداً له ، لتدفق الحياة وتسربّها من طعنة الخنجر .. والشاعر في كلِّ قصائده جعل وطنه ، أرضه ، حقله ، بيدره ، حاكورته ، خنجراً مغروساً في أعلى الخاصرة ، لاخلاص له من هذه الطعنة , ولا هو راغب في الخلاص منها . وما أحوجنا في مثل هذه الظروف ، إلى التمسك بالأرض بالوطن بالتراب بالخنجر .

الغزل ممتزجاً بطبيعة الريف

والشاعر القداح ، حتى وهو يتغزل بحبيبته ، يظل يرى فيها بركة الأرضِ ، وحمرة التراب . فهي لديه ليست رمحاً طويلاً ، وخداً أسيلاً ، وردفاً ثقيلاً ، لا ولا إذا بكت سكبت لؤلؤاً من عيون نرجسية ، وأسقت خدوداً كالورد ، وعضتْ على أنامل رقيقة كالعنّاب . بأسنان ناصعة البياض كالبرد ... لا إنها البنت الفلاّحة البسيطة بشحمها ولحمها ، بترابها ودمها ، بكلّ مافيها من طُهر وبراءةٍ ونقاء ، كالقمر كالشمس ؛ بشمبرها الأسود ، وعُصّبتها الكحلية . وشفافيل ثوبها وأردانه المطرزة . رقيقةٌ طريةٌ كالحدندوقة التي ترتعيها خرافه . حبها نارٌ تسْري في عروقه فتشعلها بالنخوة والشرف ، لم يرها في قصرها ، لا ولا في مصيفها .

رآها في الطبيعة وعلى الطبيعة ، كالأرض التي يهواها ، والحقول التي غنّاها ، لنستمع إليه يقول من قصيدة «قتلتيني» :

قتلتيني

قتلت أيامي وسنيني .

ان كان الهجر من طبعك

وحُبك في شرايني

قتلتيني

أني شفتك

ع الدربِ تمشي

احترق رمشي

شفت القمر ، أنت أجمل

شفت الشمس ، أنت أجمل

شفت السّما . انت أجمل ...

آية وحسنها يسحر

والشنبر ،

يغطي الصّدر

فوق الموج ينتقل ...

والعصبة .

بسواد الليل

مخملْ .. مُوجة المخمل ..

ثوبك ،

مطرزه اردانه

بوردِ السهل ،

الورد أجمل

بحدندوقة .

أقول أجل

** *

قتلتيني

يامستورة ...

إن كان الهجر

من طبعك ،

وبقلبي ألف صورة ..

وألف آية .

سلام وحبٌ

وصباح الخير منذورة ...

وكل عاشق ،

ع وجه الأرض

اذنوبه كلها مغفورة ...

قتلتيني !!

إنت حبّي الأول

أحبك أكثر من أول

وإنت حبي التالي

وإنت ساكنه ببالي ..

قتلتيني

أمانه .. ترحمي حالي ..
مادام الناس
فيها قلوب
بتحبك
ولوتابت ،
أني ماتوب
فتلتيني
ياحله غروب
سما حوزان .. بعيونك
وعلى شفافك بقايا
غروب

* * *

أرأيت كيف يكرج الريف أمام عينيك ، على صدر ريفية تنتحر الأشواق كلها في عينيها ، وتتكسّر الألوان والفراشات على أرْدان ثوبها ، وتنام الشمس وظلال القمر مستريحة على زغب المخمل والحدندوقة بثوبها ؟

كثيرون همُ الذين لايعرفون الريف ، وبنات الريف في بلادي، إلاّ على بطاقات السيّاحة ، وتقاويم مكاتب السّفر ، حتى أولئك الذين ولدوا فيه ودرجوا على أرضه ، ثم ارتحلو عنه إلى المدينة ، طلباً للعلم أو العمل أو غير ذلك ، فإنّ هؤلاء قدْ التهمتهم المدينة . ودجّنتهم وفق طباعها وطبائعها ، وروّضتهم حَسَبَ

مبادئها وهواها ، وسلبت منهم نخوة الريف وضيَّعتهــم ، فضــاعوا ، فلا المدينة تهضمهم وتعترف بهم ، لأنه سـيظلون حوشـاً بنظرهـا ، ولا الريف يعرفهم لأنهم انسلخوا عنه ، وانفضوا من ذاكرته ، فهـم لايزورونه إلاّ على أطراف السِّنين وفي المناسبات .

ولايعـرف الريـفَ إلاّ الذيــن انعجنــوا فيــه ،، وذوّبــوا فيــه أرواحهم، وسقوه بجهدهم وعرقهم ، وأنفقوا فيه أيّامهم وليــاليهم ، وعاشـوا فرحـه وحزنـه ، ربيعـهُ ومواسمـهُ ، همّـهُ وغمّـه ، أو قـرأوا قصائدَ الشوق في عيون الريفيَّات الواسـعة ، وسمعـوا أناشـيد الحـبِّ تنطلقُ من حناجر شبابِ الرِّيف في الأفراحِ والمواسمِ ، وليالي البيادرِ المنعّمةِ الطوِّالِ ، أو رأوا الطُّهرَ يطفرُ على ثغورِ عذبةِ الرِّيق ، وشفاهٍ لم تدنّسها الأصبغة والزيف ، استمعوا للشاعر ماذا يقول :

ارتعش قَلْبي

مُوجة عِشِق بعروقي ..

الأرض مادَتْ

السَّمَا مادَتْ

من شُوقي

لهيبُ ونارْ بعروقي ..

الوجه صافي

العنقْ وافي

بسمة صبح ، من ثُمّكْ

هزّتْ أطرافي

صباحِ الخيرْ ، ياعيوني .

ناشدتكم بالله ؛ هل هناكَ صباحٌ أجملُ من هذا الصباحِ ، قشطةٌ تحملُ القشطة ، وحليبٌ يمثلُ صفاءَ الحليب ، وصباً يحمل كلَّ تلاوين العفةِ والجمالِ والطُهرِ ، يفحوكَ بهذا الصباحِ الصبوح ، فيحملكَ على أجنحته الإلهية ، ليزرعك في سماءِ قزحيّةِ الرؤى ، مغمّسةٍ بألفِ غيمة عطرٍ ، مطرّزةٍ بألفِ لونٍ ، ثمَّ يُعلّقك على أهدابِ الصباح :

صباحْ الخيرْ .. ياعيوني

وانتِ الصبْحْ .. بجفوني

وانتِ لهفةْ جْفوني ..

اذَّللْ .. اتْهَلْ

أغيب اسألْ

مَهُو لونكْ على لُوني

نسيتْ أنهمْ .. يكْتلوني ..

يقتلوني ؛

مني مقتول يا عيوني .

ثمَّ يتابع الشاعر قصيدتهُ بلهفةٍ لاهثةٍ ، يحدّثنا عن حُبّهِ الذي لايشينه بين أبناء العشيرةِ وبناتها ، ولأيسيءُ إلى التي وهبها سواعدهُ، وقلبه ، وَشرفهُ ، وحبَّهُ ، فكيف فكيفَ أحبَّها ؟ وكيف قتلتهُ ؟

يقتلوني .. مني مقتول يا عيوني

بسوالفنا ، بغنانينا

بقصايدنا ، بحدادينا

بتربة أرضنا الحمرهْ

بكل شيءْ

مرجعو لينا ...

يقتلوني .. مني مقتول يا عيوني

لأجل عينكِ

يضيع العمر

أموت بقهر

من غمزة بطرف عينيكِ

هكذا يحبُّها ، وسط أهليها وناسها «بسوالفنا بغنانينا» بهدومها وثيابها ، وبالتالي يحبُّها بقشرها وجوهرها ، بعاداتها وطقوسها . يحبُّها كما هي ، كما الطبيعة بكل أزهارها وأشواكها «بتربة أرضنا الحمره» ، «بكل شيء مرجعو لينا» فتشيله وتحطّه وتزرعه على أهداب اللّيل ، يقول :

أتحسَّرْ ؛

على العرجهْ

على الدامر

على الشنبرْ ..

أطير ، أرتاح

بدون جناحْ

أغفى ، وارتعشْ
واسكرْ ..
والقذلةْ ؛
بسوادِ الليلْ
أقولْ الليلْ :
مثلْ قلبي بتحسّرْ
شامةْ في صَحِنْ مرمرْ
قتلتيني ؛
بحْرِ عيونكِ الأزرقْ
أموتْ .. وأغرقْ
أحنْ ، وارتعشْ ، وأغرقْ
يرجَع قلبي يتمسكنْ
يتعلّق
أبْحرْ من الشفافيةْ
أصفى من البحرُ وأغمقْ ..
مِهل حورانْ ع شفافكْ
قصيدةْ عشق مرويّةْ
يبادرْ من جنى ليّامْ
وفا ، وعاداتْ شرقيّةْ
قتلتيني ..

اللغة المحلية عند الشاعر

ما شعرتُ يوماً بازدواجيّة لغتنا ، إلاّ حينما استمع لقصائد الشاعر أحمد قداح – كهذه السابقة وغيرها – وأنا الذي أسرته عبقرية اللغة العربية وأصالتها ، واستعبدتني الفصحى حتى بتُّ لاستعمل غيرها حتى مع السُّوقة وأبناء السبيل . أمّا حين استمعُ لهذه اللغة العامية الموحية المليئة بشتى التلاوين والصور ، فإني أدقُّ وأرقُّ وأشفُّ وأذوبُ واستلقي على أرجوحةٍ من الخضرة والعبير ، لأتمكّن من ملاحقة نبراتها ، ومتابعة سحبات الرصد ، وتوجُّع الصّبا ومدات العتابا والميجنا في موسقى ألفاظها الشفافة ، التي تسيلُ رقراقةً متأوِّدةً بغلالاتٍ رقيقةٍ من الشوق والضنى والوجد ... استمع معي لقول الشاعر :

هدرجي الكانونْ .. خبِّي شكوِتكْ

مشتاقلكْ .. مشتاق أسمع هرحتكْ

مشتاق لخبزهْ هنيّهْ مقحمشهْ وشفشق لبن

وزحلُوقة فشِّت شكوتكْ ..

مشتاق لافحلِ البصل ، وخبزةِ شراكْ

وزعتر وزيت من بيطسكْ

أروي حنيني بهرحتك

والمصطبة يفيق النّدى عَ طرافها

وبحُضنها ينام القمر .. مع هرحتك ..

هدرجي الكانون .. دفّي غرُبتك

هنيالْ قلبكْ .. رغم قسوة وحدتكْ

يا خيول غربهْ .. مهجرةْ بقلوبنا

مشتاقلك .. مشتاق أمسحْ دمعتكْ ..

قديش عذّبتي القمرْ .. وهوّا قمر!

وقدّيش لفيّتي الليالي بقذلتكْ !

وقدّيش ساهرتي نجومْ السّاهرة !

وأنتِ تباهيها بخوازي غُرجتكْ

وقدّيش وقفتي ع باب الدّار

تاترجع النّسماتْ معها مهجتكْ .

وقدّيش هالشّتير شالْ دموعْ .

وأنتِ عَ دربِ البرد مع حسرتكْ

أهذه مفرداتٌ شعريَّةٌ ؟ أم هذه فوانيسٌ إلهيةٌ معلقة في سماء الكلمة الشعبية ؟ تتزاحم كلها في مطلع واحدٍ ، من مطالع قصيدةٍ من قصائد الديوان بعنوان «رجع الصَّدى» أنها فسقية واحدة من مغاور الزمرد والياقوت التي سنسير على أرضيتها عبر قصائد الديوان كلها ، فتأمل يارعاك الله !!

فكيف إذا ولجنا معاً عبر حواكير القصائد ، وبساتينها الوارفة، حيث ترى قدرة اللّه وعظمته ، مجسّمةً ، ترتفق حضن كلمةٍ ، وتتكيء على مسند حرفٍ ؟ !

أوليس اللّهُ كلمةً؟!

أوليستِ الحياةُ كلُّها كلمة كُنْ ؟!

أوليس الإنسانُ نفسهُ كلمةً ؟!

إنَّ أجمل تعريفٍ قرأته يعرف الإنسان هو : أنه رحلـةُ أصابعه على الورق .

وأيُّ ورقٍ ذاك الذي يحتمـلُ أن يكـون ملعباً لريـاح وشمـوس كلمات الشاعر وموسيقاها التي تنساب كوسوسة الحلق المعلّقِ في أذنِ جميلةٍ ، سقط منذُ دهورٍ على رُخامِ الكتفينِ ولم يصلْ بعدُ !

تباركتْ حروفك كلماتكَ يا زورق الشعر في ديوان « أبـو عـرب» تلـك النجـوم المعلقـةُ في سمـاءِ القصـائد ، المتعانقـة علـى صفحاتِ الورق ، كأشواقِ مسافرٍ داهمَه الغرق ، ولم يغرق.

فمفرداتُ الشاعرِ مغرقّةٌ في محلّيتها ، يعرفها كـلُ مـن أسـهدهُ العشق في الليالي الطويلةَ على الكديسِ تحت جدائـل القمـر ، وكـلُّ من أطفأ ظمأهْ من شكوةٍ تنام مستريحةً تحت غمرٍ من القشِّ أو عنـد طرفِ حلّة في الحقل ... استمع إليه يقول :

مشتاقلك

مشتاق أسمع هرجتكْ

من يسمع كلمة «هرجتكِ» باللّهجـة الحورانيـة ، يشـعر بـأن حروفها ايقاعات موسيقية رقيقةً موحيـة ، مصاحبـةً لحنيَّةٍ وحميميَّةٍ لامثيل لها ، على مدرج موسـيقيٍ طويـل ؛ تبـدأ بحروف الجـوف ، فالحلق ، فـالفم ، ثـم تتكـئ علـى الأسـنان . كـل ذلـك في مفـردة واحدة ، فتأمل هذه السياحة الطويلة مع ايقاعاتها . ومثلها كلمـاتٌ كثـيرة يصعـب عدهـا مثـل : « مقحمشـة ، طرقـوع ، غـوازي عُرجتكْ، بقُذلتك ، الدّحنون» .

وكثـيراً مـا يعمـد الشـاعر إلى تصغير الكلمـات لـيزيد مـن تعبيراتها الموحية ، كقوله : «مهيرتي تصغير مهره» وغيرها . وكثيراً

ما يعمدُ كذلكَ إلى التقليلِ عند الحاجة ، والتكثير في بعضِ الأحيـان وتظل الألفاظُ لطيفةً مختارةً منتقاة ، تناسب الموضوع وتوائم المقام.

الطبع في الشعر :

لو ظلَّت قصائدُ الديوان كما وُضعـتْ لأولِ مـرةٍ ، بشـحمها ولحمها ، بدمِها وغبارها ، لكان أفضل بكثيرٍ من تَلك التي تناولتهـا يدٌ صناعٌ بالتّشذيب والتهذيبِ . لأنّها بذلكَ أخرجتها عن أرضيتها الطبيعيـة ، وأبعدتهـا عـن مسـاحاتِ الدهشـةِ والتوقـع والانبهـار ، وأوقفتْ تدفّقها الطبيعي بوحشيتهِ المدهشةِ ، وطموحهـا في امتـلاكِ أقصى طاقاتِ التعبير والتفجير في اللغة ، وأطفـأتْ عـن عمـدٍ كثيراً من الشُحناتِ الكهربائية التي تصدمُ أعصابنا ، وتُكهربنـا ، وتزرعُنـا على أرضية واحاتٍ مضيئة مزروعةٍ علـى أجفـان السـحاب . ومـع ذلك تظل اللفظة في الديوان كله شرنقة ، تتمخض حروفهـا لتغزل خيوطـاً مـن الضـوء والحريـر وتصنـع الصـوت والأنغـامَ والألـوانَ والدّهشة.

إنَّ اللفظـة حينمـا يُطلقهـا الشـاعِرُ ، تنفجـر كومضـةِ بـرق خاطفٍ في أذهاننـا ، ثـم تنسـحبُ مخلّفـةً وراءَهـا مُذنبـاً هـائلا مـنَ الضوء والعبير ، واللونِ والظلال ، تظلُّ تتلامحُ في عقولنا ، وتشرّشُ في قلوَبنا بدغدغاتٍ محَببةٍ تسربلُ النّفسَ ، وتضيءُ الوجدانَ ، وتنشُرُ البهجةُ والرضا على الوجوه.

مهمة الناقد

وأخيراً ، وليس آخراً .. مـن منّـا يجـرؤُ علـى الإدعـاء عندمـا يتصدى لقصيدة شعر ، أنهُ قادرٌ على الإحاطة بها ، وفكٌ رمَوزها ، وشرحِ طلاسمهـا ، أو حتـى مـن مجـرَّد الاقـتراب مـن المعمـل ، مـن

المصنع ، من المصهر ، من الجحيم الذين يصطلـي فيـه الشّـاعر وهـو يُعاني لحظة الخلقِ والابداع؟

أبداً ، أبداً ، فهو مُدَّعٍ كاذبٌ ، لأنَّ الشاعرَ أو الفنّان نفسهُ ، قد يخفقُ في تسجيلِ لحظـة الخلق والإبـداع ، وحتـى قـد يفشـل في بلوغ قمَّةِ الاحتراق والتوهّج ، فتأتي قصيدته ، أو تمثاله ، أو لوحتـه فجّةً غير مكتملةِ الخلق ، وربّما مشوّهة الخلـق ... وإنْ زعـم دعـيٌّ اقترابهُ من تلـك اللحظـاتِ ، فإنمـا اقترابـه يكـون في الوقـتِ الـذي انطفأتْ فيـه نـيرانُ جحيـم التجربـة سـاعةَ التلقـين المبـدع ، حيـث لايبقى غير الدخان والرماد.

وما القصائدُ ، والتماثيلُ ، واللوحات الـتي بـين أيدينـا سـوى دخان ورماد التجربة الحيَّة التي عاشها الشاعرُ أو الفنّانُ المبدعُ لحظة الخلقِ والتلقين المبدع.

أمّا الناقدُ الأصيلُ الحق ، فهو ذاك الذي يكـونُ فنّانـاً بغريزتـه وطبعه ، وعليـه أن يصقـل تلـك الغريـزة ، ويهـذب ذلـك الطبـعَ ، وبعدها؛ عليه أن يصنعَ أتوناً ملتهباً مشابهاً لأتون الشـاعرِ أو الفنـان صاحب الأثر ، وأن يصطلـي بنـار القصيـدة كمـا اصطلـى ويعـاني عذاب المخاض كما عانى الشـاعرُ ، وربمـا أكـثر ، حتـى يصـل إلى لحظة القذف الإلهاميّ والإيحاء الغيبي ويكتب . عندئذٍ فقـط نُصـدِّق أنّه فهمَ ، فأحسَّ فنقدَ .. وإلاّ فإنَّ كلَّ ما نسمعه من نقدٍ وتقريظٍ ، ما هو إلاّ اجترارٌ لكلام ميتٍ في أحسن الأحوال ، إن لم يكن تقيّـؤاً في وجه الشاعرِ ، أو الفنان ، وأثره الفني .

أقول قولي هذا ، وأستغفر اللّه لي ولكم ، ويا فوز المتطفّلين.

الفهرست

صدر للمؤلف

آ – في مجالات الدراسات والبحوث :

١ – دراسة عن المتنبي - جامعة دمشق ١٩٦٧ .

٢ – دراسة عن البحتري - جامعة دمشق ١٩٦٨ .

٣ – دراسة عن الجاحظ - جامعة دمشق ١٩٦٨ .

٤ – دراسة عن أبي نواس - جامعة دمشق ١٩٦٩ .

٥ – قبس من شهاب جبران - بيروت ١٩٧٠ .

٦ – رحلة شوق مع نزار قباني - بيروت ١٩٧٧ الطبعة الأولى .
دمشق ١٩٨٣ الطبعة الثانية ، دار الكتاب العربي .

٧ – شعراء الغزل في المملكة العربية السعودية ، تتضمن دراسة لفن الغزل عند خمسة وأربعين شاعراً وشاعرة في فن الغزل ، دمشق ١٩٨١. دار المجد للطباعة والنشر .

٨ – قلائد الجمان ، وفرائد الزمان ، في طرائف الأدب ونوادره . دمشق ، دار الكتاب العربي ١٩٩٥ . الجزء الأول .

٩ - أخطار المراهقة - دمشق دار الكتاب العربي ١٩٩٤ .

١٠ – الخطوبة عبر أسفار الزمن - دمشق دار الكتاب العربي ١٩٩٤ .

١١ – طرائف أبي نواس ونوادره - دمشق ، دار الكتاب العربي ١٩٩٤.

١٢ – ملوك العرب الشعراء أربعتو أجزاء – دمشق دار الكتاب العربي ١٩٩٥ .

ب – في مجال المسرح :

١ – تحليل لمسرحية غادة آفاميا - مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٦ .

٢ – تحليل لمسرحية دير ياسين - مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٨ .

٣ – تحليل لمسرحية مأساة الحلاج - مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٩.

٤ – تحليل لمسرحية الأقنعة - دمشق ١٩٨٠ .

جـ – في مجال التحقيق :

١ – ومضات في ديوان العواد ، تحقيق وشروح لثلاثة دواوين هي :
« آماس وأطلاس ، البراعم أو بقايا الأماس ، نحو كمال جديد »
للشاعر محمد حسن عواد - دمشق ١٩٧٩ . دار الثقافة دمشق .

٢ – مع الأنغام المضيئة ، تحقيق وشرح لديوان الأنغام المضيئة للشاعر محمد أحمد العقيلي - دمشق ١٩٨٠ . دار المجد للطباعة والتجليد بدمشق .

د – في المجال العلمي :

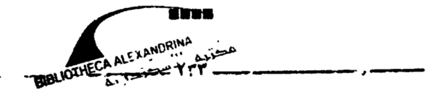
١ – تربية الدواجن ، أحدث طرق تربية الفروج والبياض ، حضانتها وتغذيتها ، وأمراض التغذية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١ .

٢ – المرجع في أمراض الدواجن ، تشخيصها ومعالجتها والوقاية منها ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٢ .

٣ – الأمراض الباطنية عند حيوانات المزرعة ، تشخيصها ومعالجتها والوقاية منها ، دار الكتاب العربي - دمشق ١٩٨٣ .

٤ – الأمراض المشتركة السارية بين الإنسان والحيوان ، تشخيصها ومعالجتها - دمشق والقاهرة ١٩٨٨ و ١٩٩٥ . دار الكتاب العربي .

٥ – مملكة نحل العسل ومنتجاتها ، وأمراض النحل تشخيصها ومعالجتها ، دار الكتاب العربي - دمشق والقاهرة ، ثلاث طبعات .



المصري ، علي ، في رحاب الفكر والأدب ، الجزء الأول ، دراسة ،

الطبعة الأولى ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ٢٤٠ ص ،

١٧٫٥ × ٢٥ سم

•

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٦/٤/٢٠٠٠





هـذا الكتاب

دراسات لبعض من نتاج الشعراء والأدباء الأساتذة : د. علي عقلة عرسان ، نزار قباني ، عبد الكريم الحمصي ، وغيرهم .. تتسم بلغة البحث والتحليل الجيد والاستنتاج ، وتحتوي على طروحات فكرية بارزة في أدب وشعر الأدباء المترجم لهم .

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

دمشق

ثمن النسخة ٢٢٥ ل.س في القطر

٢٧٥ ل.س في أقطار الوطن العربي